جان دومال و ماري لوروا

جمال عبد الناصر

من حصار الفالوجة ...
حتى الاستقالة المستحيلة !

قدم له
كمال جنبلاط

ترجمة ريمون نشاطي

دار الآداب - بيروت

الطبعة الخامسة
حـزيران (يونيو) ١٩٧٩

«انفروا خفافاً وثقالاً
وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم
في سبيل الله»

آية قرآنية

لمحة وجيه في صور

بقلم كمال جنبلاط

منذ أوّل لحظة عرفناه ، توسّمنا فيه الخير وأحببناه .

عرفنا الرئيس جمال عبد الناصر لأوّل مرّة ، يوم كان رئيساً للحكومة الانقلابيّة وقائداً لجماعة الضباط الأحرار .. وكانت الحكومة السورية قد أوفدتنا إلى القاهرة ، وكلفتنا باسمها وباسم رئاسة أركان الجيش السوري التي كان يتولاّها اللواء الوطني الكبير الصديق شوكت شقير ، بأن نعرض على المسؤولين المصريين مشروعاً للوحدة العسكرية .. وكان المشروع يتضمن على ما نذكر : توحيد القيادة ، وانشاء صندوق مشترك للإنشاآت العسكرية ، وتنسيق الأسلحة والتدريب .. فاستقبلنا الرئيس المصري في غرفة بسيطة جداً ومتواضعة ، في بيت صغير كان يلجأ إليه للتأمّل والتفكير والراحة ، يقع على ضفاف النيل في القناطر الخيرية .. وكانت ، في وسط الغرفة ، طاولة مهيّأة للاجتماع وللعمل ولتناول الطعام في آن واحد ..

واذكر ان أبرز ظواهر القائد الثوري الشاب آنذاك كانت هي

الوداعة والبساطة والصراحة المقرونة بحدس استنتاجي لعواقب الامور ، وبداهة سريعة في الانتقال من الأسباب إلى النتائج وحس ارتقاب لردود الفعل والتجاوب عند الآخرين . وبعد نقاش دام اكثر من ثلاث ساعات ، وبعد إدخال بعض التعديلات الايضاحية ، التفت الرئيس جمال إلينا وقال : « إننا نقبل بهذا المشروع ، ولكنك سترى يا أخ كمال أنهم – اي الحكومة السورية آنذاك – هم الذين لن يقبلوا به ولن ينفذوه » .. فاستغربت الأمر ، ولكنني ما لبثت فيما بعد ، يوم حملت الجواب المصري إلى اللواء شوكت شقير ووزير الخارجية خالد العظم ، أن تأكدت من صحة حدس الرئيس جمال .. فقد حاول عبثاً رئيس الأركان السوري أن يجعل الحكومة السورية تنفذ الاقتراحات التي كانت هي قد تقدمت بها . ولكن شيئاً من ذلك لم يحصل ..

ولما استقبلني الرئيس مرّة اخرى ، قبل ان اغادر ارض الكنانة ، لاحظت بأنّه يستعرض بكليّة قلبه وقبسات عقله أنظمة الاصلاح والتقدم والتنمية ، ويسترشد المبادىء والأفكار التي يمكن أن تحقق ازدهار بلاده ورفع مستوى الشعب المصري في العدالة والاخوة والتضامن والمساواة مادّياً ومعنوياً وقومياً .. وكان لا يزال في مرحلة الاستقصاء والمقارنة بين مختلف الأنظمة الاجتماعية والسياسية ، التي يصلح تطبيقها والأخذ بها . وكان يصارحنا بكل بساطة وبتواضع جمّ ، وبمحبة تتألق في عينيه مع إشراقة العزم على وجهه ، وتجلي الارادة القويّة في بروز ذقنه ، وحلم المثاليّة في انحناء جبينه ، وقدرته الظاهرة على العمل والصراع البادية في جسده المارد المتعضل قوّة وعنفواناً ، وهذه الشهامة والمروءة والسماحة الماثلة في بعض قسمات وجهه وأنفه ، وهذه السمرة العربيّة التي تحلو بها ابتسامته ويزدان بها صمته ، وقبل وفوق كل ذلك كان شعور عميق بالإنسانيّة يعمر قلبه وكيانه ويجري على لسانه ... وكان يقول

لنا بسذاجة : انه لم يفكر ابداً فيما مضى أنّه سيجد نفسه ، هو ورفاقه ، مضطراً بحكم اختلاف السياسيين التقليديين المصريين وتفاهتهم ، الى ان يمارس السلطة ، وانّ جلّ ما كانوا يهدفون إليه هو إنقاذ مصر من الطغيان والفساد في عهود الملكية الأخيرة ، ثمّ تسليم الدولة إلى أربابها من السياسيين المحترفين .

وأخذ الرئيس يستعرض أمامنا – وكأنه يناقش نفسه – بعض هذه المبادىء والافكار الرئيسية التي بدأت تنجلي في مجالات استغراقه بالتأمل ! وتحدثت لماماً عن الاختبار اليوغوسلافي وعن مناهج حزب العمال البريطاني وبعض التجربات الاشتراكية التي قامت في الهند وفي البلدان الشيوعية وعن ميثاق حزبنا التقدمي الاشتراكي وعن ضرورة اشراك العامل المنتج بالفائدة العامة للإنتاج ذاتها . ويبدو لي أن الخطوط الرئيسية للمبادىء الأساسية التي تركزت وقامت عليها فيما بعد التجربة الاشتراكية المصرية المبتكرة الطريقة ، كانت ترتسم حلقاتها في نفسه آنذاك وفي ضوء دفء عيونه الحالمة وبما كان يغمره من إرادة الخدمة والتضحية ..

وقال لي في مناسبة اخرى : « انّ اضخم واخطر عمل قمت به في نظري وبالنسبة اليّ ، وهو أخطر من انجازات الثورة ذاتها ، هو : انني تمكنت أن احول تماماً بين الجيش وبين ممارسته للسياسة .. » وكانت دوامة الانقلابات العسكرية قد أضحت مصيبة بعض البلدان العربيّة .

وزرنا الرئيس عبد الناصر أيام الوحدة المصرية السورية في دمشق ، عاصمة الخلافة الاموية . وكنت ارى فيه وكأنه وريث لبعض كبار الفاطميين عبر التاريخ ، فكان يفاتحنا بأمور كثيرة تدلّ على صوابيّة تقديره للأمور ، ونكاد نقول استقرائه للمقبل علينا من الأحداث . وكان حماس الشعب العربي في كلّ مكان يرنو إليه في تطلّعه إلى ذاته وامله ، وكأن الدنيا بأسرها اشرفت معنا على

الموعد الكبير وعلى منحة القدر، وعلى منعة الزمان..

وكانت هذه العاطفيّة العميقة الجميلة تتسرّب خلال خطبه واقواله وتحياته ومبادراته. فالشباب الطليّ النديّ عرس تلك الايّام يرقص في مرابع فرحتها.. وما حسب احدنا أن تُقــدم أيدي الظلام على فرط نظام العقد الجماني الذي تجلى فيه امل العرب وطموح التاريخ روعة الالتقاء بين الجماعة في الاخوة والكفاح والمصير والبناء..

رأيناه مع اللواء شقير في كانون الثاني سنة ١٩٦٧، وكانت علامات الجهد المتصل العنيف في حقل البناء الداخلي والنضال السياسي الخارجي وفي مقاومة الاعداء والمتخاذلين والمنكرين والشامتين والحاقدين على السواء؛ تحيط عينيه السوداوين بوهج زرقة سلالة ابناء النيل الجميلة. وكان في استعراضه للسنة المقبلة عليه صريحاً واضحاً يقول متنبئاً على عادته: «إنّ هذه السنة ستكون أخطر سنة على الجمهورية العربية المتحدة وعلى العرب».. وحذرنا كثيراً من نتائجها، وكأنه كان يتوقع الهجوم الاسرائيلي على الأرض العربية وسط انقسام نهج حكام العرب وتناحرهم وتآمرهم احياناً ومزايداتهم الجوفاء..

وبعد النكسة بقليل، ويوم حضرنا مؤتمر التضامن الافريقي الاسيوي، شاهدنا الرجل العملاق ذاته، بابتسامته وأنفته الصامتة التي لم تتبدل، وبتواضعه وأنسه العفوي الأخاذ وبهيبة الأسد الجريح في سيمائه.. ولكن الرضى والتسليم والعزم والأمل ورباطة الجأش كانت تغلب، وتتحول في انتقالها وظهورها بين اسرارة الوجه ونور العينين.. على أن المسحة الروحانية التي كان عليها في تنزّل الايمان في صدره وعقله، بدت بارزة واضحة متعاظمة في مظهر الرجل ومبادرته وتفكيره وفي حديثه.. وتحدثنا واقعاً وفعلاً عن اشياء روحانية... وكأنّه قد تلبّس في تلك الساعة عذاب الشعب العربي

الناجم عن سوء التصرف وعن الأعمال الخاطئة الماضية وانحرافات الحكام وهدر الطاقات .. وكأنّ كلّ ذلك وقع وحصل وتجمّع في النكسة لأجل « تنقية نفوسنا وتطهيرها » على حدّ تعبيره آنذاك ، وكان اقتناعه الكليّ الصميمي بالارتباط السببي بين هذا وذاك ، ويقينه بالخروج من سيناء النكسة وعزلة المحنة إلى النصر والغلبة .. فالنار للحديد فولاذه ، وقاع الأرض الضاغط الصاهر للفحم المستبطن جوهر ماسه .

* *

وهذا الكتاب الفرنسي الذي عكف الأخ الصديق الدكتور سهيل ادريس على إصداره ، هو من الآثار التي تعتمد في اسلوبها الوضعي ، بعد النكسة بقليل ، الانطلاق من أحداث معينة متسلسلة ، ومن أرقام واعمال ومبادرات محدّدة ، إلى إظهار شخصيّة الرئيس جمال عبد الناصر وحقيقة نهجه وأهدافه بأسلوب شيّق موجز علمي ، وبالتعبير والتحليل والتتابع المنطقي التي يستسيغها القارىء الاوروبي والفرنسي بشكل خاص .. ولا بد من التنويه بجهد المؤلفين والمعرّب والناشر على السواء في هذه الظروف بالذات التي يحتاج اليها العالم العربي إلى أمثال هذه الدعاية تنتشر في ربوع العالم الغربي — وفي ربوعنا ايضاً ..

وتتوضّح شخصيّة الرئيس عبد الناصر ، كما أسلفنا، في هذا الكتاب في وجهها الانساني الطبيعي البسيط البعيد عن كل تركيب وتعقيد وكأنها مرآة للصدق ينظر فيها المؤمن فيرى نفسه، أوكأنها صفحة نهر النيل في ليلة قمراء هادئة مستكنّة لا تخدش سطحها الغافي بين سمائين مكوكبين — في أعماق الفضاء وفي أغوار المياه — إلاّ امواج جعداء خفيفة كنسيمه .. ونرى احياناً فيه النزعة المصرية الشرقية العاطفية التي تنهدر في نكتة أو تشمخ في موقف للشهامة وللمروءة رفيع ، أو تهتز وترعد من سوء الغدر ومن مقابلة الخيانة . وقد تدفعه هذه العاطفية المستعلية بتطلعات التضامن ومبادرات الشهامة إلى اتخاذ

مواقف من الواجب قد لا يكون هو معدّاً لها او قابلاً بمواجهتها في الزمان والمكان المحدد وبالاسلوب الذي يقتضي، كما حدث أخيراً يوم استنهضت سوريا المهدّدة النخوةَ من اقوى عون وجار .

ويتوج هذه الشخصيّة الشعور الذاتي بالمسؤوليّة النابعة من إيمان بإسلام حنيف منفتح ، ومن مناقبية لنظام العقل تفرض نفسها على تصرّفاته .. وتبرز في هذا الباب اكثر من مقابلة مع زعماء شرقيين آخرين ، وفي طليعتهم الروح العظيم المهاتما غاندي .. فعبد الناصر هو ايضاً طالب حقيقة .. وليست روح عدم الايذاء Non-Violence في النيّة وفي القصد وفي إرادة التصرف وتوجّه العاطفة – على حد تعبير المؤلفين – هي وحدها التي تربط وتقارب بين الرجلين ، وصاحبنا لا يكاد يقوم بأي عمل أخير أو يبادر بأي عنف او تهديد بالعنف قبل أن يستنفد جميع وسائل السلام والإقناع والتسوية .. بل هناك شيء جامع أعمق من ذلك المظهر للشجاعة المعنوية ، المتجسدة برغبة عدم الايذاء أصلاً ، والتي هي إرادة الخير ، وهي التسمية الحقيقيّة لكلمة Ahimsa ، هذا العامل الجامع هو مظهر من مظاهر بعض كبار القادة الشرقيين في التاريخ القديم والحديث ، وهو الانتساب إلى شرعة عقليّة وسنة ضميرية توحي بأعمالنا وتصوّب اتجاهاتنا وتضبط مسلكنا ، وتقوّمه بسببية حسن النيّة وإرادة الخير والنزوع الطبيعي إلى السلام .

وهذا اللون من الاشتراكية الروحية Socialisme Spirituel ، – فيما عدا أنّه يشكّل المقابل الموازي الطبيعي والظاهرة النفسيّة البدهيّة لكل اشتراكية عمليّة اقتصادية واجتماعيّة – يذكرنا بألوان لها في مصر الفرعونية القديمة – إنّما هي الروح التي تحيي لا الحرف – إنّ هذا اللون من الاشتراكية الروحيّة يستقطب ويستجلب معه ذهنيّة ديمقراطيّة من الاخوّة والتسامح والتضامن

طُبعت بها شخصية الرئيس العربي ، واصطبغ بها نظامه السياسي وثورته على لأوضاع الرجعيّة البالية مهما قيل ومهما كانت المراحل .. ولعلّه ما من ورة عنفيّة الا ثورة مصر قامت في العالم وأهرق فيها مقابل استتبابها والقضاء على المقاومة لها ، دم رجل واحد لا اكثر حكم عليه بالاعدام بسبب محاولته اغتيال جمال عبد الناصر في الاسكندرية كما هو معروف . وقد تكون مصر أقرب البلدان إلى عودة وتركيز نوعٍ من الديمقراطية السياسيّة على الطريقة الغربيّة المتطوّرة او امتداداً وإصلاحاً لهذه الديمقراطيّة ، وذلك بأسرع مما يمكن أن نتصوّر .. فتقدير القائد العربي الكبير للحقوق والقيم الانسانية الرئيسيّة الشخصيّة كما برزت في العرف والاختبار الغربي البريطاني والاوروبي السكاندينافي الشهير ، لا يقل أبداً عن تمسكه بتوفير فرص المساواة في الظروف الاقتصادية والثقافية لجميع المواطنين . فالتلاحم والتلازم قائم وأصيل .. وإنما القصد من كل اشتراكية حقيقية في النهاية هو الجمع والتأليف في قالب ونظام منسجم مسؤول بين حقّ الانسان بالعيش وكرامة العمل وشرف الإسهام والاشتراك في الانتاج الاجتماعي ، وبين حقه بالحريّة ، وواجبها عليه .

وقد يكون الرئيس والرائد العربي قد تأثر في تكوين هذه الذهنيّة من مطالعاته وقراءته لأكثر ما كتب حول التجربة شبه الاشتراكية لحزب العمال في بريطانيا ولاختبار الشمال الاوروبي السكاندينافي ، على حد ما قاله لنا مرّة في دمشق . أو لعلّ في ذلك ظاهرة لتمسكه بلون من الايمان الاسلامي المنفتح على كوّة من الانسانيّة الأصيلة في حياة النبي الكريم والصحابة والراشدين ، والمستضيء بنفحة غالبة من الرضى والرضوان والتسليم ، وارتقاب التوفيق من فجوة الوصلة بهذا الذي يتعدّى إرادة الانسان ويوجهها في صمت النفس وراحة الضمير .

ويبدو لنا أن هنالك تأثراً واضحاً بالمسلك السياسي الهندي في اعتمال الديمقراطية الاشتراكية على طريقة نهرو ، والنابعة من تراث الهند ومن وحي اصداء دعوة المهاتما غاندي ، مهما قيل في عكس ذلك . كما وأنّ في هذه المواجهة تحقيقاً وتدقيقاً وتحليلاً لما ذهبت إليه التجارب الاشتراكية الماركسيّة ، ومحاولةً لتجنب غلوائها وطيشها احياناً ، واغراقها في العنف وفي تحجر الكلمة وجمود الذهن والعقيدة .

وفي اعتقادنا أنّ في جبلة الرئيس جمال وتطبعه ومواقفه شيئاً من كل ذلك في آن واحد .

وتبرز من خلال هذه المواجهة وهذه الذهنية وهذه الأعمال وهذه النهضة الاقتصادية والاجتماعية الماثلة في مصر الجمهورية ، اشتراكيّة عربيّة تجريبيّة عمليّة تهدف إلى الجدوى قبل كل شيء ، اكثر منها اشتراكية عقيدية . لأن في العقائد جفافاً وجموداً واستحسان عصبيات يبعدها عن مسالكه الواقع ووحي العقل .. وإنّما العقيدة وضعت لأجل الانسان ولم يخلق الانسان لأجل العقيدة . وقد يكمن في ذلك التصرّف سرّ نجاح التجربة المصريّة وطابع الاستقرار السياسي الذي رافق هذه التجربة .

كما وأن هذه الروح العمليّة التجريبيّة الملازمة والآخذة بواقع مصر وشعبها ربما كانت هي التي أوحت بتأليف من الاقتصاد المؤمّم والاقتصاد المختلط والاقتصاد الفردي في آن واحد ، على غرار التجربة الاشتراكية الهندية وبعض دول اوروبا الشرقية . كما وأنّ هذه الروح العملية التجريبيّة هي التي أوحت بهذا الطابع من التعاون بين المصلحة الخاصة والمبادرة الخاصة وبين المصلحة العامة والتوجيه العام ، على حدّ ما كان يتصوّر ذلك «بركي» Burky في كلّ اشتراكية حقيقيّة .. لأنّ المقصود من تحقيق النظام الاشتراكي

ليس سوى التوفيق بين جهد الفرد و بين تعاون الجماعة ومصلحة هذه الجماعة وحقها بأن يكون الاقتصاد اقتصاداً اجتماعياً موجّهاً لمصلحة الامة .

ونكتفي بهذا القدر من التقديم لهذا الكتاب الذي يكشف ، في اسلوب منطقي ، شيئاً بسيطاً عن مكامن رجل احببناه ، وأحببنا فيه هذه الطينة الانسانية ، هذه الشجاعة المعنوية ، هذه الصراحة الشفافة القريبة إلى العقل وإلى القلب ، هذه الروح العمليّة والعلمية المستوحية لما في ذهنية الغرب من مسؤولية وانتظام وعزم في الامور ومثابرة في التحقيق والجهد والمراقبة ، وبين افضل ما في مصر وفي تاريخها وفي جبلة شعبها المتوجه دائماً إلى اشراقة النور وومضة شمس الفجر منذ كانت ترتسم له في باطن خياله فوق مسلاّت ضمير الحضارة الأولى ، حتى عهودنا المستوثقة شمس العلم والانفتاح والعدالة هذه ، وبين الانتساب المعنوي التراثي لروحية الاسلام وتقليد العرب .

وهكذا فإن اكثر ما نحب في عبد الناصر – علاوة عن صداقتنا الشخصية التي لا تتزعزع – هو هذا الانسان الطامح إلى الخير والفضل والحب والقوة المعنوية في الرجل على قدر اهتمامنا واكثر بالسياسي وبالمنظم وبالقائد الاجتماعي وبالرائد القومي العربي والذي عرف أن يطبع هذه القومية ذاتها بطابع الانسانية .. اي هذا النتاج الصافي الذي يبقى جوهراً في النفوس ، قبل وبعد تعريتها من ضوضاء السياسة ، ومن اطارات الدعاية ، ومن تصورات العاطفة المشعة ، وفي التقدير المستحق الذي يذهب حتى ابواب التقديس ويقف بنا عند عتبة المحبة الخالصة والثقة والوفاء . وهذا الشعور – شعورنا – هو اليوم في ظرف النكسة اقوى في توجّهه إلى جمال عبد الناصر منه في اي زمن سابق وآخر .

كمال جنبلاط

مقدمة

مصر المعاصرة ... وقائدها ... والعالم العربي ... والاسلام : كلها موضوعات مترابطة ترابطاً وثيقاً ولا يعلم الجمهور الفرنسي عنها الكثير ، بل هو من أقل الجماهير في العالم الماماً بها . والحال انها موضوعات تمس بلا مبالغة ودون ادنى بلاغة في الكلام ، خيرنا المشترك : وهو السلام . لقد لمسنا الكارثة عن كثب أخيراً ، فتفاديناها باعجوبة ، ولكن الحقيقة هي اننا نجونا باعجوبة دون ان نحس بالخطر ...

لقد قيل كل شيء عن جمال عبد الناصر نفسه ، اذا كان المقصود من عبارة «كل شيء» هو السب وذكره بالشر وبكل قذيعة يمكن تصورها . ولقد رزحنا تحت وطأة اندفاعنا الطبيعي الرامي الى وضع كل شيء في اطار معروف ، اطار اعتيادي ومطمئن ، فأخذ كل منا ، بطريقته واسلوبه الخاص ، يعطي جمال عبد الناصر نعتاً وعنواناً نهائياً ... وبذلك ، تم « تصنيفه ». ولكن يكاد الجميع ينسون بسرعة فائقة أن اسلوب التبويب والتصنيف السياسي الذي يطبق في فرنسا وانكلترا ، وفي اوروبا عموماً ، لا يمكن أن يطبق تطبيقاً سليماً في الشرق الاوسط ولا في جميع البلدان الافريقية الآسيوية التي احتفظت لنفسها ، برغم المظاهر ، بجزء كبير من تقاليدها الأكثر قيمة وأهمية .

إن جميع النعوت والتسميات الكاريكاتورية (ديماغوجي ، بولشفيك ،

ذو نزعة عسكرية ، فوضوي ، فاشستي الخ ..) والتي اطلقت على جمال عبد الناصر بهدف اثارة الكراهية وابقائها ، تمحى كلها وتذوب بمجرّد تحليله تحليلاً جدّياً . ومن هنا دهشة الفرنسيين الذين اتيحت لهم فرصة مقابلة الرئيس المصري على نحو ارتجالي أو يكاد . فقد كتب كلود استييه بمجرّد عودته من القاهرة حيث كان قد قابل جمال عبد الناصر ، يقول :

« إن هذا الرجل الذي يوصف في سهولة بأنه حاكم مستبدّ شرس ومطلق السلطة ، ظهر لي ، على عكس ذلك كله حينما اقتربت منه ، بمظهر رجل يتميّز بالدماثة واللطف ورقّة القلب ، إنسان مستريح وأنيس مع محاوريه الذين يفتتن معظمهم آلياً بتأثير جاذبيته الشديدة . وأنا أعترف بأن ذلك قد حدث لي ايضاً،ولكن بعد أن حدث لرجال كثيرين مثل هيوبرت بوف ميرى وجيل مارتينيه وادجار فور وغيرهم . ومهما يكن من أمر ، فان عبد الناصر ليس فيه ذرّة من« الموسولينية » ، وهو ايضاً عكس الطاغية السفّاك الدماء ، بل انا اضيف الى ذلك انّني اعتبره واحداً من انصار اللاعنف » [1] .

ومن ناحية اخرى ، ، فإن الكاتب الاميركي روبرت سان جون ، الذي نشرت له مجلة « لايف » مقالاً رائعاً عن اسرائيل ، سبق له أن كتب عن عبد الناصر في كتابه الذي صدر عام ١٩٦٠ بعنوان : « الزعيم ، قصة جمال عبد الناصر » أشياء مماثلة ، فقال :

« انه يستمع الى مخاطبيه بصبر كبير ، ويبدو امامه وكأنه في وقت واحد خجول ومستريح ، صريح وحيوي ، وتلقائي بشكل واضح » .

---

(١) مصر الثورة : باريس ١٩٦٥ .

ويضيف الكاتب أن جمال عبد الناصر يستطيع بفضل ما يسميه الكاتب بـ « صفائه المسكّن » :

« أن يجعلك تقول ما يدور في ذهنك ، فهو يشجعك على ان تطرح من الأسئلة ما تظن انه سوف يُربكه ... »

وَليطمئن القارىء ... نحن لا نهوى « آراء » الصحفيين اكثر مما نكره « التحاليل النفسية » لكتّاب السيرة والتي تتسم دائماً بالذاتية ، كما اننا لا نحب التفاصيل الـ « نكتية » وغيرها من التفاصيل التي يتلذذ بها الجمهور الاميركي ، مثل بساطة حياة الرئيس العائلية ، وحبه للشطرنج ولسماع الحكايات التي يخترعها عنه الشعب المصري الساخر طوال النهار ، أو مثل هذا الأمر البسيط الذي يندهش له الجمهور الاميركي والذي نراه نحن امراً طبيعياً جداً ، وهو أن اولاد الرئيس جمال عبد الناصر مطالبون بأن يتعلّموا ، الى جانب اللغتين العربية والانكليزية ، اللغة الفرنسية ...

ولكن ، لكي نستطيع أن ندرك قدراً كقدر هذا الرجل ، فلا بدّ لنا من أن نلقي بنظرة شاملة واسعة على المركّب التاريخي الذي نشأت فيه القوى التي أثّرت على فكر جمال عبد الناصر وشعوره واعماله : أين تقف مصر في بداية القرن العشرين ؟ اين يقف العالم الاسلامي الذي هو حلقة منه وأحد عناصر تركيبه الجوهرية ؟ اين قوتها ؟ اين نقاط ضعفها ؟ ما هي طفيلياتها ؟ .. وتلك الأظافر الحديدية التي أنشبت في لحمها المعذّب ، لأيّ وحش ضارٍ تنتمي ؟

الفصل الأول

الإطار التاريخي والاجتماعي

١ – لمحة عن العالم الاسلامي

كانت التجارة العربية ، التي سيطرت على العالم المعروف قبل العام الألف ، تؤمّن بين اوروبا وافريقيا وآسيا مبادلات هامة . ثم جاءت غارات المغول في القرنين الثالث عشر والرابع عشر يصاحبها الدمار الرهيب ، فاذا بدور بغداد وسوريا والمناطق المحيطة بهما ، وكان حقاً دوراً هاماً في تلك التجارة ، يتقلّص تقلصاً كبيراً . الاّ أن مصر ، التي استطاعت جيوشها أن تصدّ في عين جـــالوت المغول الذين لم يكونوا قد قُهروا حتى ذلك الحين ، ستؤمّن لنفسها عملياً احتكار المرور بين الشرق الاقصى وأوروبا .

وفي عام ١٥٥٩ ، اكتشف الرحّالة البرتغاليون طريقاً جديداً يؤدّي الى الهند والشرق الاقصى من حول القارة الافريقية ، فدمّروا بعد ذلك الاسطول الذي وضعته مصر والفينيقيون في منطقة البحر الاحمر لضمان امنهم . وفيما كانوا يدرسون مشروعاً طموحاً لتحويل مجرى نهر النيل – حتى تمحى مصر من خريطة العالم المأهول – اقام البرتغاليون « امبراطورية من المراكز التجارية » . وبسبب عددهم الضئيل ، لم يتوغلوا الى داخل الاراضي ، ولكنهم دمروا السفن المزاحمة لهـــم وبثّوا الرعب بابادتهم الدموية الوحشيـــة لجميع البحّارة العاملين على تلك السفن . وبذلك ، تمكّن البرتغاليون من احتكار التجارة التي قامت ، في ذلك الوقت ، على اسس بسيطة . فقد كانوا يبيعون للبلدان الآسيوية الرصاص والفضّة والاسلحة والمنسوجات مقابل الصمغ والصيني

والحرير والذهب والكافور وخشب الصندل والروائح العطرية والاحجار الكريمة ونبات النّيل والقرنفل والفلفل وجميع انواع التوابل التي كانت ضرورية للأوروبيين في ذلك الوقت لاستخدامها في تحضير الادوية والعقاقير وكذلك في تركيب المشروبات المختلفة وطهي الأطعمة. وكانت النتيجة أن افلست التجارة العربية ... وافلست كذلك موانيء الاسكندرية والبندقية وجنوه وبرشلونة ومارسيليا ... وانتهى عهد الرخاء والازدهار بالنسبة لمنطقة البحر الأبيض المتوسط والبحر الاحمر على السواء.

ومنذ عام ١٦٠٠، اخذ الانكليز ينتزعون هذه الامبراطورية التجارية البرتغالية شيئاً فشيئاً ويتقاسمونها مع الهولانديين؛ واستبدل العنف والارهاب البرتغالي بعنف وارهاب لا يقل عنه شراسة، وألزمت الشعوب المستعمرة بتسليم منتجاتها وخيراتها كلها للمستعمر دون أن يكون لها الحق في بيعها لجهات أو بلدان اخرى.

واخذت اطماع بريطانيا تزداد، فبعد أن استثمرت الاسرة المالكة جميع اموالها في المشاريع الاستعمارية، احتلّت الهند، منتهزة فرصة انحطاط الامبراطورية الاسلامية التي كانت شبه القارة الهندية قد عاشت في ظلها سنوات طويلة من الازدهار. وتطبيقاً لسياستها الرامية الى تحقيق الارباح مهما كان الثمن، اخذت بريطانيا توسّع نطاق سيطرتها الاستعمارية، وتقضي على الصناعات اليدوية المحلّية حتى تُتاح لها فرصة تحويل المستعمرة الى سوق واسعة تمتصّ جميع منتجات الصناعة البريطانية. وقد أدّى ذلك الى قيام خلل في التوازن الاجتماعي، الأمر الذي أدّى بدوره الى حدوث المجاعات القاسية العديدة التي اخذت تجتاح الهند بعد ذلك.

أصبحت الهند بالنسبة لبريطانيا، بمثابة كنز يضمن لها الرخاء. وكان لا بدّ لها من الحفاظ على ذلك الكنز بكافة الوسائل ... فأصبح شعار «أمن الهند» يشكّل اهم الدعائم التي قامت عليها سياسة بريطانيا الخارجية، لا سيما وأن

ذلك الامن كانت تهدده اطماع توسعية اخرى قامت هي الاخرى على الحديد والنار وسيلة لتحقيقها على الارض الاسلامية. ففي عام ١٥٥٠، كان القيصر ايفان الرهيب قد اخضع لسيطرته منطقة حوض نهر الفولجا الممتدة من كازان حتى الاستراخان، بعد أن هزم التتار الذين كان الشعب الروسي قد رزح تحت نيرهم مدة ثلاثة قرون. وبعد ذلك بقرنين، جاءت الامبراطورة كاترين الثانية تعزز وتواصل هذه الحركة التوسعية، فاستطاعت أن تقيم على شواطىء البحر الأسود، على حساب تركيا. ومنذ عام ١٧٩٨ - أي في الوقت الذي قامت فيه الحملة على مصر - بدأ الروس، الذين كانوا قد اقاموا في القرم، زحفهم من جانبي بحر قزوين، حتى وصلوا الى ابواب القوقاز وتركستان وهي منطقة اسلامية تكاد مساحتها تساوي مساحة نصف القارة الاوروبية، وقد عاش فيها أيام الحضارة الاسلامية الكبرى المفكرون والعلماء والشعراء والمعلمون الروحانيون.

وامام هذا التوسع الروسي في اتجاه الهند، اخذت بريطانيا القلقة تؤيد منذ ذلك الوقت سلامة اراضي فارس والامبراطورية التركية، بينما ظلت تعيش في فزع من احتمال حدوث تحالف روسي - فرنسي.

وبذلك، تقاسمت ثلاث دول كبرى المنطقة الشرقية للعالم الاسلامي (اندونيسيا والهند وآسيا الوسطى). ثم بدأ الاستعمار الغربي غزوه للمنطقة الغربية منه باحتلال فرنسا لمدينة الجزائر عام ١٨٣٠. اما المنطقة الوسطى من العالم الاسلامي، بما في ذلك فارس وشبه الجزيرة العربية وتركيا، فلم تتعرض للتهديد إلا بعد فتح قناة السويس التي فشل الانكليز في محاولاتهم للحيلولة دون حفرها (عام ١٨٦٩). وكانت بريطانيا تخشى من وقوع خلل خطير في ميزان التجارة الدولية من جراء وجود طريق جديد يؤدي الى الهند، الى «كنزها»... والحق ان بريطانيا بلد غير طبيعي، فريد في نوعه، حيث يعتمد كل شيء، لا على الزراعة، بل على التجارة والمواصلات

مع الشرق ؛ وكان ثمة وسيلة وحيدة لضمان مصالحها بكل تأييد ، فكان من المحتّم عليها أن تحتلّ ذلك الممرّ الحيوي ، وبالتالي احتلّت مصر عام ١٨٨٢ بكل وقاحة .

وكانت الصناعة اليدوية الصغيرة في مصر قد تأثرت تأثراً شديداً من الاجراءات التي اتخذها السلطان سليم عندما حرم ذلك القطاع النشط المزدهر من .امهر فنّانيه الذين ارسلوا الى تركيا بأمر من السلطان . ثم جاء الاحتلال الاستعماري البريطاني ليقضي على ما تبقّى من صناعات صغيرة ناشئة وليستفيد الى ابعد الحدود من زراعة القطن على نطاق واسع ، تلك الزراعة التي حقّقها محمّد علي . ومن اجل تحقيق سيطرتها المطلقة على قناة السويس ، قبلت بريطانيا أن تترك لفرنسا حريّة احتلال تونس عام (١٨٨٠) ومرّاكش (عام ١٩١٢) ، كما انها شجّعت ايطاليا ، التي خرجت مهزومة من اثيوبيا (عام ١٨٩٦) ، على أن تفترس ليبيا .

وهذه السياسة البريطانية الرامية الى تقسيم البلدان المسالمة التي كانت قد استطاعت حتى ذلك الحين أن تفلت من براثن الاستعمار ، سرعان ما شملت روسيا . فقد اعترفت لها بريطانيا بحريّة التحرّك في الاقاليم الفارسية المحيطة بأراضيها ، مقابل حريّة مماثلة لها في بقيّة اجزاء المنطقة بما في ذلك افغانستان . ثم اعلنت الحرب العالمية الاولى – التي شنّتها هيئة اركان حرب الامبراطور النمسوي فرانسوا جوزيف – فأدّت الى سقوط الامبراطورية التركية ، آخر معاقل العالم الاسلامي ؛ وعبثاً حاول السلطان ، خليفة المسلمين ، أن يستنجد بفارس وافغانستان ... وما هو اسوأ من ذلك أن بريطانيا استطاعت ان تثير ضده عدداً من القبائل البدوية في شبه الجزيرة العربية ... وكان ذلك ، على ما يبدو ، نهاية الآمال والتطلعات العربية والاسلامية نحو حياة حرّة مسالمة .

الا أن اسطورة طير العنقاء المصري ، ذلك الطير الخرافي الذي يعتقد

هيرودوت انه ينبعث من رماده بعد موته ، ستجد مثالاً مذهلاً في السنوات التالية . فبدلاً من أن يكون سقوط السلطان وتفكك اوصال دولته ايذاناً بسقوط العالم الاسلامي ، تحوّل الرماد الى حياة وتحققت يقظة العالم الاسلامي والعروبة : « يذلّ من يشاء ويعزّ من يشاء ... »

لم يخطر مثل هذا الاحتمال على بال اولئك السياسيين البريطانيين والفرنسيين والروس الذين ضربوا بالوعود الممنوحة للعرب عرض الحائط ، وراحوا يتآمرون منذ عام ١٩١٦ ليتقاسموا – في حالة الانتصار – مخلّفات الدولة العثمانية ... بل هم قد وعدوا ايطاليا ايضاً بنصيبها من قالب الحلوى في افريقيا ... صحيح انه قد اقيمت في عام ١٩٢٠ دولة مستقلّة شرق صحراء سيناء ، ولكنها لم تمثّل تلك المملكة الواسعة التي ناضل من اجلها الوف مؤلفة من البدو ، إذ لم تشمل سوريا ولبنان كما أنها لم تشمل لا العراق ولا شرق الأردن ولا فلسطين – فقد احتفظت بريطانيا لنفسها بهذه البلدان الثلاثة ، بينما استولت فرنسا على سوريا ولبنان ، وذلك بعد مناقشات طويلة صاخبة ، دارت في جوّ من الاطماع الاستعمارية وسوء النيّة من جانب الحلفاء المنتصرين . وفي فلسطين ، كشفت التصريحات البريطانية المتناقضة (الاعتراف بحق العرب في تقرير مصيرهم ، وفي الوقت نفسه الاعتراف بحق الصهاينة في جزء من فلسطين) كشفت لكل مراقب واع [1] مدى استحالة تلك التصريحات الرسميّة وأخطارها وشرورها .

ولكن حـــدث في الفترة ما بين عام ١٩١٦ وعام ١٩٢٠ أن كلّلت الثورة البولشفيّة بالنجاح ... فنشرت الثورة نصّ الاتفاق السريّ بتقسيم العالم الاسلامي والعربي . وعلى الفور ، قامت بلاد فارس (التي حاولت بريطانيا عبثاً أن تفرض عليها حماية متسترة) بتوقيع معاهدة مع روسيا

---

(١) امثال لورانس الشهير ، مؤلف « أعمدة الحكمة السبعة » الذي كان ضابطاً في فلسطين ، وشبيهه في الجانب الفرنسي ، ماسينيون الذي كان في اللبـاس العسكري آنذاك ، ثم أصبح استاذاً في « الكوليج دوفرانس » .

تضمن سلامة اراضيها ... وتلتها تركيا وافغانستان ، فوقّعتا اتفاقيات مماثلة مع موسكو . وفي هذه الظروف ، كان لا بدّ للسبع البريطاني من أن يتخلّى عن بعض الامتيازات ؛ ففي عام ١٩٢٢ ، تخلّى عن وصايته على مصر ، ولو أن هذا الاجراء الظاهري الذي قام على شروط تحدّ من حريّة البلاد واستقلالها ، لم يغيّر الكثير بالنسبة لخضوع مصر خضوعاً تاماً للسيطرة الاستعمارية البريطانية . ولكن ، إن دلّت تلك المبادرة البريطانية على شيء فإنما تدلّ على القوّة المتصاعدة للقومية في منطقة وادي النيل . وسوف نحلل هذه القومية المصرية بالتفصيل بعد أن نتعرّض اولاً لما لا بدّ لنا أن نكتشفه بالنسبة لردود الفعل الاخرى التي ظهرت نتيجة للمدّ الاستعماري في العالم الاسلامي .

٢ – ردود فعل العالم الاسلامي على التسلل الغربي

لم يكن الاستغلال الاقتصادي البغيض واستخدام افراد الشعب ذخيرة حية على ميادين القتال البعيدة هي العاهات الوحيدة التي ضربت الشعوب المستعمرة في جميع انحاء العالم. فقد حمل الاستعمار معه جوائح اخرى مثل الامراض الناشئة عن ادمان الخمور والأمراض التناسلية التي انتشرت بسرعة في البلدان غير الاسلامية، بينما اوقفتها في المستعمرات الاسلامية المحرّمات القرآنية بشأن تعاطي الخمور والحفاظ على صحة الجسد. كما أن الاستعمار اخذ يقضي على التقاليد والعادات الخلقية والدينية او يفسدها. وكان كل بلد يواجه ذلك برد فعل مختلف. ولعلّ الشعب الليبي هو الذي ضرب اعظم امثلة المقاومة عندما هبّ بزعامة آل سنوسي ليكافح ضد المعتدين الايطاليين. وبالرغم من الأسلحة البدائية الخفيفة، استطاع هذا الشعب أن يصمد اكثر من ثلاثين سنة امام الجيوش الايطالية وامام طائراتها ومصفّحاتها واسلحتها الاوتوماتيكية الحديثة... وبعد عام ١٩٢٥، اعتدى الايطاليون على مواشي البدو وعلى جميع ممتلكاتهم وافراد قبائلهم من نساء واطفال وشيوخ... لقد كانت حرب ابادة بمعنى الكلمة؛ فقد قُتل في الفترة ما بين عام ١٩١٣ وعام ١٩٤٠ ما لا يقل عن ٦٠ في المائة من البدو الرحّل، ممّا جعل موسوليني يعلن بوقاحة «أن السهول الليبيّة الخضراء قد تحوّلت الى بحار من الدماء»...

وقد انتهى ذلك الفصل المجيد من تاريخ المقاومة العربية بصورة شنيعة ، صورة القائد الباسل لحركة المقاومة وقد وقع في ايدي اعدائه الذين عرّضوه للتعذيب ثم شنقوه بحضور عشرين ألفاً من انصاره جيء بهم من مختلف المعتقلات بواسطة سيارات النقل لمشاهدة زعيمهم وحبل المشنقة ملتفّ حول عنقه ... وكان موسوليني قد قطع اجازته في اوروبا على اثر علمه بنبأ القبض على عمر المختار ، وعاد فوراً كي يتمتّع باحتضار خصمه .

ونظراً للمساحة المحدودة لهذا الكتاب ، فليس في وسعنا تحليل رد فعل الهند واندونيسيا والجزيرة العربية ازاء التسلل الاستعماري الغربي ، الاّ انه يتحتّم علينا ان نذكر أنه كانت هناك بعض البلدان التي ظلّت مستقلّة والتي حاولت أن تقترب من الغرب وأن تقتبس بعض تعاليمه في محاولة تهدف الى تحصين النفس ضد اطماع الغرب ؛ وقد شملت هذه الوسائل ضمن ما شملت دراسة العلوم والافكار الاوروبية واستخدام الفنون الحديثة في المجالات المختلفة بما في ذلك الصناعة والزراعة ، وتحرير المرأة واتخاذ الاجراءات المختلفة بهدف تحقيق الدراسة العلمانية ...

وقد فرض هذا النظام نفسه في تركيا ، تحت قبضة مصطفى كمال الحديدية ، وذلك بعد الحرب العالمية الاولى عام ١٩١٨ . واذا كانت قد فشلت محاولات تطبيقه في ايران وافغانستان ، حيث قاومته الجماهير الشعبية المتمسكة بتقاليدها وتراثها الاسلامي ، فان حركة « التغريب » التي بدأت في هاتين الدولتين تقدّمت ببطء ولكنّها لم تتوقف ، فسارت بحرص شديد ودون أن تحدث بلبلة اجتماعية ودون أن تصادم العادات والتقاليد السائدة . واليوم ، يواصل هذا التيّار عمله في افغانستان تحت رعاية ملك ذي ثقافة فرنسية يعدّ من اكثر الملوك علماً .

والحق ان هذا البلد قد انجب واحداً من اشهر دعاة احياء التّراث الاسلامي في نهاية القرن التاسع عشر ، وهو جمال الدين الافغاني . وقد ترك هذا المفكّر الكبير آثاره في جميع البلدان الاسلامية ، الاّ ان تأثيره ترك بصمات واضحة وعميقة في الاساتذة من مفكّري القومية المصرية الناشئة . وقبل أن نستمع الى خطبه الحماسية ، ينبغي لنا أن نستعرض اهمّ الاحداث التي طرأت على الموقف في مصر قبل قدوم الافغاني .

٣ - رد فعل مصر : فترة تكوّن القومية المصرية
(١٨٠٠ - ١٨٧٧)

قال نابليون بونابرت للشعب المصري :

« لقد جئت كي اردّ حقوقكم وكي اعاقب مغتصبيكم . واني احترم ، إكثر من المماليك ، الله ورسوله وكتابه ... لقد اغتصب المماليك ارضكم وممتلكاتكم ونساءكم ... فاذا كانت مصر مزرعتهم الخاصة ، فليبرزوا عقد الايجار الموقع عليه من الله !...

ولكن الله عادل ورحيم ... وجميع المصريين سوف يعملون في مختلف الميادين ، وسوف يحكم ابرزهم حكمة وثقافة وفضيلة ، وسوف يعيش الشعب سعيدا ... »

واذا كان بونابرت قد ساهم الى حدّ كبير في اخصاب الأرض وتهيئة التربة حتى تصبح صالحة لتنبت فيها بذور القومية المصرية ، فلم يكن ذلك بفضل بلاغته وخطبه الرنّانة ، ولكن بفضل مثتين من هؤلاء العلماء والمهندسين والاطباء الخ ... الذين صاحبوه الى مصر ، والذين مكث الكثير منهم بعد أن خرج نابليون من مصر على رأس جيشه ، محاولين أن يجددوا من حيوية البلاد ، فقاموا ببناء السدود وبتحسين وسائل الرّيّ وبتطوير التعليم ، وبخاصة

وبخاصة تعليم الرياضيات والجيولوجيا والطب ، ولا سيما بعد عام ١٨٠٥ حينما امسك ضابط الباني شاب يدعى محمّد علي بزمام الحكم في مصر ، باسم السلطان .

وكان محمّد علي أهلاً لهذا الاختيار . كان يستمع الى النصائح بكل ذكاء . وكان يطبق الوسائل الحديثة للزراعة المكيّفة ممّا ترتّب عليه مضاعفة الانتاج الزراعي ومحصول القطن بصفة خاصة . وبفضل الدخل المتزايد من جراء ذلك، تمكّن محمد علي من دفع اجور الخبراء الاجانب، كما انه استطاع أن يبني جيشاً قوياً واسطولاً بمعاونة بعض الضباط والمهندسين الفرنسيين . وما زالت الأجراس الفرنسية ، حتى ايامنا هذه ، تدق في ثكنات القاهرة ... بينما ادخلت الاصلاحات الادارية في مختلف المصالح الحكومية وعلى جميع المستويات ، وتم ارسال المبعوثين من الطلاّب الى مختلف بلدان اوروبا وخاصة الى فرنسا لتلقّي العلم .

ويمكن القول بأن محمد علي وجميع الذين جاؤوا في الحكم بعده ، اشتركوا بطريقة غير مباشرة في التمهيد وفي اعداد السبيل للقومية المصرية . وكان طبيعياً ، بالنسبة لمحمد علي ، ان تمتزج القومية المصرية وكل المعاني التي تحملها هذه الكلمة من استقلال وكرامة ، بكرامة اسرته . ولقد استطاعت مصر محمد علي أن تجعل بريطانيا ترتجف وأن تمهّد السبيل للعمل الذي قام به بعد ذلك جمال الدين الافغاني . فتحت تأثير الافغاني ، نهض الشيخ محمّد عبده ، ابن مصر الأصيل ، فتحوّل عن الدروب الدينية التأملية والزهدية التي كان منجذباً اليها حتى ذلك الحين ، وأخذ يدعو الى العمل ، كمعلمه ، لتحرير البلاد الاسلامية من النير ، متوسلاً الى ذلك بالصحافة والدعاية المستمرة . ولنستمع اليه وهو يدين حكم الخديوي اسماعيل ، حفيد محمد علي في عام ١٨٦٦ :

«كان المفروض بتشكيل مجلس النوّاب أن يعلّم المصريين

أنهم معنيون بشؤون الدولة وأن ارادتهم كان لا بدّ لها أن تسمع وتؤخذ في الاعتبار ... ولكن لم يكن ثمة من يعي هذا الحق حتى اعضاء المجلس انفسهم ... كان عمل المجلس مشوّهاً بارادة الخديوي نفسه ، الذي كان يخطر المجلس بوجهة نظره ؛ وكان الاعضاء يتناقشون شكلياً ، وفي النهاية كانوا يلتزمون برأي الخديوي ... إن اقلّ كلمة كان في وسعها أن تؤدّي الى المنفى أو مصادرة الممتلكات أو ربما الموت ... وفي وسط هذه الفترة المظلمة ، ظهر جمال الدين الافغاني . »

كان جمال الدين جريئاً ، وعصري النزعة ، وكان يبث الحماس في نفوس الطلاب وكبار الموظفين المسؤولين في الدولة ... وبعض الشخصيات المرموقة ... ولكن هذا كله كان ذا تأثير ضعيف امام تسلط الخديوي واستبداده . غير ان ذلك « الشعاع الضعيف من الضوء » على حدّ تعبير الشيخ محمّد عبده ، إن لم يكن يستطيع بلوغ الخديوي ، فقد اخذ ينتشر شيئاً فشيئاً في جميع الاتجاهات ، حتى عام ١٨٧٧ عندما هزمت روسيا تركيا فبدأت تتفكك اوصال ممتلكاتها في اوروبا ... وكان هذا العام الذي شهد البليّة العظيمة تحلّ بدولة المولى قد شهد ايضاً ، ولأول مرّة ، ظهور رأي عام مصري اصيل .

ففي عام ١٨٧٧ ، صدرت بعض الصحف الوطنية فركزت اهتمامها على المسائل السياسية والاجتماعية والمالية، ومنها « مصر » و « الوطن »، بينما تردّد في جميع الاوساط شعار جديد : « مصر للمصريين » . وفي الوقت نفسه ، اخذت جريدة « الاهرام » تنشر سلسلة من الدراسات لمحمد عبده تعتبر بمثابة نقطة البداية لحملته الاصلاحية العظيمة الحاسمة . لذلك كله ، يمكننا القول بأن عام ١٨٧٧ كان بمثابة عطفة التاريخ التي شهدت تفتّح القومية المصرية .

وجاء ذلك نتيجة لفترة طويلة من التمهيد ، اشترك فيها العديد من المثقفين العرب ، السوريين واللبنانيين المهاجرين او المنفيين الذين بذلوا المزيد من الجهود في الخارج وبالاخص في الدوائر الغربية للحصول على معاونة بريطانيا في سبيل التخلص من المحتل التركي . ومن ناحية اخرى ، فان تطور الروح القومية المصرية سار ، طوال العشرين سنة الاخيرة من القرن التاسع عشر ، جنباً الى جنب مع « نهضة الأدب العربي » الذي كان له تأثير كبير في مختلف الميادين .

٤ ـ القومية المصرية من عام ١٨٧٧ حتى حرب ١٩١٤

انطلقت القومية المصرية بدفع من الشيخ محمد عبده ومن قاعدة تجمع ثلاث قوى فكرية اساسية وهي :

١) وجوب العودة الى الاسلام البدائي ، وهذه الفكرة سنحاول أن نشرحها فيما بعد .

٢) إن الفهم الكامل والصحيح للاسلام يوجهنا في السياسة نحو مجتمع ديمقرقراطي يستبعد سيطرة رأس المال .

٣) وجوب إقامة نظام مستبد في مصر ، في المرحلة الاول ، وبصفة إنتقالية .

و « العودة الى الاسلام » نادى بها آخرون ، ناسبين اليها معاني مختلفة . أما الشيخ محمد عبده ، فقد لخّصها بالسطور التالية :

« يجب أن نفهم الدين كما فهمه المسلمون الاوائل قبل الانشقاقات ... ويجب أن نرى فيه كابحاً منحنا إياه الله ليمنع العقل البشري من الافراط والمغالاة ويحدّ من اخطائه ، وليسمح لنا في نهاية الأمر أن نتسنّم الحالة الانسانية كما ارادتها لنا الحكمة الالهية ...

« والدين ، حين يفهم بهذا الشكل ، لا يتعارض والعلم ... ولكننا

عندما نتساءل عن المبادىء التي توجه عملنا ، نجد أن الدين يذكّرنا ايضاً بحقائق ثابتة . »

كذلك يلحّ الشيخ محمد عبده على مسألة العلم ليساند الاسلام ضد هجمات الغرب حيث كانت قضية العلم والايمان تثير المناقشات الصاخبة على جميع المستويات في ذلك الحين . ويبدو أنه هاجم ايضاً تعدّد الزوجات للأسباب نفسها ، وهي هجمات قابلة لأن تتسم بعدم التسامح ، وهو ما يناقض روح القرآن[1] .

أما انتقادات الشيخ عبده لمظاهر اخرى للانحراف عن الاسلام – ذلك الانحراف الذي عرفته ايضاً المسيحية – فهي اقلّ قبولاً للمناقشة ، ومن ذلك انتقاده للقدريّة التي يتصوّر الغرب أحياناً أنها عقيدة بينما يعارضها القرآن روحاً ونصّاً ، وكذلك تعارضها حياة الرسول نفسه . فإن القرآن يدعو الانسان الى الجهد الشخصي [2] ، الى الجهاد بواسطة التأمل والعمل

---

(١) ينصح القرآن عموماً بالزواج الواحد ، ولكنه يسمح للرجل الذي يحسب نفسه قادراً على أن يكون عادلا ان يتزوج اكثر من واحدة . ولكنه يضيف « فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة » ؛ وغالباً ما تطلب الزوجات هذا « العدل » أمام المحكمة إذا احتاج الأمر . وبالإجمال، فتعدد الزوجات نادر في الاسلام ؛ ولكنه حين يتم في بعض الحالات الخاصة ، فبرغبة من تجنب مآس قاسية ؛ فهناك بعض الرجال ، وغالباً الفنانين الخلاقين ورجال الأعمال والمفكرين والرجال العظام ، الذين لا يستطيعون ان يعملوا عملا صحيحاً إلا اذا كانت لهم حياة جنسية ممتلئة ؛ ومراحل الطمث والحبل والرضاع والمرض غالباً ما تمنع الزوجة من العلاقة الطبيعية مع الرجل ؛ وفي هذه الاحوال ، يكون تعدد الزوجات المسموح به مع تحفظات شديدة عبر عنها القرآن ، حصناً اخلاقياً ، ويسمح الشرع الاسلامي المتميز بالمرونة والقدرة على التأقلم ، بوضع تشريعات تضع المرأة ، إذا رغبت ، بمنجى من الزواج الثاني ، فينص على ان المرأة الراغبة في ذلك تطلق آلياً إذا اتخذ زوجها امرأة ثانية ، وتتمتع بالحقوق التي ينبغي ان يدفعها لها الرجل على الصعيد المادي.

(٢) « الجهاد » الذي يفسر غالباً بأنه « الحرب المقدسة » ؛ والحقيقة أن النبي يميز نوعين من الجهاد : الجهاد الأصغر (وهو الحرب العادية) والجهاد الأكبر (وهو الحرب الداخلية التي يجب على الانسان ان يشنها داخل نفسه، اي جهاد النفس) .

على السواء ، لذلك فإن على المسلم أن يشترك — اذا شعر انه قادر — في حياة المدينة بأي شكل من الاشكال . ويقول الشيخ محمّد عبده ان الاسلام الصحيح يعارض الحكم القائم على القوى الماديّة ويعارض عبادة « العجل الذهبي » ، ويتجه الى النماذج الديمقراطية من الحياة .

وإنطلاقاً من هذه القاعدة من المبادىء الاسلامية ، طالب الشيخ محمد عبده في عام ١٨٨١ ، وكان له رأي سيء بالحكام المسلمين في تلك الفترة ، بتبنيّ الجمهورية البرلمانية نظاماً للحكم ... الاّ انه ، فيما بعد ، وعلى ضوء خبرته السابقة ، حلّل بواقعية اكبر الحالة الداخلية للبلاد : فوجد أن الحس المواطني كان معدوماً تماماً لدى الجماهير ولدى النخبة على السواء ... لم يكن هناك روح الخدمة ، ولم يكن هناك ثبات واستمرار في المجهود الوطني ، وكان ثمة قليل من روح التضحية ، وقليل من الضمير المهني في حالات كثيرة ، وتلك مظاهر متعدّدة تشير الى وجود موقف عام مفرط الحلم متعلّق بالفردية — وهو موقف لطيف وانساني في حدّ ذاته — بالنسبة للمتطلبات الاجتماعية . ومن ثمّ ، سلّم الشيخ محمد عبده بأن الديموقراطية لا يمكن أن تقوم في مصر إلاّ بعد اجراء الاصلاحات الروحية والمدنية والتعليمية ... وأن ما تحتاج الدولة اليه هو « زعيم جدير بأن يفرض اراءه المُخلصة على مجتمع يجهل مصلحته ... يجب ان يكون زعيماً مستنيراً وعادلاً ونشيطاً » ويضيف الشيخ محمد عبده بأن مثل هذا النظام يمكن اقامته خلال فترة لا تتجاوز خمس عشر سنة ، فيقوم القائد باختيار معاونيه من بين الرجال الذين يمكنه أن يعتمد عليهم ، ثم يبدأ عمله بحل الآفات الاكثر خطورة ، وبعد ذلك يمكنه بطريقة تصاعدية أن يشجع المبادرات الشعبية ، ويمكنه مثلاً أن يبدأ بتشكيل مجالس محلية ، ثم مجالس اقليمية ثم بعد ذلك مجالس وطنية . وهكذا ظل الشيخ محمد عبده يتمنى لمصر ، من كل قلبه ، ظهور من أسماه بِـ « الزعيم العبقري المنبثق من الشعب والقادر على أن ينجز في خمس عشرة سنة ما لم تستطع الجماهير

أن تتجزه في خمسة عشر قرناً » ...

ما هو ذلك الهدف الذي يشير اليه الشيخ محمّد عبده عندما يقول « ما لم تستطع الجماهير أن تتجزه في خمسة عشر قرناً » ؟ ... ماذا حدث طوال الخمسة عشر قرناً الماضية ؟ حدث أن مصر كانت محتلة ... فإذن يبدو الهدف واضحاً : فالمقصود هو طرد الانجليز !

وقد أكّد الشيخ محمّد عبده هذا الرأي عندما قال :

« أيها المصريون ! ها هي أراضيكم وممتلكاتكم ودياركم ومعتقداتكم وتقاليدكم وقوانينكم وقد سقطت كلها في ايدي الغزاة الذين حرموكم حتّى من ممارسة حقكم الطبيعي في خدمة الوطن ... ولكن الغازي يخافكم مثلما يخاف الدول الكبرى التي تقف بالمرصاد ... فلا تتركوه يتسلل بكل أمن وطمأنينة ! »

إن انتفاض الشعور القومي أمام البدلة العسكرية البريطانية ، وأمام ترفع المحتل وتجاوزاته سيزداد التهاباً بما كتبه الزعيم الوطني المتحمّس مصطفى كامل الذي عاد من الجامعات الفرنسية ، وفارق الحياة مبكراً في الرابعة والثلاثين من عمره نتيجة إفنائه الذاتي باداائه لرسالته السياسية[1] .

وفي هذا المناخ المحموم ، بلغت المشاعر الوطنية درجة الانفجار ... وجاءت الشرارة التي ألهبتها من جانب بريطانيا التي انتهزت فرصة دخول تركيا الحرب الى جانب المانيا في أواخر عام ١٩١٤ ، فاعلنت وضع مصر تحت حمايتها ... وطوال فترة الحرب العالمية الاولى ، لم يكّف الوطنيون المصريون عن تحضير العمل الوطني للمستقبل .

---

(١) وسيقود حزبه ، « الحزب الوطني » محمد فريد ، وهو حزب « المتصلبين » الذين يعارضون مبدئياً كل مفاوضة مع بريطانيا ، ويدعون الى توحيد مصر ، ليس فقط مع السودان ، بل مع الحبشة وبلاد اخرى. وقد ظل هذا الحزب ضعيفاً عددياً .

٥ ـ القومية المصرية بعدحرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨

بعد توقيع الهدنة عام ١٩١٨، تكوّنت في مصر «لجنة وطنية» برئاسة سعد زغلول الذي كان يعدّ من أبرز خريجي الجامع الأزهر ومن أقرب الناس الى الشيخ محمد عبده ومن أشد انصاره. وكان لابدّ من وجود رجل من هذا الطراز لاقناع حزبه في عام ١٩٢٠ بقبول لجنة توجيهية اغلبية اعضائها من الاقباط... وكان هذا الاجراء يتسم بالحكمة، فإن الاقباط لم يكونوا يمثلون في ذلك الوقت سوى سدس أو خمس عدد السكان، ولكن تحفظ سعد زغلول اسفر عن إحبـاط المحاولات البريطانية الرامية الى القضاء على الوحدة الوطنية بواسطة بثّ الحقد الطائفي بين صفوف الجماهير الشعبية.

وأراد سعد زغلول أن يسافر الى باريس ليطالب الحلفاء بالاستقلال لوطنه... فاعتقله الانكليز ونفوه الى مالطه... وبشكل تلقائي، قامت المظاهرات الصاخبة وعمت البلاد... في المدن الكبرى وفي الاقاليم، وقف الشعب كله، مسلمين ومسيحيين، ليعبر عن سخطه وغضبه. وأمام ذلك الاجماع الرائع، اضطرّت بريطانيا إلى التراجع. وحينما وصل سعد زغلول الى باريس، على رأس «الوفد» المصري (ومنذ ذلك الحين اتخذ حزب سعد زغلول كلمة «الوفد» إسماً له) فوجىء بعدم السماح له بدخول المبنى الذي كان ينعقد فيه مؤتمر السلام... فعاد الى

مصر وأختار الأرض الوطنية ميداناً لمعركته ضد الانجليز ، فأنتقم منهم بإرغامهم على التنازل عن إمتيازاتهم ، الواحد بعد الآخر ، حتى اضطر الانكليز الى رفع الحماية عن مصر عام ١٩٢٢ .

وأصبح فؤاد ، حفيد الخديوي اسماعيل ، ملكاً لمصر والسودان ... وكانت هناك شروط تحدّ من « السيادة » المصرية ، اهمها :

١) أن بريطانيا تحتفظ لنفسها بحق الاشراف والرقابة المشددة على السودان .

٢) أن بريطانيا تكون مسؤولة بحماية مصر ضد أي اعتداء ، وكذلك بحماية قناة السويس .

٣) أن بريطانيا تحمي المصالح الاوروبية في مصر .

وفي الانتخابات التي نظمت بعد ذلك ، فاز حزب الوفد ... ولكن ، بدأت الخلافات مع الملك . ومات سعد زغلول عام ١٩٢٧ . وبعد قليل ، اصدر فؤاد مرسوماً ملكياً بوقف العمل بالدستور لمدة ثلاث سنوات . وبعد انقضاء هذه المدة ، وفي الانتخابات التي اجريت من جديد عام ١٩٣٠ ، فاز حزب الوفد باغلبية ساحقة . ولكن ، برغم هذه الأغلبية ، اضطر الوفد ان يفسح المجال أمام السياسي المستبّد اسماعيل صدقي الذي وضع دستوراً جديداً يكفل للملك سلطات أوسع ، مما ترتب عليه قيام المظاهرات ... وفي الاسكندرية ، واثناء المظاهرات التي قامت هناك في ذلك اليوم ، وقع غلام لا يتجاوز عمره الثانية عشرة ، تحت ضربات أحد رجال الشرطة ، فنهض من جديد وعاد الى منزله والدماء تسيل بكثرة من وجهه ... كان اسم الغلام جمال عبد الناصر .

ولا شكّ في أن عام ١٩٣٠ كان بالنسبة لتاريخ مصر ، عاماً فاصلاً بصرف النظر عن الحادث الثانوي (والذي يحمل في الوقت نفسه دلالته الكبيرة) لاصابة الغلام جمال عبد الناصر بضربات رجال الشرطة . ففي هذا العام ، صمم الملك فؤاد على أن يقاوم حزب الوفد مهما كان الثمن

وبرغم انتصاراته الانتخابية المتواصلة . وفي هذا العام ايضاً ، بدأ موقف حزب الوفد يتزعزع ويفقد من شعبيته بعد ظهور اول دلائل الفساد في صفوف سياسييه ، وعقب ظهور منظمة نضالية اخرى وهي منظمة الأخوان المسلمين . وأخيراً ، فإن عام ١٩٣٠ قد شهد ايضاً ظهور عنصر جديد وهام في الرأي العام الوطني ، وهو اتجاه بعض المفكرين المستنيرين الى الأخذ بمنطق عروبة مصر .

فحتّى عام ١٩٣٠ ، لم تكن القومية المصرية تسير على خط متلاقٍ مع القومية العربية . وحينما تقدم الامير فيصل ، عام ١٩١٩ ، يطالب الحلفاء باستقلال جميع البلدان المتكلمة بالعربية ، لم تُرد مصر ان تنضم الى هذا المسعى.... ففي نظر سعد زغلول ورفاقه ، الذين كانوا يمثلون مصر أمام الرأي العام العالمي ، كانت لمصر ملامحها الأصيلة المتميزة . وبكل تأكيد ، فان قلةً من العرب « العريقين » موجودة في مصر ، عشرة بالمئة على الأكثر ، اذا صدّقنا التقديرات التي ذكرها لويس ماسينيون في آخر « حولية للعالم الاسلامي » .

ولكن العروبة المعاصرة تتجاوز الفكرة المحدودة للجنس ؛ فان الانسان العربي هو الذي اندمج مع الحضارة العربية[1] التي اتاحت في الماضي حضارة اسلامية انتشرت من اندونيسيا الى اسبانيا ، مروراً بالهند والصين الغربية وافغانستان وايران ومنطقة الشرق الاوسط كلها ، واستطاعت أن تجتذب الغزاة المغول الذين جاءوا ليقضوا عليها ! وكما يقول ايلي فور « فبينما كان الضباب المظلم يتكاثف في الغرب ، كان الخلفاء يفتحون أبواب الجامعات ويحفرون القنوات ويقيمون الحدائق ويعيدون تشكيل اسس الهندسة والطب ويخترعون الجبر ويغمرون الأراضي المحتلة بقوافلهم المحملة بالعلم ، وبالجوامع والقصور ... وعلى الارضية الخلفية السوداء

---

(١) ينبغي الا ننسى أن من بين عناصر هذه الحضارة اللغة وبعض الوان الحياة المحددة .

لتلك المرحلة من التاريخ ، كان العمل الاسلامي يبدو وكأنه سحر باهر وقصة بطولية من قصص الف ليلة وليلة ! ... »

إن الحضارة العربية الاسلامية لم توجّه ايّ اعتراض او منع ضد المسيحيين أو اليهود ، ضد « أهل الكتاب »[1] وقد حدث بالفعل أن عدداً من الأساقفة الاسبان قاتلوا تحت لواء الاسلام ، كما حدث ايضاً أن عدداً كبيراً من الملوك المسلمين اختاروا وزراءهم من بين المسيحيين واليهود ، هذا بالاضافة الى أنه في بغداد ، تعاقب في الحكم عدد كبير من الوزراء كانوا ينتمون بأصلهم الى التيبت . وهذا يدل على ان الحضارة العربية الاسلامية حضارة منفتحة كل الانفتاح .

وعلى عكس ذلك كله ، فان القومية التي كان ينادي بها حزب الوفد ، قبل عام ١٩٣٠ ، لم تكن تستبعد نزعة « انغلاقية » بل كانت وطنية متطرفة تكاد تكون تعصباً وطنياً (Chauvinisme) من النوع الذي اعتنقه الامريكان أو الذي كان يسود اوروبا منذ فترة قصيرة من الزمن . ولكن بعد عام ١٩٣٠ ، بدأت فكرة العروبة تشق طريقها شيئاً فشيئاً وتلقح القومية المصرية بمنطقها وبعقيدتها « المفتوحة » . فبتطلّعها الكبير للاسلام ، كانت فكرة العروبة تقوم في الوقت نفسه على اساس الافكار والمشاعر القوية لكرم الضيافة وللاخوّة الانسانية وللمجهود الفردي وللتعاون السلمي بين الشعوب وبين الأفراد على السواء ، عن طريق التبادل الاقتصادي والثقافي والروحي ، وفي الاحترام للحق وللقيم الروحية .

لقد قلت وأريد أن اؤكد من جديد ان القومية المصرية لم تكن تسير

---

(١) « إنا اوحينا اليك كما اوحينا الى نوح والنبيين من بعده ، واوحينا الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهرون وسليمان وآتينا داود زبوراً . ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك .. » سورة النساء ، الآية ١٦٣ . « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ..» سورة آل عمران ، الآية ١٤٤ .

في خط متلاقٍ مع القومية العربية. غير أن النظريات القومية لم تكن تمس إلاّ اقلية ضئيلة من الشعب ، فبالنسبة للاغلبية الساحقة للجماهير الشعبية ، لم يكن تمجيد القيم الاسلامية والعربية قد توقف قط في مصر ، بفضل العمل الشاق المتواصل للاساتذة والوعّاظ والمعلمين في المدارس الدينية ، في الوقت الذي وصفه بعض المستشرقين الاوروبيين بـ « ليل الاسلام » ! وبفضل القضاة وعلماء الشرع والجمعيات الدينية ، حتّى ولو انحرفت بعض الانحراف ـ بفضل ذلك كله ظل مئات الملايين من المسلمين محافظين في حياتهم اليومية على القيم التقليدية صيانة العلاقات للعائلية السليمة القوية ، والعلاقات الصحيحة بين الآباء والابناء .

ليس من أصول اللياقة أو الرزانة أن نطلق عبارات المدح على بعض هؤلاء الاساتذة والوعّاظ دون غيرهم ، من الذين استطاعوا بجملة أو بكلمة أو بمجرّد حركة صامتة أن يثيروا حماس تلاميذهم أو أن يتركوا في نفوسهم فكرة لا يمكن أن تمحي أبداً . ولكن السيد فوشيه ذكر احد هؤلاء الاساتذة ، وسنذكره نحن ايضاً في محاولة لتصوير مدى اهمية الدور الذي لعبه هؤلاء في احياء التراث العربي في مصر . هذا الاستاذ هو محمد احمد القوراني ، الذي كان استاذ جمال عبد الناصر في اللغة العربية لمدة عام . وبعد أن تولى جمال الرئاسة ، تذكر استاذه ، فأرسل اليه خطاباً يشكره فيه « لدروسه في القومية » ... ومما لا شكّ فيه أن تلك الدروس في القومية لم تقتصر على القومية المصرية بل شملت بالتأكيد القومية العربية .

والحقيقة أن القومية العربية ، بالنسبة لمصر الديناميكية المعاصرة ، ما هي إلاّ عودة الى المنابع ورجعة منعشة للاتصال بالاصول الاسلامية الكلية والموفقة ، وهي بمثابة ضمان ضد خطر انحراف القوميات المتفاقمة ، على مختلف أشكاله ، وضد الكبرياء والعجب بالنفس التي تصيب الكثير من القوميات .

وهذا التطلع الى الوحدة العربية ، لم يكن من إختراع جمال عبد الناصر ... ولكنه كان منادياً به وشاهداً له أمام العالم اجمع . ولاشك في ان الوحدة العربية في سبيلها الى التحقق، وسوف تحقق حتماً في المستقبل القريب ، وربما في شكل مبتكر برغم كل ما يقوله البعض من الذين تحجب حساسيتهم للمتناقضات الظاهرية للبلدان العربية ، كل الاعتبارات الواقعية التي تحتم تحقيق الوحدة العربية . فقبل تحقيق الوحدة الايطالية أو الوحدة الالمانية بعشر سنوات أو عشرين ، كان الناس يضحكون من تورينو الى نابو لي ومن برلين الى ميونيخ ، وهم يفكرون بالحالمين الذين كانوا يتنبأون بالذوبان في مملكة واحدة تضم البيمونت وتوسكانيا وصقلية وبالذوبان في رايخ واحد يضم مناطق هانوفر وبروسيا وبافاريا ... وكما يقول ارنولد تويني (وهو بالتأكيد أحد ثلاثة او أربعة من اكبر المؤرخين في القرن العشرين) ، فان هناك ثلاثة عوامل اساسية تيسر تحقيق الوحدة العربية ، وهي عوامل اللغة والثقافة والتاريخ ، من غير ان نضيف عامل البترول ...

٦ ـ شباب جمال عبد الناصر :

التلميذ الوطني

تركنا الغلام جمال عبدالناصر في الاسكندرية حيث تصدّى لضربات شرطة في خدمة المحتلّ . وهنا ، يقوم سؤال يفرض نفسه : ماذا يفعل هذا الغلام الصعيدي في الاسكندرية ، على بعد ١٠٠٠ كيلومتر من قريته ؟

أن هذا الغلام يتسم بالحيوية وبحرارة الدم المميزة لأهل الصعيد ، بالاضافة الى الشهامة التي تميز الانسان العربي ... كما يتميز ايضاً (وهذه صفة ليست متوفرة لدى العرب البدو في السعودية أو في المناطق الاخرى) بالصمود والتصميم والصبر ... في الانتصارات وفيما بعد التكسات . إنه ابن لأسرة من قرية بني مرّ ، بالقرب من اسيوط ، ويبدو من اسم القرية أن العرب قد عاشوا في المنطقة مثات السنين . إن أجداده كانوا من الفلاحين وكانوا يمتلكون بعض الافدنة من الارض . اما والده ، فبعد أن تلقى تعليمه في المدرسة القرآنية الخاصة بالقرية ـ والتي بنيت هناك بفضل مساهمة الفلاحين أنفسهم ـ فقد إستطاع أن يحقق امنية عامة في الريف وهي أن يصبح موظفاً بالحكومة . ثم نقل الى الاسكندرية حيث تزوج من ابنة أحد التجار في عام ١٩١٧ ... وفي حديقة دارهم الصغيرة بالاسكندرية ، تعلم الطفل جمال المشي على الأقدام ، وكان قد ولد في ١٥ يناير عام ١٩١٨ ... وفي عام ١٩٢١ ، نقل والده الى اسيوط حيث

مكث مدة سنتين ، ثم نقل بعد ذلك الى عدة مدن صغيرة منها الخطاطبة ، شمال غرب القاهرة ، حيث ظلّ يعمل لمـــدة ثماني سنوات على حافة الصحراء الغربية ... ثم سلم الطفل جمال الى عمّه خليل حسين الذي كان يقطن في القاهرة ، فبدأ يتبادل مع والدته مراسلة طويلة مليئة بمشاعر الحب .. ولكنها فارقت الحياة عام ١٩٢٦ ، وعرف جمال لأول مرّة في حياته معنى الصدمة . وفي خلال السنة الدراسية ١٩٢٩ ــ ١٩٣٠ ، عاد جمال الى الاسكندرية حيث لحق به والده الذي نقل الى هناك مرّة اخرى ... وعاد جمال الى المنزل العائلي الأول ، ذي الحديقة الصغيرة ، ووجد هناك زوجة أبيه الجديدة التي انجبت بعد ذلك ثمانية اولاد . وتلك كانت الفترة التي اشترك فيها جمال في المظاهرات الصاخبة التي سارت في شوارع الاسكندرية ، وتعرّض لضربات رجال الشرطة ... ولم تحدث بعد ذلك مظاهرات لمدة ثلاثة أعوام ، أي خلال الفترة التي ظلّ فيها اسماعيل صدقي على رأس الوزارة ، وكان قد اتخذ اجراءات احتياطية مشدّدة لمنع وقوعها من جديد . وفي السنة نفسها التي سقطت فيها وزارة اسماعيل صدقي ، انتقلت اسرة جمال عبد الناصر الى القاهرة وعاشت في حيّ شعبي مزدحم[1] . حيث كان الحاج حسين عبد الناصر يدير مكتباً للبريد . وفي هذا المنزل ، كان جمال يطالع في غرفته الصغيرة جميع أنواع الكتب ، الأمر الذي لم يمنعه من الاشتراك ، بكل حماس ، في المظاهرات الطلابية التي بدأت تنظم من جديد .. ويشهد على ذلك ، هذا الجزء الاخير من خطاب كان قد أرسله الى أحد زملائه ، فبعد أن ذكر تلك الآية القرآنية التي تدعو

---

(١) وهو « حي اليهود » من طائفة « قرائيط » ، الذين يتكلمون العربيـــة ويعيشون في انسجام تام مع جميع سكان القاهرة . وليست هناك اتجاهات مناهضة للسامية في مصر (بالمعنى الاوروبي) ، إستثناء موقف بعض المسيحيين المتعصبين الذين ما زالوا يعتبرون اليهود مسئولين عن صلب المسيح . والمعروف ان المسيح ، بالنسبة للاسلام ، لم يصلب بل انه « شبه لهم » .

الانسان ألاّ يخوض اي معركة والاّ يبذل اي جهود جدّية مالم يكن أولاً قد استعدّ وعبأ كل طاقاته من أجل ذلك ، كتب جمال يقول :

«أين هم اولئك الذين وهبوا حياتهم من أجل تحرير البلاد ؟ أين الكرامة ؟ اين الشباب المحتدم ؟ إن الأمة قد اصابتها غفلة شديدة كغفلة أهل الكهف[1] ... من يستطيع أن ينهض هؤلاء المساكين الذين استغرقوا في النوم وفقدوا وعيهم ؟ إن المصريين في اشد الحاجة الى زعيم ...

«ولقد قال مصطفى كامل : فليغيّر قلبي مكانه ، وأنت أيتها الإهرامات ، انتقلي من مكانك ، وأنت يا نهر النيل إعكس مجراك ... أمّا أنا ، فلن أتنازل عن مبادئي ! سوف نوقظ الامة ونبتعث الطاقات المخبأة في قلوب الناس ... يا اخي ، سانتظرك في منزلي يوم ٤ سبتمبر ١٩٣٥ في الساعة الرابعة ، وسوف نستأنف هذا الحديث ... »

وقد استؤنف الحديث بالفعل ولكن على النطاق الوطني . ففي شهر نوفمبر ، صدر تصريح لأحد الوزراء البريطانيين ، بأن دستور عام ١٩٢٣ ـ الذي كان يطالب الرأي العام المصري بتطبيقه ـ لم يكن « صالحاً للتطبيق » ... واثار هذا التدخل الذي لم يكن في موضعه ، غضب الجماهير.. وبصفته رئيساً للجنة الطلابية الثانوية ، نظّم جمال بالتعاون مع طلاب الجامعة مظاهرة كبرى ... وبعد أن حاول رجال الشرطة أن يتصدّوا للمظاهرة أطلقوا سبيلها ... وفي اليوم التالي ، يوم ١٣ نوفمبر ١٩٣٥ ، قامت المظاهرات من جديد ، ولكن في هذه المرّة لم يحدث تآخ مع رجال الشرطة ، وعلى عكس ذلك ، فتحت الشرطة نيران بنادقها على الجموع ... وسقط الكثير من الجرحى كما اعتقل الكثير من الطلبة ... وفي اثناء الموقعة بين المتظاهرين

---

(١) تلميح لسورة الكهف .

وقوات الشرطة ، أخرج ضابط انكليزي مسدّسه ووجهه بهدوء الى شاب كان يبدو أنه يقود الطلبة ، واطلق الرصاص عليه ... وخرج جمال عبد الناصر بعد أن لمسه الرصاص في رأسه ، الاّ أنه نجا من الموت بأعجوبة !

ولم تكفّ الاضطرابات ، فاضطرّت الحكومة الى أن تغلق جميع المدارس ، كما احتجبت جميع الصحف عن الصدور ... وأخذ الانكليز يفكرون : كانت هناك قوّات ايطالية ترابط في ليبيا المجاورة ، وفي اثيوبيا على الحدود الجنوبية من السودان ... وفي اوروبا ، كان هتلر يواصل ارتقاءه لسلالم المجد ... ورأى الانكليز أنّ من مصلحتهم ، في هذا الظرف الحرج الخطير ، أن يكسبوا صداقة مصر ، إذ لم يَفُتْهم أن الذي يعاني من الاضطهاد لا يهمّه لون حليفه . ومن ناحية اخرى ، فإن النزاع بين الفاشستيين الاوروبيين والديموقراطية البرلمانية كانت تبدو في القاهرة كمجرد صراع بين الاستعمار الجائع والاستعمار المتخم . ذلك ان فرنسا وانكلترا لم تكونا تعانيان من ازمة في السكان ، بينما كانتا تتمتعان بثروات طائلة بفضل مستعمراتهما . أما المانيا واليابان وايطاليا ، فقد كانت تعاني من ازمة مجال حيوي بينما كانت مواردها محدودة . ففي هذه الظروف ، وبعد تحليل دقيق للاوضاع الدولية في ذلك الوقت ، قرّر الانكليز الموافقة على اعادة دستور عام ١٩٢٣ .

وعلى الفور ، ارتفع صوت حزب الوفد عالياً ليعلن النصر ! وفي الوقت نفسه ارتفع صوت حفنة من الطلاب ، ومن بينهم جمال عبد الناصر ، ليعلنوا « أن الوقت قد حان لمطالبة الانكليز بالمزيد من التنازلات ... » وقامت معارك في الجامعات ، وابتسم الانكليز لأن سياستهم قد اتت ثمارها !.. وقد وصف جمال عبد الناصر مشاعره الحزينة في تلك الأيام في خطاب قصير كتبه لأحد أصدقائه ، وقال فيه بتواضعه الطبيعي :

« كنت على رأس المتظاهرين التابعين لكليتنا ، وكنّا نصرخ بكل

قوّتنا : ليعش الاستقلال الكامل !.. ولكن ضاعت صيحاتنا الحادّة في الفتور واللامبالاة العامة ... »

كانت الامتحانات على الأبواب ، وكان لا بدّ لجمال من أن يقضي هذه الفترة في المذاكرة حتى ينجح ويتخرج ... ثم ماذا؟ ما هو مجال التخصّص الذي سيختاره لنفسه؟ ودون تردد ، اختار الكلية العسكرية. أتراه كان يميل فعلاً للمهنة العسكرية بالمعنى المفهوم لدى الفرنسيين؟ إنه كان على يقين من أن تحرير الوطن يمكنه أن يتم بواسطة الجيش لكونه مؤسسة ذات قاعدة شعبية واسعة. وكان لا بدّ ، في نظره ، أن يكون لهذا الجيش من الفلاحين الفقراء ، ضباط وطنيون. ولكنّ هناك عقبتين تعترضان طريقه ، فهو اولاً من أصل متواضع ، وكان الذين يُقبلون هم خصوصاً ذوو الأسر الغنية ، وثانياً كان ماضيه السياسي كـ« مهيّج » للجماهير ؛ فلم يكن وارداً ، والحالة هذه، استثناء الشرط الاول... وعليه ، رفض طلبه ، ولما كان عليه ان يلتحق بأي جهة ، فقد اتجه الى كلية الحقوق ، حيث قضى بضعة أشهر مزعجة ، بعد أن رُفض في الكلية العسكرية !

الفصل الثاني

التمهيد للثورة

١ ـ المرحلة الأولى : حتى حرب فلسطين

في شهر مارس عام ١٩٣٧ ، جاء النبأ السعيد بأن عملية اعادة بناء القوات المسلحة المصرية ، على اثر توقيع المعاهدة المصرية البريطانية ونتيجة لها ، تتطلب المزيد من الضباط ... فقُبِلَ جمال عبد الناصر في الكلية العسكرية في وقت واحد مع بعض الشبّان الآخرين ذوي الأصل المتواضع . وقد تفوّق جمال عبد الناصر على جميع زملائه من دفعته، وبعد أن تخرّج في شهر يوليو عام ١٩٣٨ ، نقل الى اسيوط ومنها ، بعد مضيّ تسعة اشهر ، الى السودان حيث مكث مدة سنتين . وقد اتيح لجمال أن يتعرّف عن قرب الى كل معاني العظمة والعبودية التي تحملها المهنة العسكرية ... فقد اوثق جمال عرى الصداقة الوطيدة مع عدد من الضباط ما زال الكثير منهم اليوم اعضاء في الحكومة ، ولكنه اكتشف في الوقت نفسه خفايا الحياة اليومية في الجيش، مع كل ما تحتمله من انحطاط وتفاهة وانتهازية .

وبعد عودته من السودان ، نُقل جمال عبد الناصر الى احدى الثكنات العسكرية في الاقاليم ، وهناك عرف انباء الحركة البريطانية الوقحة التي قامت ضد الملك في ٤ فبراير عام ١٩٤٢ . ولأول مرّة ، شاركه جميع المصريين غضبه الشديد اذ أن التدخل السافر للجيش البريطاني في شؤون

الدولة الداخلية قد اثار سخط جميع أفراد الشعب ، بلا استثناء ، من ضباط وجنود وحتى من المدنيين المسالمين الذين لا يهتمون عادة الا بمشاكلهم الفردية الخاصة . كانت موجة عارمة من الغضب الشديد التي اجتاحت البلاد عن آخرها ، وكان الحادث في حد ذاته جديراً بشن رد فعل من هذا القبيل ، فإن الانكليز كانوا قد تعدوا حدودهم ... كانت دباباتهم ومصفحاتهم قد حاصرت القصر الملكي واقتحمت سوره الحديدي ، بينما دخل السفير البريطاني ، والمسدس في قبضته ، على غرار افلام الغانغستر ، يصاحبه أحد الجنرالات ليبلغ الملك فاروق انذاراً من حكومته : « انتم تريدون تكليف علي ماهر بمهمة تشكيل الوزارة ؟ إن بريطانيا لا توافق ، وعليكم أن تعينوا النحاس باشا ... والا ... »

واضطر فاروق ، ذلك الملك الضعيف الذي ترك حادث ٤ فبراير آثاره العميقة في نفسه لمدى الحياة ، اضطر لأن يستسلم للانكليز ... واضطر علي ماهر ، السياسي المستقيم المنصف ، أن ينسحب من الحياة السياسية وأن يظل في منزله حيث حددت اقامته بناء على أوامر الانكليز ، لمدة ثلاث سنوات وفي ظروف شاقة .

كانت بريطانيا قلقة أمام الانتصارات التي كان يحققها رومل في زحفه المتواصل في الصحراء الغربية . وكان الانكليز قد وضعوا خطة شيطانية لمواجهة الموقف في حالة حدوث غزو الماني لمصر ؛ وكانت الخطة تهدف الى إغراق الوجه البحري كله ، بسكانه ودياره وثروته الحيوانية والزراعية ، بواسطة طوفان من صنع الانكليز الذين لم يفكروا قط في العواقب الخطيرة لمثل هذا العمل الذي كان من شأنه تبوير التربة الى الأبد بتعرضها لتأثير الماء المالح ... وكان بين المصريين كثيرون يأملون دخول القوات الالمانية الى بلادهم . ولم يكن ذلك الشعور يقوم على اساس من العطف على النازية ، ولكنه كان تعبيراً عن إرادة الشعب المصري التخلص من ستين عاماً من الوقاحة الانكليزية ... وكان الانكليز يفهمون ذلك جيداً . فمن غير

الانكليز الجلادين وضحاياهم المصريين ، يستطيع أن يعرف مدى الاستبداد والاستغلال الذي تعرّض له الشعب المصري ؟ بالنسبة لمصر ، كان الحلّ الاسلم والافضل هو أن تبحث قوّات المحور وقوات الحلفاء عن ميدان آخر تخوض فيه معاركها ... وعلى كلّ حال ، فلئن خرج الشعب المصري في ٣ فبراير ، ينادي في الشوارع بسقوط الانكليز ويردّد شعار « الى الامام يا روميل » ، فإن التاريخ قد أثبت أن تلك المظاهرات كانت قد نظمت من قبل الاستخبارات البريطانية بهدف التمهيد لحركة ٤ فبراير التي وقعت بعد المظاهرات بـ ٢٤ ساعة !

وكان هناك بعض الضباط من اصدقاء جمال عبد الناصر يؤيدون فكرة القيام بعمل ما ازاء الانجليز . الاّ أن الحكمة والفطنة تغلبتا على هذه الفكرة ؛ فان الانكليز الذين تهددهم الهزيمة ، قد ينتقمون اشدّ الانتقام . لذلك ، فإن الضباط قد اختاروا ضبط النفس والصبر اسلوباً ... وكان لابدّ من انتهاز الفرصة لتجنيد المزيد من الاحرار في التنظيم السري الذي وضع قواعده جمال عبد الناصر قبل ٤ فبراير والذي اصبح فيما بعد قوة حاسمة وتهديداً له وزنه في الخفاء . ومن وراء اللجان الخمس لتنظيم الضباط الاحرار (وهي اللجنة المالية والفرق المقاتلة ولجنة الامن ولجنة الدعاية ولجنة التسلّح) كان جمال عبد الناصر يعمل في سرية تامة وفطنة شديدة . وبعد مناقشات طويلة وحادّة مع سائر اعضاء المنظمة ، استطاع جمال أن يحقق الاجماع بالنسبة للهدف الاساسي للتنظيم وهو « الاستقلال في الكرامة » . وكان لهذا الهدف جوانب عملية ثلاثة وهي :

١) طرد الانكليز .

٢) تطهير القوّات المسلّحة .

٣) تشكيل حكومة شريفة مكوّنة من الاكفاء .

وكان من رأي جمال أنه من غير المفيد أن يقوم التنظيم بوضع الاساليب الفلسفية أو باقامة العقائد الايديولوجية ، وذلك تطبيقاً للمنطق الذي يقول

أن من يفرط في الكلام يسيء في العمل .

بدأت الخلايا تشكّل في الاوساط الشعبية وحتى في صفوف الاخوان المسلمين (وكان هذا قلة تبصُّر !) بالاضافة الى صفوف الجيش . وبعد مضي سنة على حركة ٤ فبراير ، عُيّن جمال عبد الناصر استاذاً في الكلية العسكرية التي كان قد تخرّج منها منذ سنوات قليلة . وقد ساعده هذا المنصب على دفع عجلة التجنيد لصالح تنظيمه السري ... وكان جمال عبد الناصر يبدو ، من خلال الظواهر ، كرجل لا يهتم بشيء سوى عمله كاستاذ في الكلية العسكرية ، ذلك العمل الذي نال به تقدير جميع طلبة الكلية واحترامهم . وكان ذلك التقدير ربمّا يُعزى الى الاشتراك في مسابقة كلية اركان الحرب ، وهي مسابقة تتطلّب سنوات طويلة من الدراسة ... كذلك ، فإنه قد تزوّج في عام ١٩٤٤ بفتاة ايرانية الأصل وأصبح أباً لطفلتين . فاذا ما خطر للبوليس السياسي أن يطلع على ملفّه ، ألم يكن هذا الملف انعكاساً طبيعياً لحالة تقليدية لطالب مزعج اكتسب التعقّل بفضل الحياة العسكرية وبفضل ممارسته للحياة العائلية العادية ؟ الم يكن ملفّ جمال عبد الناصر مرآة تعكس صورة رجل اقتنع وآمن بالنصائح التقليدية من نوع : « صديقي جمال ... يجب أن تعمل على فتح بيتك ثم على شراء فيلا تطلّ على البحر ... يجب أن تملك سيارتك الخاصة وثلاجتك الكهربائية ، ثم ... من يدري ؟ » ...

والحقيقة أن جمال لم يكن يفكّر في مثل هذه الأمور ، بل كان يستغلّ وقته في الدراسة ... وفي تحليل كل طالب من طلبة الكلية بالتعرّف الى مزاجه ، ومشاعره ، وكفاءاته . وكان ذلك أمراً شاقاً ، اذ ان ما قاله جيرار دو نيرفال منذ اكثر من قرن عندما أكّد أن سكّان القاهرة هم « مارسيليّو الشرق » (وأهل مدينة مارسيليا معروفون ومشهورون في فرنسا بل في اوروبا كلها بأنهم اناس يسخرون من كل شيء) ظلّ يحتفظ بمعناه . إن سلوك المصري ، وبالاخص المصري المقيم في القاهرة ، سلوك

يقوم على السخرية والمبالغة بهدف السخرية وطيبة قلب كبيرة ممّا يكوّن نوعاً من القشرة السميكة لابدّ من كسرها لكشف شخصيته الحقيقية ... كان جمال يراهم اثناء العمل ، واثناء الحديث ، كان يراهم يتشاجرون ويتنازعون ثم يتصالحون ... وكان من خلال هذه المراقبة يحاول أن يكشف الاشرار منهم والصالحين ، الغشاشين والأنقياء ؛ وهؤلاء الأخيرون التقوا ، اتفاقاً ، في منازل اصدقاء لهم ، او في مقهى او في شارع ، عناصر أمينةً ، فكانوا يختبرونهم قبل ضمّهم الى المنظمة ...

وفي الوقت الذي واصل فيه جمال عبد الناصر عمله السرّي تمهيداً للثورة ، كانت الأحداث تتطوّر بسرعة منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية . وبرغم نصائح بريطانيا ، اخذ ترومان الذي ألقى القنبلة الذرية الاولى ، والثانية كذلك ، يؤيد بكل شدّة وحماس الصهاينة المتطرّفين الذين كانوا يطالبون برفع القيود عن هجرة اليهود الى فلسطين . وكان السبب في ذلك هو أن ترومان ، الذي شغل منصب الرئاسة بصفته نائباً للرئيس الراحل روزفلت ، كان يأمل أن يفوز في انتخابات الرئاسة ، فأعلن مساندة الولايات المتحدة لمطالب الصهيونية مقابل مساندة اليهود له في الانتخابات ...

وفي ١٢ مايو عام ١٩٤٨ ، نجح جمال عبد الناصر في مسابقة هيئة اركان حرب الجيش ... وكان ذلك قبل حرب فلسطين بـ ٤٨ ساعة ... وقبل أن ندخل في تفاصيل هذه المرحلة ، يمكننا أن نؤكد هنا بأنه خلال السنة السابقة ، وفي الميدان السري الخفي الذي يعمل فيه كل من يستكشف النفوس والقلوب ، تعرّض جمال عبد الناصر لتجربة داخلية اسفر عنها يقين دينيّ لا يتزعزع ؛ إنه « يعرف » ؛ ولقد سقط الشكّ والإنكار . إنه يعرف ، ويعرف بهذه السعة في النظرة التي يشجعها الاسلام : ولم يكن الأمر أمر ايمان « مغلق » ، بل ايمان منفتح على جميع الاديان السماوية .

٢ ـ المرحلة الثانية : حرب فلسطين

منذ حوالي سنة ، كان الرأي العام المصري يبدي اهتماماً متزايداً بالمشكلة الفلسطينية ؛ وفي ذلك الوقت اخذت القومية العربية تنمو في مصر ، لتصبح في ما بعد عنصراً حاسماً من عناصر المستقبل. وكانت لجنة الامم المتحدة ، عام ١٩٤٧ ، قد أشارت الى ان فلسطين الصغيرة لن تستطيع ابداً ان تستوعب الصهيونيين الذين يعيشون في البلاد الاخرى. وبعد مناقشات حائرة ومترددة وطويلة ، وعلى أثر ضغوط لا تُصدّق مارسها الانغلوساكسون ، تبنّت اللجنة ، باغلبية ضئيلة ، قراراً بتقسيم فلسطين الى دولتين احداهما صهيونية والثانية عربية ، تربط فيما بينهما وحدة اقتصادية . وبعد التصويت ، أكدّ الكثير من الدول التي كانت قد صوّتت فعلاً في صالح مشروع التقسيم ، اكدّت رسمياً وعلناً أنها قد صوّتت على مضض، وأنها تعلم مدى خطورة هذا القرار ومدى خطورة عواقبه. ومن ناحية اخرى ، هاجم القرار عدد كبير من المراقبين الدبلوماسيين الذين وصفوه بأنه قرار احمق ولامعقول ومستفزّ... ومنذ عام ١٩٤٦ ، كان البروفسور لويس ماسينيون قد انذر العالم من خطر قيام دولة صهيونية ، وسيتخذ هذا الموقف فيما بعد المؤرخ البريطاني ارنولد توينبي [١] .

ومن ناحية اخرى ، كان الانتداب البريطاني لفلسطين ينتهي في ١٥ مايو ١٩٤٨ . وفي ذلك الوقت ، كان الصهاينة يمتلكون الكثير من الاسلحة ، كما انهم كانوا قد درّبوا تدريباً جيداً على استعمالها . وكانوا يشجعون كل عملية ارهابية يقوم بها اليهود في فلسطين ؛ وفي فجر يوم ٨ ابريل ،

(١) راجع ملاحق هذا الكتاب .

وبينما كان السكان العرب في قرية دير ياسين القريبة من القدس ما يزالون يغطّون في نومهم ، دخلت العصابات الارهابية الصهيونية واصدرت الأوامر بمكبرات الصوت لجميع سكان القرية بمغادرتها على الفور وفي مهلة لا تتجاوز خمس عشرة دقيقة ... وكان الذين اطاعوا قلّة ؛ أما الباقون ، فقد انهال عليهم المعتدون بمدافعهم الرشاشة وقتلوهم جميعاً ، بما في ذلك الاطفال والنساء والشيوخ ... لقد كانت مجزرة لا مثيل لها في التاريخ ، فقد تعدّت الوحشية الصهيونية في قرية دير ياسين درجة الشناعة التي بلغتها مذبحة قرية اورادور في النمسا في أواخر الحرب العالمية الثانية . ولقـــد بُقرت بطون النساء ، وقُتـــل الأطفال ، وقطعت الجثث. وعندما توجه المندوب السويسري للجنة الدولية للصليب الاحمر ، في اليوم التالي للمذبحة، الى قرية دير ياسين، لم يجد هناك من الأحياء سوى ثلاث نساء مذهولات ، بينهن فتاة صغيرة ، نجون باعجوبة من المدافع الرشاشة والسكاكين التابعة لمنظمة ارغون الارهابية ... وقد كتب المندوب في تقريره :

« كان لمذبحة دير ياسين اصداء بعيدة المدى ... ففي الجانب العربي ، نشأ مناخ من الرعب والجزع العام ، تدبّر اليهود امرهم دائماً في إذكائه وإلهابه . ولقد غادر العرب بيوتهم ، مدفوعين بالذعر . وبذلك ، تم اجلاء المزارع المنعزلة ثم القرى فالمدن الكبرى ، وكانت الهجرة الجماعية تبدأ حتى بمجرّد تهديد بالهجوم من جانب اليهود . وفي نهاية الأمر ، تحوّل اكثر من ٧٠٠,٠٠٠ عربي الى لاجئين بعد أن تركوا وراءهم جميع ممتلكاتهم ، خوفاً من ان يصيبهم ما أصاب سكان دير ياسين ... والآثار التي تركتها هذه المجزرة بعيدة عن ان تمحى ، إذ أن الالوف المؤلفة من اللاجئين العرب ما زالوا يعيشون اليوم في مخيمات بدائية ، دون عمل ودون أمل ، بينما الصليب الاحمر يوزع عليهم مساعدات الامم المتحدة » .

وبعد مضي خمسة عشر يوماً على مجزرة دير ياسين ، استؤنفت المذابح من جديد يصاحبها نسف المنازل في ميناء مدينة حيفا التي كانت الامم المتحدة تريد تدويلها . ومن جديد ، لاذ العرب بالفرار ... صحيح ان كبار القادة الصهيونيين قد انتقدوا أعمال الإرهاب هذه ... ولكنهم مع ذلك نسفوا جميع الأحياء العربية ، حائلين دون عودة ممكنة لأصحابها العرب اليها . وبعد ذلك باسبوع ، اكتفت دورية يهودية بالاقتراب من يافا لتسبِّب ، في الحال ، هجرة ٣٠,٠٠٠ من سكانها العرب . ولنستمع مرّة اخرى الى تقرير مندوب هيئة الصليب الاحمر ، المسيو جاك دي رينيه :

« لقد التقينا في طريقنا الى يافا ، بحشد كبير من العرب من مختلف الطبقات الاجتماعية ، يسوقون حميرهم ويحملون على رؤوسهم خليطاً من أدواتهم الشخصية ... لقد هاجروا من مدينة يافا ... ومناظر الهجرة هذه ، التي تكاثرت تحت ضغط الارهاب اليهودي ، تحمل جميعها الطابع الأليم اليائس الذي يميز قطيعاً من الماشية يساق الى المسلخ . وكانت القوّات اليهودية التي ترابط على جانبي الطريق ، تكتفي بأن « تقنّي » هذه الأمواج ، مستوليةً على ما يكون هؤلاء المساكين قد اضطروا الى تركه في الطريق من جرّاء التعب والإرهاق. ياله من منظر مروّع في وسط مزارع البرتقال الشاسعة التي تعطر الجو وتحت شمس الربيع الساطعة ! إن الطبيعة نفسها تبدو وكأنها ، هي الاخرى ، كفّت عن الاهتمام بمصير هؤلاء البشر الذين يرفضون هيبّاتها الملكية ليستسلموا لهموم الحرب والاحقاد[1] .

وفي القدس ، تجنباً للقتال في الاماكن المقدّسة ، تعاون كل من الجيش الاردني والجيش اليهودي مع هيئة الصليب الاحمر . ولكن ، بمجرّد جلاء القوّات البريطانية ، بادرت القوّات اليهودية (عصابتا ستّرن وايرغون)

---

(١) جاك دو رينيه : « علم في القدس » . واكثر ما يستلفت الانتباه في هذه القصة كلها ، هو التساهل الذي كان يبديه الصهيونيون « المعتدلون » تجاه أعمال الصهيونيين « المتطرفين » !

الى بدء العمليات الحربية ، الأمر الذي كان يحتم التدخل العربي في الحال ، وذلك لأسعاف المسيحيين والمسلمين المهددين بالابادة ... انها الحرب ، وقد استلزم الأمر ستة أيام من المناقشات في الامم المتحدة للوصول الى قرار بتعيين الكونت فولك برنادوت وسيطاً دولياً في فلسطين . وفي الوقت نفسه ، اعلن الرئيس الامريكي ترومان اعتراف الولايات المتحدة بدولة اسرائيل التي كان قد اعلن قيامها القادة الصهاينة. ودخلت مصر الحرب ، ولكن الملك فاروق لم يرسل الى فلسطين اكثر من اربع فرق، أي حوالي ٣٠٠٠ جندي ، وعلى رأسهم جميع الضباط الذين لم يكونوا موضع ثقة البوليس السياسي . هل كان فاروق على علم بتقصير وعجز قيادته العليا ؟ كل ما نعرفه هو أن الملك لم يكن يهتم الا بمصلحته الشخصية ، فقد انتهز فرصة حرب فلسطين ليستفيد من صفقات الاسلحة التي مكنته من جمع ثروة هائلة .

وفي ١٦ مايو ، انتقل جمال عبدالناصر الى الجبهة حيث شاهد بعينيه ولمس عن قرب مدى تهاون القادة المصريين ولامبالاتهم ... فقد كانوا يرسلون الجنود الى « المسلخ » على حد تعبيره ، دون أن تساندهم دبابات أو مصفحات في هجوم مباشر على مراكز العدو المحصنة . وفي أوائل شهر يونيو ، جاءت الهدنة التي طالبت بها الامم المتحدة فأنقذت حياة اكثر من مائة الف صهيوني كانوا محاصرين في القدس وكانوا لا يستطيعون الصمود اكثر من بضعة ايام .. وحاولت الدول العربية السبع المشتركة في حرب فلسطين ، حاولت عبثاً أن تستغل فرصة الهدنة لتنسيق العمل العسكري. والواقع ان الهدنات تتابعت ، ولم يفد منها سوى اليهود .

واثناء هذه الفترات التي كان يتخللها وقف اطلاق النار ، كان الضباط المصريون يستسلمون لسجيتهم وينقادون لطبيعتهم ... فكانوا يتحدثون ويتناقشون ويهزلون في الامور ويؤلفون الحكايات المضحكة ... وكان جمال ينتهز الفرصة ليجند المزيد من الاعضاء في تنظيمه السري ، معتمداً

على الاستياء الذي اثاره في النفوس تهاون القيادة العليا . ومن امثلة الفوضى التي سادت في تلك الايام ، ذلك الجندي الذي قابله جمال ، والذي لم يكن يعرف أن الوطن في حالة حرب ! فكان تفسيره للتحركات العسكرية ولما يتبع ذلك من عمليات مختلفة « أن هناك مناورات عسكرية ، يا حضرة الضابط ، بين القاهرة والسويس ، مثلما يحدث كل عام ... »

وفي مستهل شهر يوليو ، وبعد أن جاءت ترقيته الى منصب نائب لقائد احدى الفرق ، استطاع جمال عبد الناصر أن يلمس بطريقة اوضح الاستهتار وفقدان الضمير اللذين كانا قد اصابا بعض كبار الضباط الذين كانوا يتصرفون وكأنهم يغفلون ابسط قواعد الفنون العسكرية ... ثم اصيب جمال برصاصة في صدره ، مما اتاح له ايضاً أن يلمس درجة التهاون التي بلغتها الخدمة في المستشفيات العسكرية ... وامام الجرحى — وكان من بينهم العديد من تلاميذه — الذين كانوا يئنون او يهذون من فرط الألم ، اقسم جمال أنه ، اذا كتب له ان يشغل منصباً مسؤولاً ، فلن يبعث بأي جندي الى ساحة القتال ما لم يكن أولاً قد استنفد جميع احتمالات التسوية السلمية .

وفي ١٨ يوليو ، أوقف اطلاق النار من جديد ... واثناء الهدنة وبالرغم عنها ، شهد جمال ثلاث طائرات مقاتلة اسرائيلية تُسقط طائرة مصرية ... وازداد الغضب ضد فاروق الذي ظلّ صامتاً امام الالوف من الانتهاكات الاسرائيلية لاتفاقية الهدنة . امّا مراقبو الهدنة الدوليون ، فان معظمهم كانوا عاجزين عن التدخّل لايقاف خرق الهدنة ، بينما قتل العديد منهم في ظروف غامضة ، قبل أن يسلّط الارهابيون الصهاينة نيران مدافعهم على كبير مراقبي الهدنة ، الكونت برنادوت ... فقد وقع الوسيط الدولي في ايدي الارهابيين التابعين لمنظّمة شترن وهو يعبر احدى بوّابات مدينة القدس . وبعد أن تعرّض للتفتيش الدقيق ، وتأكّد اليهود من شخصيته ، اطلقوا عليه الرصاص ، فسقط الكونت برنادوت وسقط معه معاونه الكولونيل الفرنسي سيروت الذي حاول أن ينقذ حياة الوسيط بأن القى بجسمه بينه وبين المعتدين .

وقد تم القبض على المسؤولين عن الجريمة ، الا انه أعلن بعد ذلك باسبوعين أنهم قد تمكنوا من الهرب ... وكان الصهاينة قد نجحوا في تعميم الارهاب بحيث شمل رجال منظمة الامم المتحدة انفسهم . فنظراً لعدم وجود اقل ضمان لحمايتهم ، رفض معظم المراقبين الدوليين مواصلة عملهم في المنطقة ، باستثناء بعض الابطال منهم الذين رفضوا الاستسلام للضغط الارهابي ، فظلوا يمارسون عملهم ويعرضون انفسهم لمثل مصير رئيسهم الراحل .

وما هو ذنب الكونت برنادوت ، من وجهة النظر الصهيونية ؟ إن ذنبه الأكبر هو أنه عبّر عن شفقته على المصير المؤلم للاجئين العرب[1] ، وأنه وافق على تعديل بسيط في حدود اسرائيل لصالح العرب ... ثم جاءت بعد ذلك اتفاقيات الهدنة التي وقّعت في رودس (حيث اسرع حليف برنادوت بنقل مركزه الدائم اليها خوفاً من الارهاب الصهيوني) خلال الاشهر الاولى من عام ١٩٤٩ . ومما لا شك فيه أن انهاء الحرب كان شيئاً حسناً ، ولكن سلطة منظمة الامم المتحدة كانت قد ضُرب بها عرض الحائط ، وقراراتها ظلت حبراً على ورق ، ولم تنفذ من جانب اسرائيل في الوقت الذي ظل فيه مليون من المساكين المشردين ، المطرودين ، المذلين ، بلا مأوى (بغض النظر عن الوف الشهداء الذين سقطوا اثناء العمليات الحربية) وبينما ظلت جريمة اغتيال كبير مراقبي الهدنة دون عقاب ... يا للسخرية !

وكان جمال عبد الناصر ، في نهاية الامر ، قد استطاع أن يدلل على كفاءاته العسكرية بتحقيق انتصار الفالوجة ، ذلك الانتصار الذي رفع بعض الشيء من الروح المعنوية للجيش المصري . ولم تكن بسالة الجنود المصريين موضع نقاش ، فإن الجيش المصري قد سجل في فلسطين كثيراً من الأعمال البطولية . وبعد توقيع اتفاقية الهدنة المشتركة بين مصر واسرائيل

---

(١) انظر الملحقات .

في نهاية شهر فبراير ، عاد جمال عبد الناصر الى القاهرة حيث تلقّى الأوامر بالانتقال الى منصب جديد في مدينة الاسماعيلية . وكانت فكرة واحدة تستولي عليه ، شأنه في ذلك شأن معظم اصدقائه . وقد وجدت تلك الفكرة خير تعبير لها في جملة قصيرة اطلقها اثناء الحرب أحد الضباط الاحرار قبل أن يسلم الروح : « إن مصر هي ميدان المعركة الحقيقي ! » ... ولم يكن الوقت عندئذ مناسباً للتفكير بفلسطين . وفي ذلك الوقت ، ادلى المدير اليهودي للجامعة العبرية في القدس بتصريح للمسيو لويس ماسينيون ، قـــال فيه :

« سوف ينهال علينا عقاب شديد من السماء ... فنحن من عابدي الذهب لأننا نتخذ المـــال اساساً لدعايتنا ... ونحن ايضاً من عابدي الدماء لأننا نثر بذور الارهاب ... والله لا يرضى بذلك ! وكلّما فعلنا ذلك في الماضي ، نلنا عقابنا ... وكتابنا يشهد بذلك ... »

٣ ــ المرحلة الثالثة : النضال ضد الانكليز حتى حريق القاهرة

في نهاية عام ١٩٤٨ ، لقي رئيس الوزراء في مصر مصرعه بعد أن أصدر الامر بحل تنظيم الأخوان المسلمين ... وبعد ذلك بقليل ، سقط مرشد الأخوان بدوره تحت رصاص الثأر ، بينما اعتقل مئات من اعضاء المنظّمة المنحلّة وخضعوا للاستنطاق في الوقت الذي كان فيه بوليس القاهرة ــ الذي اغتيل قائده ايضاً ــ في حالة الارهاق . امّا الملك ، فكان يخشى وقوع ردّ فعل من جانب الضباط العائدين من فلسطين ، خوفاً من ان يقوموا هم ايضاً بمثل الحركة التي قامت في سوريا حيث كان حسني الزعيم بعد عودته من الجبهة ، قد قبض على جميع اعضاء الحكومة وكذلك على رئيس الدولة .

وفي ٢٣ مايو ، وصل جمال عبد الناصر الى القاهرة لقضاء اجازة قصيرة. وعلى الفور ، استدعي امام رئيس الوزراء وقائد البوليس ، واتّهم بأنه اقام جمعيّة سريّة « لتدريب المواطنين المدنيين على حمل السلاح ... » وردّ جمال على جميع الاسئلة الموجهة اليه ، ثم اطلق سراحه ... ولكنه ادرك بسرعة أنّ تنظيمه السريّ كان مهدّداً ، وأن المعلومات التي بني عليها اتّهام البوليس لا بدّ أنها تسربت من الخلايا التي اقيمت في صفوف الاخوان. وعليه ، اتخذ جمال التدابير اللازمة لقطع جميع العلاقات بين تنظيم الضباط الاحرار والاخوان المسلمين .

وفي يوليو عام ١٩٤٩ ، بينما كان فاروق يبدأ سياسة ازالة التوتر ، شكّل الضباط الاحرار لجنة تنفيذية من تسعة اعضاء. وقد وضعت هذه اللجنة في شهر اكتوبر خطّة للاستيلاء على الحكم بعد خمسة اعوام؛ وقد صدرت التعليمات لبعض اعضاء اللجنة التنفيذية بالاحتفاظ بعلاقاتهم مع الدوائر الحاكمة في البلاد، وذلك بهدف الحصول على المزيد من المعلومات ومن اجل صرف انظار الشكّ عنهم. وكانت هذه الوسيلة الاحتياطيّة لا بدّ منها، لا سيما وقد بدأ التنظيم السريّ يخرج من الظلام . ففي نهاية عام ١٩٤٩ ، تلقّى جميع كبار الضباط وعدد كبير من مرؤوسيهم منشوراً يحمل توقيع « الضباط الاحرار » ، وجاء فيه ما مضمونه : « ما هو واجبنا الأول بعد التجربة المريرة للحرب الفاشلة ؟ الجواب هو : طرد الانكليز واعادة بناء القوّات المسلحة والقضاء على الاسراف في اموال الدولة ورفع مستوى المعيشة » .

وتوعّد فاروق ، وأنذر وهدّد ، ولكن بلا نتيجة ... فإن البوليس لم يستطع أن يكشف الستار عن تنظيم الضباط الاحرار. من كان يستطيع أن يشكّ في جمال ؟ إنه يواصل حياته العسكرية بنجاح كبير ؛ وها هو في عام ١٩٥٠ – ١٩٥١ ، يلقي المحاضرات في مدرسة اركان الحرب ، ولم يكن احد يعلم أنه يستغلّ اوقات فراغه في مطالعة الكتب السياسية المختلفة

وبوجه خاص الكتب السياسية من تأليف لاسكي ونهرو . لذلك ، فان البحوث الاستخبارية للبوليس لم تكن تتوجه نحوه ، ولم تكن العناصر « المحتملة » والجديرة بأن تكون وراء التنظيم السريّ ، هي التي تنقص ... فبعد أن نشر ديوان المحاسبة تقريره في المتاجرة المعيبة التي اسفرت عنها حرب فلسطين ، كتب اللواء محمد نجيب ، وهو من جرحى حرب فلسطين ويتمتّع بشعبيّة كبيرة ، سلسلة من المقالات يهاجم فيها الفساد الذي اجتاح الدوائر الحاكمة ، والحالة المؤلمة التي وصلت اليها القوات المسلّحة . هذا ، وقد انضمّ محمد نجيب بدوره الى تنظيم الضباط الاحرار ولكن دون أن يشترك في اللجنة التنفيذية التي لم تكفّ عن اصدار منشوراتها السريّة حتى تحوّلت هذه المنشورات في نهاية عام ١٩٥٠ ، الى نشرة دورية تصدر بانتظـــام بعنوان « صوت الضباط الاحرار » .

وطالب الرأي العام باجراء تحقيق بشأن الفساد . . . وبـــدأ التحقيق فعلاً بوزارة الحربية ، الاّ أنه توقف على الفور ، بناء على اوامر من الملك فاروق ، خشية أن يكشف التحقيق عن الدور الخطير الذي قام به افراد حاشيته ... وبعد أن عاد الوفديون الى الحكم مرّة اخرى عام ١٩٥٠ ، اخذوا يعزّزون حملتهم المضادة لبريطانيا ، بهدف صرف اهتمام الرأي العام عن مسألة الفساد . ونتيجة لهذه السياسة ، اتخذ البرلمان بالاجماع قراراً بفسخ معاهدة عام ١٩٣٦ واتفاقيات عام ١٨٩٩ الخاصة بالسودان ... ثم اعلن فاروق ملكاً « لمصر والسودان » . وحاولت بريطانيا أن تساوم مع حكومة الوفد ، فاقترحت عليها الدخول في « معاهدة دفاع مشترك رباعية » تضم الى جانب مصر ، فرنسا وبريطانيا وتركيا ، على أن تقوم قوّات مشتركة من الدول الاربع بحماية قناة السويس . ولكن مصر رفضت هذا الاقتراح . بينما طالب الشباب بقطع جميع العلاقات مع بريطانيا ومقاطعتها مقاطعة عامة وتامة كما طالبت ايضاً بشنّ حرب عصابات ضد القوّات البريطانية المرابطة في منطقة القناة . وجاء ردّ بريطانيا في شكل تعزيزات عسكرية ضخمة في

منطقة القناة حيث بلغ حجم تلك القوّات ٨٠,٠٠٠ جندي . وبهدوء وطمأنينة . ذهبت مصر الى الامم المتحدة لتعرض قضيتّها على مجلس الامن ، وأخذت الولايات المتّحدة تنتقد بريطانيا ؛ وكان موقف الحكومة الاميركية في هذا الصدد يقوم على اساس أن النزاع المصري البريطاني ، وهو مقدّم أمام الرأي العام العالمي بشكل قضية استعمارية، «كان من شأنه أن يخدم الشيوعية في منطقة الشرق الاوسط » .

وآخذت الوزارة الوفدية ، التي سيطرت عليها شخصية فؤاد سراج الدين وزير الداخلية والمالية ، تنظّم المقاومة السلبية التي بدأت بمظاهرة صامتة ضخمة شقّت طريقها في مختلف شوارع القاهرة والاسكندرية في آن واحد ، واشترك في مظاهرة العاصمة ما يزيد عن مليون مواطن ، بينما بلغ حجم مظاهرة الاسكندرية ٢٥٠,٠٠٠ شخص . وبتصريح سابق من البوليس ؛ قامت الكتائب المسلّحة التابعة للاخوان المسلمين بالاشراف على جميع الطرق لمنع وصول المؤن الى القاعدة العسكرية البريطانية في منطقة القناة . ومن ناحية اخرى ، تلقّى الطلاّب اعانة مالية ضخمة من الحكومة ؛ بعد أن بدأوا يتدرّبون على حمل السلاح . ولكن المعارضة لم ترض عن كل هذه الاجراءات فأخذت تطالب بقطع العلاقات الدبلوماسية مع بريطانيا وبتوزيع السلاح على الشعب . فقام خمسون الفاً من العمّال المصريين الذين يعملون في ثكنات الجيش وفي المنشآت المختلفة للقاعدة البريطانية في منطقة القناة بتقديم استقالتهم وعادوا جميعاً الى القاهرة ... وبدأت « العسكرتارية » البريطانية تفقد السيطرة على اعصابها ، وأخذ الجنود البريطانيون القلقون يطلقون الرصاص على كل شيء يتحرّك ، سواء كان سيارة نقل أو مجرّد جنازة ...

وفي الوقت نفسه ، ازداد نشاط الفدائيين المصريين في منطقة القناة ، وبالاخصّ اثناء الليل ، اذ كان الحرس يتساقط ، والانفجارات تدوي . وبدأ الرأي العام البريطاني يتطوّر ويتساءل عمّا لذا كان وجود قاعدة بريطانية في منطقة القناة من شأنها فعلاً أن تصون الممر الدولي وتحميه في هذا العصر

الذريّ ، وعمّا اذا كان ذلك الوجود يستحقّ فعلاً تضحية الالوف المؤلّفة من الشباب البريطاني بجانب الوف الملايين من الجنيهات ؟ وكان لهذه العلامات الاولى من تراجع الانكليز آثار طيّبة على المصريين الذين تحمسوا اكثر فأكثر في نضالهم . وكان يبدو أنه لا يمكن ان يزداد الغضب ضد الانكليز اكثر ممّا كان عليه في تلك الأيّام ... ولـكن ، اثبت فاروق عكس ذلك ... فبتعيينه لاثنين من السياسيين المعروفين بميولهم لبريطانيا ، مستشارين له ، استطاع فعلاً أن يثير موجة جديدة من الاضطرابات، ممّا سنجّل ارتفاعاً ملموساً في ميزان المشاعر المناهضة للانكليز ... فقامت المظاهرات الصاخبة ، واغلقت المدارس والجامعات حتى ١٢ يناير ... واصبح الجميع ، مـن الوطنيين اليمينيين واليساريين ومن الاشتراكيين ، وغيرهم من مختلف الاتجاهات السياسية ، صفاً واحداً ، وبلغ بغضهم للمستعمر البريطاني درجة كادت تتجاوز درجة عداوة الاخوان التقليدية للانكليز ... وفي الوقت الذي طالب فيه الاخوان بالسلاح ، اصدرت الحكومة نداء الى الشعب بالتدريب على حمل السلاح وبالحصول عليه ، على أن يدفع الثري ثمن السلاح للفقير . وذعر الانكليز ... واخذ أحد قادتهم يهدّد بسحق جميع الفدائيين من الطلبة « بواسطة اسلحة رهيبة لم يسبق استخدامها بعد » ...

وامام صلابة فؤاد سراج الدين ، قام الضباط الاحرار بتبليغه استعدادهم لتأييده في حالة نشوب نزاع مباشر بينه وبين الملك ... ويبدو أن هذا العرض لم يبلّغ للحكومة أو لقيادة حزب الوفد . فهل تردّد فؤاد سراج الدين بسبب حداثة سنّ الضباط الاحرار وحيويتهم ؟ سوف نعرف ذلك يوماً ما ... ومن ناحية اخرى ، يحتمل أن يكون سراج الدين قد تردد في قبول اقتراح الضباط الاحرار نظراً لعدم ثقته بأن هذه الحفنة من الضباط كان في امكانها أن تصحب من ورائها الجيش كله .

كان اذن لا بدّ للضباط أن يثبتوا مدى شعبيتهم داخل القوّات المسلّحة ، ولكن دون أن يخونوا التنظيم السريّ ويكشفوه ... وحانت الفرصة في ٦

يناير ، وكانت المناسبة انتخابات اللجنة التنفيذية لنادي ضباط الجيش . واذا بالمرشّحين الذين يساندهم القصر يحصلون على ٥٨ صوتاً مقابل ٢٧٨ صوتاً لمحمّد نجيب وزكريا محي الدين وحسن ابراهيم !... وغضب فاروق وألغى الانتخابات ... ولكن الضباط الاحرار لم يهتموا بذلك ، فالمهمّ بالنسبة لهم هو اغلبيّة الأصوات التي كانت تدلّ بوضوح على أن أربعة أخماس زملائهم كانوا يؤيدونهم ويقفون معهم ، فكان من الممكن إذن استعجال قيام الثورة .

في ٢٥ يناير ، تحرّكت قوّة بريطانية مكوّنة من الفي جندي تساندها الدبّابات والمصفّحات والاسلحة الحديثة الجبّارة ، فحاصرت مائتين وخمسين من رجال الشرطة المصرية في ثكناتهم بمدينة الاسماعيلية ، واصدرت اليهم انذاراً بتسليم اسلحتهم القديمة البدائية ... فاتصلوا تلفونياً بفؤاد سراج الدين وعرضوا الامر عليه ، فأمرهم بأن يقاوموا .

وأطلق الانكليز نيران مدافعهم بكل برودة ... وسقط اكثر من خمسين قتيلاً وما يزيد عن مائة جريح ... امّا الآخرون ، فقد اضطرّوا الى الاستسلام بعد أن نفذت ذخيرتهم ...

ونتيجة لهذا الحادث ، قرّر مجلس الوزراء قطع العلاقات مع بريطانيا واصدار نداء الى مجلس الامن ، وكذلك القي القبض على ٨٠ بريطانياً واحتفظ بهم كرهائن .

وفي اليوم التالي ، وهو يوم تاريخي ، نشب حريق القاهرة .

٤ ــ المرحلة الأخيرة : محمد نجيب يطرد فاروق

تصاعدت نيران ما يزيد عن ٤٠٠ حريق صغير في سماء القاهرة ، مدمّرة جزءاً كبيراً من العاصمة، مسبّبة خسائر ماديّة بلغ مقدارها حوالي ٥٠ ملياراً من الفرنكات القديمة .. وأفلت زمام الموقف من يد وزير الداخلية فؤاد سراج الدين ، فطلب تدخّل الجيش . وحاول الوزير عبثاً أن يتّصل تليفونياً بالملك ، ولكن فاروق كان مشغولاً بمأدبة غداء ضخمة اقامها في قصره لمناسبة مولد الامير احمد فؤاد ، في الوقت الذي واصل فيه حشد من المواطنين الثائرين والمهيّجين المحرّضين اعمالهم التخريبية في جميع انحاء المدينة . واخيراً ، اصدر الملك اوامره الى الجيش بالتدخّل لإعادة النظام .

كانت معظم الحرائق قد اشعلت بهدف التخريب ، ولم تسجّل اعمال النهب إلاّ في حالات قليلة نادرة ... وكان من اهمّ اهداف المخرّبين المحلاّت الكبرى ودور السينما ذات الاعلانات المثيرة التي تدعو للعنف أو للجنس ، والحانات وجميع الملاهي ومحال التفرّج التي كانت تؤوي حفنة من المنهمكين في ملذّات الحياة ، ممن ظلّوا يعيشون في جوّهم الصاخب برغم الظروف العصيبة التي يمر بها الوطن ، ماضين في احتقارهم للجماهير الشعبية بينما هم لا يمثّلون في حقيقة الامر سوى طفيليّات بالنسبة للمجتمع ... كذلك تعرّضت للنيران المدمّرة الوف الاثواب من الاقمشة الفاخرة وصناديق الويسكي ومختلف انواع الخمور والاوراق المالية الجديدة البرّاقة المكدّسة في الخزائن ... امّا الضحايا من المدنيين ، فكان عددهم ضئيلاً ، اذ بلغ عدد القتلى من الاجانب ١٧ من حوالي ١٠٠,٠٠٠ ، وعدد القتلى من المصريين ٥٠ من اكثر من مليونين ، أي بنسبة ٣ في الالف ، وهي نسبة لا تسمح باستخدام كلمة « مجزرة » وصفاً لما حدث .

من هم المسؤولون عن حرائق القاهرة؟ لنُعْطِ الكلمة للمسيو فوشيه، الذي كان يقيم في القاهرة منذ عام ١٩٢٥ ويعمل مراسلاً لصحيفة «جورنال دي جينيف»، والذي كتب في شبابه رسالة دكتوراه قيمة في علم النفس والذي شغل اثناء الحرب العالمية الاولى والثانية وظيفة ادارية هامة في هيئة الصليب الاحمر الدولي لخدمة ضحايا الحرب. يقول المسيو فوشيه:

«إنّ الخدمة التي أدّتها حرائق القاهرة لبريطانيا تذكّرنا بتلك الضربة الفجائية القاضية التي وجّهت ضد عرابي باشا والتي مهّدت لتأييد الرأي العام للحملة البريطانية بقيادة الاميرال سايمور بعد سقوط ٧٥ اوروبياً وحوالي ٢٠٠ من المصريين في مجزرة ١١ يونيو عام ١٨٨٢، تلك المذبحة التي هيأت الرأي العام العالمي لقصف مدينة الاسكندرية في ١١ يوليو ١٨٨٢ واحتلال مصر.»[1]

وفعلاً، فان الانكليز خرجوا من حرائق القاهرة بأربعة مكاسب: اولاً، لم ينفذ قرار قطع العلاقات الدبلوماسية مع بريطانيا؛ ثانياً: لم تتمكّن الحكومة من تنفيذ قرارها بالاحتفاظ برهائن؛ ثالثاً: توقّف نشاط الفدائيين؛ ورابعاً: انتهى فؤاد سراج الدين. ومن الضروري هنا أن نتكلّم في الجمع المثنّى، اذ ان الملك فاروق كان يعلم جيّداً أن مجزرة الاسماعيليّة سوف تثير الاضطرابات، ومع ذلك، فهو لم يؤجل مأدبة الغداء المزمع اقامتها، وذلك (كما يبدو واضحاً) بهدف تجميد البوليس والجيش ومنع تدخّلهما؛ فإن جميع قادة البوليس والجيش كانوا من بين المدعوين الى الحفل... ثم بعد أن اخطر رسمياً باشعال النار على نطاق واسع في مختلف انحاء العاصمة، لم يتحرّك الملك، وظلّ يكرّم ضيوفه... كيف يمكن للمرء اذن في مثل هذه الظروف، ألاّ يشك في قيام تواطؤ بين فاروق والاستخبارات البريطانية،

---

(١) جمال عبد الناصر ومعاونوه ١٩٦٧.

لا سيما وقد شوهد بعض رجال ذلك الجهاز وقد انطلقوا في شوارع القاهرة يحرّضون الناس على اشعال النار والقتل ؟

ومن ناحية اخرى ، كتب محمّد نجيب :

« ان القوانين العرفية لم تعلن الا في الساعة الرابعة من بعد الظهر ، وفي خلال ساعتين ، تمكّن الجيش من تشتيت المهيّجين . والهدف المحتمل للملك ولاصدقائه بالتعاون مع العملاء الانكليز كان وضع حزب الوفد في مركز حرج يسمح بتصفية الوزارة وحلّ البرلمان ثم بتعيين وزارة جديدة من رجال الأعمال الموالين للملك . وعلى كلّ حال ، فإن فؤاد سراج الدين قد وقع في الفخّ حين لم يتدخل بالسرعة المطلوبة لوقف الاضطراب ؛ ويوم السبت ذاك الاسود قد سجلّ نهاية سراج الدين ونهاية حزبه » .

وقد كان الملك ، المشهور بشغفه بالحيلة والخديعة والدهاء ، وبحبّه التآمر ، يأمل ايضاً أن يتحوّل تدخلّ الجيش الى صدام بينه وبين الشعب... إلا أن الضباط الأحرار – بفضل وعيهم السياسي الأكيد– استطاعوا أن يحبطوا هذه الخطة باصدار النداء الآتي الى القوات المسلّحة :

« ان الخيانة تأمل في النصر باستخدامها الجيش ... ان واجب الجيش ليس الا تحرير البلاد وصيانة الاستقلال ... فاذا خرج الجيش في الشوارع ، فلمواجهة الخونة . ولن تطلق رصاصة ، حتى ولا رصاصة واحدة على المتظاهرين كما أنه لن يُقبض على فرد حتى ولا فرد واحد من هؤلاء المتظاهرين بواسطة الجيش ... فليفهم الجميع ذلك جيّداً ! إن الجيش هو منذ اليوم مع الشعب وسيظلّ معه الى الأبد ! » .

استمع الجيش الى هذا النداء واستجاب له ، وكان في ذلك عامل جديد من العوامل الملحّة لضرورة استعجال سير الاحداث . وقبل القيام بالعمل الحاسم ، اتّخذت اللجنــة التنفيذية لتنظيم الضبــاط الاحرار قراراً بتعيين

رئيس لها . وكان لا بدّ لمن يحتلّ هذا المنصب من أن يتمتّع بكمال السنّ وبالشعبية وأن يكون موضع تقدير واحترام . وكان اللواء محمّد نجيب جديراً بهذا المنصب ، وعليه تم تعيينه رئيساً للجنة التنفيذية . وفي ذلك الحين ، كان فاروق مشغولاً بتهريب اكبر قدر ممكن من الاموال الى الخارج وبأقصى سرعة . امّا حقده الذي لم يُشْفَ بشأن انتخابات مجلس ادارة نادي الضباط ، فقد كان مسألة ثانوية بالنسبة له ... ولقد تشمّم فاروق وجود حركة مؤامرة ضده في الجيش ، ونظراً لخيبة امله من البوليس ، اسند مهمّة اجراء تحقيق في هذا الشأن ، الى قائد القوّات المسلّحة وانذره بالفصل في حالة الفشل ... ولم يحرز قائد الجيش نجاحاً اكبر من النجاح الذي احرزه البوليس من قبله ، برغم أنّه كان قد كلّف احد الضباط الأكثر مهارة بعمليّة اجراء التحقيق ... ولكن هذا الضابط ، لسوء حظّه كان ينتمي الى تنظيم الضباط الاحرار ، ويعدّ من اقرب اصدقاء جمال عبد الناصر ، ويدعى صلاح سالم !

واخيراً ، تحدّد تاريخ العمل الثوري : ٥ اغسطس . وكان الامل يقوم على أن يعيّن محمّد نجيب في منصب وزير الحربية ... وامام الرفض الباتّ لفاروق بالاستجابة الى هذا المطلب الذي كان يؤيده الرأي العام ، اضطرّت الوزارات المختلفة التي تعاقبت في الحكم اثناء تلك الفترة العصيبة الى تقديم محمّد نجيب ، ولكن دون فائدة ، فإنه لم يكن يمارس اي نشاط سرّي ولا يقوم باي اتصالات مشتبه فيها ، في الوقت الذي اخذت فيه شعبيته تتزايد يوماً بعد يوم ...

وفي ٢٠ يوليو ، وبينما ترددت الاشاعات بأن الملك يعد العدّة لاعتقال بعض ضباط الجيش ، اجتمعت اللجنة التنفيذية لتنظيم الضباط الاحرار ، وأخذت تتناقش وتستعرض الموقف ... وكان الملك وقتئذ يقضي فترة استجمام في الاسكندرية يلتمس فيها ، اسوة بكثير من سكان العاصمة ، هواء شاطىء الاسكندرية ... وفي القاهرة ، كانت تجتاح العاصمة موجة من الحرّ دفعت بدرجة الحرارة الى ذروتها ، ممّا جعل الناس يرقدون في بيوتهم ويميلون

للكسل والتراخي والقيلولة ... واذن ، فقد كانت جميع الظروف المؤاتية لحركة الانقلاب متوفرة . كم من الرجال كانوا يعرفون ما سوف يحدث ؟ لا اكثر من ٢٠ ضابطاً ... اما محمد نجيب ، فقد قام بدوره ... جلس يستريح ، ويقضي وقته في قراءة الجرائد وفي تدخين غليونه المفضل في النسيم العليل لليالي القاهرة الصيفية ...

وفي ليلة ٢٢ يوليو عام ١٩٥٢ ، وتطبيقاً لخطة محكمة اعدها جمال بكل دقة ، استولى الضباط الاحرار على المراكز الحيوية للعاصمة وقبضوا على اعضاء هيئة اركان حرب الجيش . وقبل الفجر ، رأس محمد نجيب اجتماعاً للجنة الضباط الاحرار التي اتخذت لنفسها اسم « مجلس الثورة » ، وتقرر اسناد مهمة تشكيل الوزارة الى علي ماهر ، وتعيين محمد نجيب في منصب القائد العام للقوات المسلحة ... وقد اضطر فاروق الى أن يصدق على هذه القرارات في اليوم التالي ، الا انه اضطر ايضاً ، بعد ذلك بثلاثة ايام في ٢٦ يوليو ١٩٥٢ ، الى أن يستسلم لانذار من محمد نجيب بمغادرة الأراضي المصرية في مهلة اقصاها الساعة السادسة مساء .

ومما لا شك فيه أن فاروق كان يتوقع لنفسه مثل هذا المصير ... فقد غادر البلاد على متن سفينته الخاصة التي لم ترد الثورة مصادرتها والتي كادت تبتلعها مياه البحر الأبيض المتوسط ، نظراً لحمولتها الضخمة من الخزائن المليئة بالتحف النادرة الثمينة والكنوز التي تفوق كل تقدير ...

لماذا عومل فاروق بهذه الرقة في الوقت الذي كان فيه البعض يطالبون بعقاب نموذجي للملك كان من اليسير اتهامه بأية تهمة من الغدر ، إن لم يكن من الخيانة ؟ ذلك لأن جمال تمسك اولاً بمبادئه اللاعنفية ، وكرهه للدم المسفوك ، وصمد في الاخذ بهذا الاسلوب ونجح في فرضه برغم احتجاج بعض زملائه ... ثم ايضاً ، كما شرحه حسين الشافعي ، « لأن الاسلام يعتبر أن العهد كان مسؤولاً ، ويشير الى الذين يكظمون الغيظ ويعفون عن الناس » ..

وبذلك ، اتيح للملك المخلوع ان يعيش حياة رجل اعمال ، ومقامر

منهمك ، تلك الحياة التي لم يستطع أن يتفرّغ لها بعد ، بسبب عرشه وما ترتّب عليه من التزامات ، والتي لم يكن ، في الحقيقة ، يستقبحها .

وفي اليوم التالي ، اعلن محمّد نجيب تمسُّك الثورة بالدستور كما اعلن أن النظام الملكي لم يُلْغَ ، باعتبار ان فاروق كان قد تنازل عن العرش لصالح الامير احمد فؤاد ، ذلك الطفل الذي اضيء عيد ميلاده بحريق القاهرة الكبير ...

الفصل الثالث

جمال يخرج من الظل

١ – انتصار وخيبة ...

كان الضباط الاحرار يعتقدون أن واجبهم الأول والاخير هو تطهير الجيش. لذلك، فان محمّد نجيب ورفاقه من الضباط الاحرار لم يكن في نيّتهم أن يحكموا البلد، بل أن يساندوا فحسب حكومة كفيلة بأن تحقق الاستقلال في الكرامة. ومن اجل تحقيق ذلك، كان لا بدّ من القضاء على الاحتلال الانكليزي وعلى العناصر المستغلّة. وكما قال جمال عبد الناصر، فان مجتمع مصر ما قبل الثورة كان «مجتمع النصف بالمائة» أي أن نصفاً بالمائة من عدد السكّان كان يستغلّ الاغلبية الساحقة. وكانت هذه النسبة الضئيلة تشمل اولاً الملك وافراد اسرته واصدقاءه ورجال حاشيته، ثم كبار الاقطاعيين الذين يمتلكون آلاف الافدنة، والبورجوازية الصناعية ولا سيما التجارية، وكانت هاتان الفئتان (الاقطاع والبورجوازية الصناعية والتجارية) تسيطران تماماً على جميع الاحزاب السياسية. اذن كانت هذه النسبة الضئيلة من السكّان تَستغلّ جماهير شعبية لا حصر لها من الفلاّحين المساكين الذين يعيشون في ظروف بدائية للغاية، على الأقلّ في نظر ابن المدينة الاوروبي العادي المعاصر. إن ارض وادي النيل ارض غنيّة خصبة. وقد استطاع الفلاّح المصري (اسوة بالمزارع في اي ارض خصبة، سواء في فرنسا أو

في الصين أو في اوكرانيا أو في المجر) استطاع هذا الفلاّح على مرّ الاجيال أن يؤمن لنفسه الحد الأدنى من التغذية اللازم لاتّقاء المجاعة ، بالاضافة الى أن البيئة الريفية نفسها ، بكل ما تحمله من طريقة حياة بما في ذلك المنازل المتواضعة المحصّنة ضد الحرّ ، والعديد من الوصفات الطبيّة الشعبية التي اثبتت ، الى حدّ بعيد ، صلاحيتها في الحفاظ على صحّة اهل الريف ، والتمسُّك بتعاليم القرآن فيما يختصّ بالارضاع الطبيعي ، لم يكن كلّ ذلك يشكّل عوامل مضادة للفلاّح أو لمصلحته الصحيّة . ولكن هناك ، من ناحية اخرى ، عوامل متعدّدة لا يمكن أن توصف بأنها في صالحه ، مثل تعبئة المنازل بعدد كبير من السكّان بما يفوق احتمال حجمها ، وعجز الفلاّح عن مواجهة الامراض الخطيرة ، وبعض الظروف الصحيّة السيئة ، وعدم توفر المدارس بالقدر الكافي لتأمين امكانيات التعليم وعدم توفّر الفرص امام المواطن الريفي الموهوب . ولكن ، في معظم الاحيان ، كان من اهمّ عوامل شقاء وبؤس الفلاّح تبعيته التامة لـ « باشا » الاقطاعي أو جلاوزته أو موظفيه . اذاً لم يكن جميع هؤلاء ، في الحقيقة ، اشراراً بمعنى الكلمة ، فانهم لا يمتازون جميعاً بالقدر الكافي من روح العدالة وبالرحمة ، كما أنه اتضح أن الكثير منهم كانوا من اللصوص .

وبعد حرب ١٩١٤ ، ظهرت طبقة جديدة وسطى من الموظفين ومن التجّار الصغار والمتوسّطين ، ومن الاطباء والمهندسين وصغار الملاّك الخ .. وبوجه عام ، كانت هذه الطبقة تتجه إما الى يسار الوفد ، او بالعكس — وابتداء من عام ١٩٣٠ — الى حيث الاخوان المسلمون .

واذا كان جميع الضباط الاحرار يرغبون في القضاء على الانكليز والمستغلّين ، فان آراءهم واتجاهاتهم السياسية لم تكن دائماً موحّدة ؛ ذلك ان البعض منهم كان اتجاهه يقوم احياناً على عقائد مجرّدة ، ولم يكن لأحد منهم أية خبرة مباشرة في الشئون العامة أو الشئون الاجتماعية . واذا كان البعض منهم متعاطفين مع الشيوعية مثلاً ، فقد كان البعض الآخر يلتفت

الى الاخوان. ويبتسم لهم. امّا نجيب وجمال، اللذان كانا يؤيدان مبدأ الديمقراطية الدستورية، فقد كانا قبل كل شيء، يؤكدان ضرورة وحدة الصفّ بين الضباط الاحرار، الأمر الذي كان يتطلّب تجنُّب السياسة[1]. لذلك، فانهما اختارا علي ماهر لتشكيل الحكومة الجديدة. وكان علي ماهر قد اعدّ برنامجاً واضحاً يقوم على الوحدة الوطنية ويشمل الاصلاح الزراعي الذي لم يكن من ابتكار جمال عبد الناصر اكثر ممّا كانت من ابتكاره المشكلة الصهيونية أو القومية العربية...

و على رغم ذلك، فقد اضطر نجيب وجمال ورفاقهما، بعد ثمانية اسابيع، الى أن يستولوا بأنفسهم على زمام السلطة على عكس نيّتهم الاولى. وقبل ذلك، كان جمال قد استطاع، بوصفه مديراً لمكتب محمّد نجيب، أن يبعد (بواسطة النقل ولا سيما بالترقية) بعض الضباط المتطرّفين أو الضباط من ذوي النزعة السياسية الكبيرة أو الضباط البركانيّي الطبع. ثم اصبح من المستطاع أن تتم الموافقة، بالتعاون مع الضباط الآخرين، على ما سُمّي بـ «المبادىء الستة للثورة»، وهي:

١) القضاء على الاستعمار. ٢) تصفية الاقطاع. ٣) القضاء على الاحتكارات وسيطرة رأس المال على الحكم. ٤) اصلاح الجيش باتجاه وطني. ٥) تحقيق العدالة الاجتماعية. ٦) اقامة نظام ديمقراطي سليم.

يخطىء البعض اذا ظن أن جمال قد «واصل شقّ طريقه الى تحقيق هدفه الرامي الى الاستيلاء على الحكم في ظلّ نظام رئاسي». فان الرئيس المصري قد شرح وجهة نظره في هذا الشأن بنفسه في ما يبدو وكأنه اعتراف على ذلك في كتابه «فلسفة الثورة»... ففي الحقيقة، كان جمال قد وجد

---

(١) لا اقصد هنا بعض حالات التدخل البسيطة مثل تدخل جمال، بعد مرور بضعة ايام على قيام الثورة، لتعديل نص التصريح الذي كان علي ماهر في سبيله الى اعلانه، والخاص بالعودة الى الحياة البرلمانية. ففي هذه الحالة بالذات، لم يكن جمال يريد أن يتقيد بمهلة معينة، وعليه فقد طلب اضافة عبارة «بعد ستة اشهر على الاكثر».

نفسه ، بعد طرد الملك ، في ظروف لم يكن ينتظرها ، وقد اعترف بنفسه بأن الصورة الكاملة لم تتضح في خياله الا بعد فترة طويلة من التجربة عقب ٢٣ يوليو ...

وليس هناك ، لشرح هذه النقطة بالتفصيل ، اروع ممّا كتبه جمال في هذا الشأن عندما قال :

« لا يمكن أن توصف ثورتنا في ٢٣ يوليو بأنها ثورة شعبية ... فلماذا اذن ، كتب للجيش ، دون غيره من القوى ، أن يحقق هذه الثورة ؟ ... إن الهزيمة في فلسطين والأسلحة الفاسدة وازمة انتخابات نادي الضباط لم تكن المنابع الحقيقية التي تدفق منها السيل . لقد كانت هذه كلّها عوامل مساعدة على سرعة التدفّق ، ولكنها لا يمكن ابداً أن تكون هي الاصل والاساس .

« وقد ألحّ على خواطرنا سؤال : اذا لم يقم الجيش بهذا العمل فمن يقوم بـه ؟

« إني اعترف بأن الصورة الكاملة لم تتضح في خيالي الاّ بعد فترة طويلة من التجربة عقب ٢٣ يوليو ... وأنا اشهد انه مرّت عليّ بعد ٢٣ يوليو نوبات اتهمت فيها نفسي وزملائي وباقي الجيش بالحماقة والجنون الذي صنعناه في ٢٣ يوليو ...

« لقد كنت اتصور قبل ٢٣ يوليو أن الامة كلها متحفّزة متأهبة ، وانها لا تنتظر الا الطليعة تقتحم امامها السور ، فتندفع الامة وراءها صفوفاً متراصة منتظمة تزحف زحفاً مقدساً الى الهدف الكبير ...

« وكنت اتصوّر دورنا على انه دور طليعة الفدائيين ، وكنت اظن ان دورنا هذا لا يستغرق اكثر من بضع ساعات ، ويأتي بعدنا الزحف المقدس للصفوف المتراصة المنتظمة الى الهدف الكبير ، بل قد كان الخيال يشط بي احياناً فيخيل الي اني اسمع صليل الصفوف المتراصة واسمع هدير الوقع الرهيب لزحفها المنظّم الى الهدف الكبير ، اسمع هذا كلّه ويبدو في سمعي من فرط ايماني به حقيقة مادية ، وليس مجرّد تصورات خيال ...

« ثم فاجاني الواقع بعد ٢٣ يوليو ...

« قامت الطليعة بمهمتها ، واقتحمت سور الطغيان ، وخلعت الطاغية ، ووقفت تنتظر وصول الزحف المقدس للصفوف المتراصة المنتظمة الى الهدف الكبير ...

« وطال انتظارها ...

« لقد جاءتها جموع ليس لها آخر ... ولكن ما ابعد الحقيقة عن الخيال !

« كانت الجموع التي جاءت اشياعاً متفرقة ، وفلولاً متناثرة . وتعطل زحف المقدس الى الهدف الكبير ، وبدت الصورة يومها قاتمة مخيفة تنذر بالخطر ...

« وساعتها احسست ، وقلبي يملأه الحزن وتقطر منه المرارة ، أن مهمة الطليعة لم تنته في هذه الساعة ، وانما من هذه الساعة بدأت ...

« كنا في حاجة الى النظام ، فلم نجد وراءنا الا الفوضى ...

« كنا في حاجة الى الاتحاد ، فلم نجد وراءنا الا الخلاف ...

« كنا في حاجة الى العمل ، فلم نجد وراءنا الا الخنوع والتكاسل ...

« ولم نكن على استعداد ...

« وذهبنا نلتمس الرأي ، والخبرة من ذوي الرأي والخبرة ، من اصحابها .. ومن سوء حظنا أننا لم نعثر على شيء كبير ...

« كل رجل قابلناه لم يكن يهدف الا الى قتل رجل آخر !

« وكل فكرة سمعناها لم تكن تهدف الا الى هدم فكرة اخرى !

« ولو اطعنا كل ما سمعناه ، لقتلنا جميع الرجال وهدمنا جميع الافكار ، ولما كان لنا بعدها ما تعمله الا أن نجلس بين الاشلاء والانقاض تندب الحظ البائس والقدر التعس !

« وانهالت علينا الشكاوى والعرائض بالالوف ومئات الالوف ، ولو أن هذه الشكاوى والعرائض كانت تروي لنا حالات تستحق الانصاف ، أو مظالم يجب أن يعود اليها العدل ، لكان الأمر منطقياً ومفهوماً ، ولكن معظم ما كان يرد الينا لم يزد أو ينقص عن أن يكون طلبات انتقام ... كأن الثورة قامت لتكون سلاحاً في يد الاحقاد والبغضاء !

« ولو أن احداً سألني في تلك الأيام ، ما هو اعزّ امانيك ؟ لقلت له على الفور :

– أن اسمع مصرياً يقول كلمة انصاف في حق مصري آخر ...

– أن احس أن مصرياً قد فتح قلبه للصفح والغفران والحب لاخوانه المصريين ...

– أن ارى مصرياً لا يكرس وقته لتسفيه آراء مصري آخر ...

« وكانت هناك بعد ذلك كله انانية فردية مستحكمة ...

« كانت كلمة « انا » على كل لسان ...

« كانت هي الحل لكل مشكلة ، وهي الداء لكل داء ...

« وكثيراً ما كنت اقابل كبراء – أو هكذا تسميهم الصحف – من كل الاتجاهات والالوان ، وكنت أسأل الواحد منهم في مشكلة التمس عنده حلاً لها ، ولم أكن اسمع الا « انا » ...

« مشاكل الاقتصاد « هو » يفهمها ، اما الباقون فهم في العلم اطفال يحبون .

« ومشاكل السياسة « هو » وحده الخبير بها ، اما الباقون جميعاً فما زالوا في « الف باء » ولم يتقدموا بعدها حرفاً واحدا ...

« وكنت اقابل الواحد من هؤلاء ، ثم اعود الى زملائي فأقول لهم في حسرة :

– لا فائدة ... هذا الرجل ، لو سألناه عن مشكلة صيد السمك في جزر

هاواي لما وجدنا عنده جواباً الاّ كلمة « انا » ...

« اذكر مرّة كنت أزور فيها احدى الجامعات ... ودعوت اساتذتها وجلست معهم احاول أن اسمع منهم خبرة العلماء ...

« وتكلم أمامي منهم كثيرون ... وتكلّموا طويلاً ...

« ومن سوء الحظ أن احداً منهم لم يقدّم لي افكاراً ، وانما كل واحد منهم لم يزد على أن قدّم لي نفسه ، وكفاياته الخليقة وحدها بعمل المعجزات ، ورمقني كل واحد منهم بنظرة الذي يؤثرني على نفسه بكنوز الأرض وذخائر الخلود !

« واذكر اني لم اتمالك نفسي فقمت بعدها اقول لهم :

— ان كل فرد منا يستطيع في مكانه أن يصنع معجزة ، ان واجبه الأول أن يعطي كل جهده لعمله . ولو انكم ، كأساتذة جامعات ، فكرتم في طلبتكم ، وجعلتموهم — كما يجب — عملكم الاساسي ، لاستطعتم أن تعطونا قوّة هائلة لبناء الوطن ... إن كل واحد يجب أن يبقى في مكانه ويبذل فيه كل جهده ... لا تنظروا الينا ، لقد اضطرتنا الظروف أن نخرج من اماكننا لنقوم بواجب مقدّس ، ولقد كنّا نتمنّى لو لم تكن للوطن حاجة بنا الآ في صفوف الجيش كجنود محترفين ، واذن لبقينا فيه .

« ولم اشأ ساعتها أن اضرب لهم المثل من اعضاء مجلس قيادة الثورة ، ولم اشأ أن اقول لهم انهم قبل ان يدعوهم الطارىء الذي دعاهم الى الواجب الأكبر كانوا يبذلون في عملهم كل جهدهم .

« ولم اشأ أن اقول إن معظم اعضاء مجلس قيادة الثورة كانوا اساتذة في كليّة اركان الحرب ، وهذا دليل امتيازهم في ناحيتهم كجنود محترفين ...

« وكذلك لم اشأ أن اقول لهم إن ثلاثة من اعضاء مجلس قيادة الثورة ، هم عبد الحكيم عامر ، وصلاح سالم ، وكمال الدين حسين ، رقّوا ترقيات استثنائية في ميدان القتال في فلسطين .

« لم اشأ أن اقول لهم شيئاً من هذا ، لاني لا اريد أن افاخر الناس بأعضاء مجلس قيادة الثورة وهم اخوتي وزملائي ...

« واعترف أن هذه الحال كلها سببت لي ازمة نفسية كئيبة ... »

وفي خلال تلك الفترة ، وفي ١٢ اغسطس على وجه التحديد ، تقدّم الضباط الاحرار بعرض مشروع للاصلاح الزراعي على الحكومة . وكان المشروع ، الذي وضع بعناية كبيرة ، يعدّ من اكثر المشروعات اعتدالاً ... وما حدث بعد ذلك ، شرحه جمال في احدى خطبه التي القاها بعد مرور ١٦ شهراً على ذلك ، وقال فيها :

« لقد بدأنا نطبّق خطتنا الرامية الى اعادة البرلمان ...
تقابلنا مع عدد كبير من السياسيين ... وقد ذهلنا ...
كانوا يحاولون مساومتنا ، ويضعون الشروط ... كبار الملاّك
كانوا يرفضون الاصلاح الزراعي ... وبذلك، تنبأنا بالحقائق.
لم يكن في امكان الشعب أن يثق في هؤلاء ، ولم يكن في
امكان هؤلاء الساسة أن يواصلوا العمل ... »

وفي مستهلّ شهر سبتمبر ، تم القبض – بناء على اوامر من الضباط الاحرار – على ٧٠ شخصاً ، بصفة مؤقتة ، فقدّم علي ماهر استقالته في الحال ، اذ أنه لم يكن قد أخطر بهذا الامر ... فأصبح من الواضح تماماً أن مجلس الثورة هو الحكومة الحقيقية .

٢ ـ الاصلاح الزراعي والانتاج والتوعية المدنية

في ٩ سبتمبر ، اعلن محمّد نجيب الاصلاح الزراعي الذي حدّ من الملكية الزراعية وخفّض من قيمة ايجار الأرض الزراعية ، في حين رفع من اجور عمّال الزراعة بنسبة اربعة اضعاف ما كانت عليه .

ثم تمّ ، في مستهلّ شهر اكتوبر ، تشكيل « المجلس الوطني للانتاج » ، ممّا ترتّب عليه اعداد واعلان خطّة خمسية بعد ذلك بثلاثة اشهر ، تهدف الى تطوير شبكة الطرق ، وتعمير الصحاري ورفع الانتاج الزراعي الخ ... وكان تمويل الخطّة يقوم على اجراءات قوبلت من جانب الشعب بشيء من عدم الرضا . وكان من بين تلك الاجراءات ، رفع سعر السكّر والخبز ، ورسوم الجمرك الخاصة ببعض السلع ، وتخفيض نسبة غلاء المعيشة للموظفين . وبفضل هذه الخطّة ، التي كانت بمثابة تعبير واضح عن رفض الفوضى في الحكم ، استطاعت حكومة الثورة أن تعالج الخلل الذي كان قد أصاب ميزانية الدولة . وبعد اعادة التوازن اليها ، اصبح من الممكن للحكومة أن تبدأ دراسة جدّية لمشروع السدّ العالي وأن تنطلق في توسيع بعض مشروعات التنمية الاخرى بما في ذلك بناء المزيد من محطّات الكهرباء وتوسيع مصانع تكرير البترول ، الخ ...

وفي الوقت نفسه ، كان هناك لجنة من القضاة ، يترأسها علي ماهر ، تعمل منذ يناير ١٩٥٣ في سبيل اعداد دستور جديد . وأعلن حلّ الاحزاب السياسية ، كما أعلن في ٢٣ يناير ولمناسبة مرور نصف عام على قيام الثورة ، قيام « هيئة التحرير » التي افتتحت رسمياً في حفل حضره كبار رجال الدولة وكبار ضباط القوّات المسلّحة ورجال الدين وما يزيد عن ٧٠,٠٠٠ مواطن توافدوا

الى مكان الاحتفال من مختلف انحاء القطاع الريفي ... وقد ردّد الجميع وراء محمّد نجيب قسم الولاء المشهور التالي :

« ... اقسم بالله العظيم أن أضع كل امكانياتي في خدمة وطني ومن اجل تحريره من العبودية ومن الشهوات الخبيثة ، حتى يسود الحق والعدالة » .

وبدفع من الامين العام لهذه المنظّمة ، جمال عبد الناصر — وكان اسمه « جديداً » على الاذهان في ذلك الوقت — بُذِل مجهود جبار لنشر الوعي القومي في سائر انحاء البلاد ، في المدن والقرى وكل بقعة من بقاع الريف . لقد كانت عملية شاقة فعلاً نظراً لعقلية الجماهير المصرية التي اتخذت في الكثير من الاحيان — وباستثناء الفترات المتأزمة — موقفاً سلبياً يتسم باللامبالاة . وقد كتب جمال عبد الناصر ، بعد أن ذكر كل ما عانته بلاده من الاضطهاد على مرّ القرون ، يقول :

« ... وأحياناً حينما أعود الى تقليب صفحات من تاريخنا ، احس بالاسى يمزّق نفسي ازاء تلك الفترة التي تكوّن فيها اقطاع طاغٍ ، لم يجعل له من عمل الا مص دماء الحياة من عروقنا ، واكثر من هذا ، سحب بقايا الاحساس بالقوة والكرامة من هذه العروق ، وترك في اعماق نفوسنا تأثيراً يتعيّن علينا أن نكافح طويلاً لكي نتغلّب عليه ...

« والواقع أن تصوري لهذا التأثير يعطيني في كثير من الاحيان تفسيراً لبعض المظاهر في حياتنا السياسية .

« احياناً مثلاً يخيل الي أن كثيرين يقفون من الثورة موقف المتفرّج الذي لا يعنيه من الامر الا مجرّد انتظار نتيجة معركة يتصارع فيها طرفان لا تربطه بأيهما علاقة .

« واحياناً أثور على هذا الوضع ، واحياناً أقول لنفسي

ولبعض زملائي : لماذا لا يقدمون ، ولماذا لا يخرجون من المكامن التي وضعوا فيها انفسهم ، ليتكلّموا ويتحرّكوا ؟

« ولا اجد تفسيراً لهذا الاّ رواسب حكم المماليك .

« كان الامراء يتصارعون ، ويتطاحن فرسانهم في الشوارع ، فيهرع الناس الى بيوتهم يغلقونها عليهم بعيدين عن هذا الصراع الذي لا دخل لهم فيه .

« واحياناً يخيل الي أننا نلجأ الى خيالنا نكلفه ان يحقق لنا في اطار الوهم ما نريده ، ونستمتع نحن بهذا الوهم ونقعد به عن محاولة تحقيقه .

« ولم يتخلّص كثيرون منا من هذا الشعور بعد ، ولم يهضموا أن البلد بلدهم وانهم سادته واصحاب الرأي والامر فيه . »

هل يوجد هناك فرنسي واحد من الذين اتيح لهم أن يجيدوا معرفة مصر ، يستطيع أن يختلف مع جمال عبد الناصر عندما يقول « ان التأثير الذي تركه في اعماق نفوسنا وجود اقطاع طاغ ، يتعيّن علينا أن نكافح طويلاً لكي نتغلّب عليه » ؟ لقد بلغ من انعدام الغيرة الوطنية في مصر ومن سلبيّة معظم المصريين أن الانكلو – ساكسون والالمان كانوا يعتبرون هذه الظاهرة دليلاً على الانحطاط . ومن ناحية اخرى ، لم يكن حكم سكّان حوض البحر الأبيض المتوسط (من اللاتينيين والصقلبيين والفرنسيين) وتفسيرهم لهذه الظاهرة يتفق والتفسير الاول . فعلى عكس الانكلو – ساكسون ، اثبت اللاتينيّون والصقلبيّون أنهم اعمق منهم تحليلاً ، اذ انهم كانوا يشعرون أن هناك اسباباً تفسيرية وراء تلك الظاهرة . ثم ، السنا كلّنا – على حدّ تعبير جمال عبد الناصر – ضيوفاً عابرين ؟

فأية شجاعة هي ، واي طموح ان يريد رجل ان يلقح بشعور الغيرة الوطنية معظم المصريين ! إن هذه الفكرة التي قامت عليها « هيئة التحرير » ،

يقوم عليها اليوم « الاتحاد الاشتراكي العربي » .

وفي شهر ابريل ، أبرزت احدى الصحف القاهرية اسم جمال عبد الناصر لأول مرّة ، ثم في ٢٠ يونيو ، وبينما اعلنت الجمهورية ، عُيّن جمال نائباً لرئيس الوزراء ووزيراً للداخلية . وفي الوقت نفسه ، أُسندت كل من القيادة العامة للقوّات المسلحة ووزارة الحربية ووزارة الارشاد القومي الى ثلاثة من اصدقاء جمال الذي اصبح بذلك يشرف على الجيش والبوليس والاعلام ، الى جانب مجلس الوزراء الذي يرأسه محمّد نجيب .

وقبل ذلك بيومين ، كانت الاضواء قد تسلّطت على جمال عبد الناصر ، على اثر بعض التصريحات المختلفة التي ادلى بها . فكان ، مثلاً ، قد اعرب عن ارتياحه الى أن ثورة ٢٣ يوليو ظلّت ثورة بيضاء كما انه كان قد ركّز بشدّة على ضرورة وأهميّة نشر الوعي بين الجماهير بقوله :

« إن من اهداف « هيئة التحرير » أن تحقق توحيد جميع القوى الشعبية وأن تعيد بناء المجتمع بواسطة عمل الافراد الذين يشكّلونه ، وأن تزيل الفوارق بين الطبقات بواسطة اجراء تقارب بين مختلف العناصر الوطنية . »

ولكن ، لم تكن تصريحات جمال عبد الناصر خالية تماماً من الانذارات ... فقد هدّد باتخاذ اجراءات حاسمة وبتوقيع اشدّ العقوبات ضد اعداء الوطن الذين بدأوا يرفعون رأسهم ، وكان يقصد بذلك كبار الملاّك ، والسياسيّين القدامى والاخوان المتطرّفين الخ .. ذلك أن الوحدة الوطنية كانت من اهمّ متطلّبات ذلك الصيف من عام ١٩٥٣ .

٣ ـ بريطانيا تستسلم

بلغت الازمة في العلاقات المصرية البريطانية ذروتها ... وفجأة، بعد خمسة عشر يوماً من المباحثات بشأن جلاء القوّات البريطانية عن مصر ، قطع الوفد المصري (المؤلّف من محمّد نجيب وجمال عبد الناصر وآخرين) المحادثات، في الوقت الذي عاد فيه نشاط الفدائيين يزداد وهجماتهم ضد العدو تتضاعف . ولعلّ الانكليز قد تذكروا ذلك الانذار الذي كان قد صدر عن جمال عبد الناصر في شهر نوفمبر عام ١٩٥٢ ، في الوقت الذي لم يكن للانكليز فيه اقلّ شكّ بالنسبة لدوره الحقيقي . ففي ذلك التصريح ، كان جمال عبد الناصر قد انذر بأنه اذا رفض الانكليز أن يرحلوا عن مصر « فسنحاربهم » ... واضاف جمال يقول إن هذه الحرب لن تكون حرباً تقليدية أو رسمية بل إنها سوف تأخذ لنفسها شكل المسيرة الكبرى الى الموت ، يشترك فيها الشعب كله « وليحدث ما قد يحدث ... فعلينا وعلى اعدائنا » ...

وفي هذا الجوّ المتوتّر ، وفد الى القاهرة ضيف صديق ، يتمتع بالحظوة ونفوذ السنّ المتقدّمة والخبرة الطويلة في الصمود امام المستعمر ، وكان قد استطاع أن ينتزع وطنه من براثن الانجليز ، ويحرر شعبه الذي يبلغ تعداده اكثر من عشرين ضعف سكان مصر : جواهر لال نهرو.

وجلس نهرو مع جمال وزملائه يحدثهم عن « دوليّة البلدان المستعبدة » ... وكان نهرو يهوى التحدّث عن الولايات المتّحدة والاتحاد السوفياتي ، « العملاقين » اللذين بلغت قدرة كل منهما المدمّرة درجة العملقة أيضاً ... امّا بالنسبة لعنصر « الرّوح » الذي تكلّم عنه الفيلسوف الفرنسي هنري بيرجسون ، فان نهرو لم يكن يؤمن بتوفّره لدى العملاقين « اللذين يحاول

كل منهما أن يجتذب نحوه البلدان الافريقية الآسيوية ، التي تمثّل حضارات عريقة سقطت منذ اكثر من اربعة قرون تحت برائن الاستعمار ... إن هذه البلدان قد بدأت تتحرَّر، ولكنَّها الآن في اشدّ الحاجة الى المعونة اللازمة لدفع عجلة تنميتها التي توقفت في الماضي بسبب الغزاة .»

وقد اتفق جمال ونهرو على أن مثل هذه المعونة «ليست إحساناً» ، بل هي في الواقع حقّ وتعويض للاضرار التي لحقت بتلك الدول ، كما انها في الوقت نفسه بمثابة تأمين للمستقبل بالنسبة للدول الاستعمارية . كان نهرو يقول :

«إن عدم الانحياز ضروري ، ولكنه يحتوي على خطر ، لذلك لا بدّ لنا أن نحول دون اقامته في شكل معسكر ثالث ، بل يتعيَّن على كل بلد أن يعمل في نطاقه ولحسابه ، تحت لواء المبادىء العادلة» .

وما من شك في أن حماس نهرو في خدمة وطنه ، ومبادئه النبيلة قد اثَّر على جمال عبد الناصر وعزَّز من تمسُّكه بالقيم الانسانية والروحيَّة . ثم إن الاقتصاد المزدوج ذا القطاعين الرأسمالي والاشتراكي الذي تكلَّم عنه الزعيم الهندي ، اثار اعجاب جمال وزملائه الذين درسوا بعناية وعمق جميع الوثائق التي مدَّهم بها الهند فيما بعد ، والخاصة بمختلف قطاعات التنمية بما في ذلك التصنيع والتنظيم العمَّالي وتوزيع الأراضي والتعليم الخ ...

غادر نهرو القاهرة ... وكانت زيارته بشرى خير . فبعد مرور ايام قليلة أعلن الانكليز عن قبولهم سحب قوّاتهم من الأراضي المصرية سحباً تاماً على مدى عشرين شهراً . وفي الليلة نفسها التي وقَّع فيها جمال عبد الناصر اتفاقية الجلاء ، اذاع بالراديو كلمة الى الشعب المصري ، جاء فيها :

«ايها المواطنون ...

إن مرحلة من كفاحنا قد انتهت ، ومرحلة جديدة توشك أن تبدأ ...

هاتوا ايديكم وخذوا ايدينا ، وتعالوا نبن وطننا من جديد ، بالحب والتسامح والفهم المتبادل ...

اللهم اعطنا المعرفة الحقّة ، كي لا يستخفنا النصر وتدور رؤوسنا غروراً من نشوته ...

اللهم اعطنا الامل الذي يجعلنا نحلم بما سوف نحققه في الغد ، اكثر مما يجعلنا نفاخر بما حققناه في الأمس واليوم ...

اللهم اعطنا الشجاعة ، لنستطيع أن نتحمل المسئوليات التي لا بد أن نتحملها ، فلا نستهين ولا نهرب منها ...

اللهم اعطنا القدرة على أن نواجه انفسنا ، ونتقبّل أن يواجهنا الآخرون بالحق والعدل ...

اللهم اعطنا القوة ، لندرك ان الخائفين لا يصنعون الحرية ، والضعفاء لا يخلقون الكرامة ، والمترددين لن تقوى ايديهم المرتعشة على البناء ... »

الفصل الرابع

جمال في الحكم

« المترددون لن تقوى ايديهم المرتعشة على البناء » ... عبارة تطرح مشكلة الساعة الملحّة بالنسبة لجمال، بطريقة مؤثرة، وهي التخلص من بعض العقبات التي تحول بينه وبين المضي في العمل الثوري من اجل الشعب والوطن ... كان هناك أولاً محمد نجيب ، الاكبر منه سناً والذي كان بمثابة رمز للوحدة بين مصر والسودان ، محمد نجيب الرجل المحبوب الودود ، الملاطف والمجامل الذي كان يريد ارضاء جميع الناس ... الضباط الاحرار منهم والمحافظين ، الفلاحين والاقطاعيين ، السياسيين القدامى والسودانيين والعمال والاخوان ... فباسلوبه المصري الصميم ، كان بودّه أن يرضي الجميع ، وكانت النتيجة أن الجميع كانوا يصفقون له ... وينتقدون الضباط الاحرار ... والمقصود بكلمة « الجميع » الوفديون السابقون ، والباشوات ، والاخوان المسلمون وكذلك الشيوعيون الذين وجدوا انصاراً لهم في مجلس قيادة الثورة ، كان اهمهم الضابط الفوار خالد محي الدين . وعندما قبل محمد نجيب بملاطفة أن يستقيل في فبراير عام ١٩٥٤ ، جمع خالد محي الدين بعض اصدقائه من الضباط والجنود واحتجّوا على الاستقالة ... وفي الحال ، ذهب اليهم

جمال عبد الناصر ، بمفرده ، ليناقشهم في الامر ، « رجلا لرجل » ... ولم يستطع جمال أن يقنعهم ، فاستسلم ووعد بأن يقترح على مجلس قيادة الثورة الاحتفاظ بمحمد نجيب وتعيين خالد محي الدين رئيساً للوزارة ... وقبل المجلس الإقتراح الاول ولكنه رفض التوصية الثانية ... ورشح المجلس جمال باغلبية ساحقة لمنصب رئيس الوزراء[1] ...

وما ان تسلّم جمال مهام منصبه الجديد ، حتى بدأ يواجه المعارضة بحركة نقل واسعة النطاق بين ضباط الجيش وبحركة اعتقالات شملت العناصر الاشتراكية والشيوعية ... وفي وسط هذا الصراع القاسي بين رئيس الوزارة الجديد واولئك الذين يطالبون بانتخابات برلمانية في المدى القريب ، ظهرت فجأة اشاعات غريبة تؤكد بأن جمال بدأ يتراجع ، وأنه اوشك ان ينضم للمعارضة ... ورُفعت الرقابة بينما قرر مجلس قيادة الثورة – بناء على طلب جمال – أن يصفّي نفسه في شهر يوليو المقبل ... الامر الذي اثار اعجاب جميع انصار الاحزاب المنحلة بما في ذلك الحزب الشيوعي وتنظيم الاخوان ...

ولكن لم يكن ذلك هو رد الفعل الوحيد الذي سجّله الرأي العام على اثر القرار الخطير لمجلس الثورة ... فقد ثارت النقابات المصرية ودعت « هيئة التحرير » جميع افراد الشعب الى تنظيم مظاهرة ضخمة للاحتجاج على اعادة الاحزاب السياسية ولمهاجمة الباشوات والوفد والاخوان ... وخرجت المظاهرات الضخمة تطالب ، بحماس يستحيل وصفه ، باستمرار الجيش في الحكم ... وقد انضم إلى المتظاهرين رجال الشرطة والجيش ، وتعالت الهتافات من كل مكان تنادي بابقاء جمال وزملائه ، ثم جاء الاضراب العام يساند هذه المطالب ... وبرغم ابقائه على رأس الدولة ، سلّم محمد

---

(١) لقي ذلك الصاغ المتحمس ، الذي لم يتجاوز في ذلك الوقت الثلاثين من عمره ، عقاباً غريباً جداً من قبل جمال الذي طلب منه ان يقوم برحلة خارج القطر المصري لمدة سنتين على حساب الدولة « حتى يحك دماغه بدماغ غيره ! » .

نجيب في ١٧ ابريل ، منصبي رئاسة الوزارة ورئاسة مجلس الثورة إلى جمال عبد الناصر . وهذا هو السبب الذي دعا جمال لأن يوقع بنفسه اتفاقية الجلاء التي ابرمت مع بريطانيا والتي أدّت إلى شنّ حملة جديدة ضد الحكومة (يمكن أن توصف بالهجوم المضاد) من جانب الشيوعيين والاخوان ، استناداً إلى أن بعض النصوص الثانوية الواردة في الاتفاقية كانت في نظرهم لصالح الانجليز . وشيئاً فشيئاً ، اصبح جمال ، الذي اتهمه الاخوان بالاطماع الدكتاتورية ، اصبح بالنسبة للاخوان « العدو رقم ١ الذي لا بد من القضاء عليه » . وفي شهر اكتوبر ، حين كان جمال يخاطب الجماهير في ميدان المنشيّة بالاسكندرية ، أُطلقت عليه ثماني رصاصات لم تصبه واحدة منها .:. وظل جمال واقفاً امام الميكرفون دون أن يتحرك أو يهتز ... وبعد لحظات رهيبة من الصمت ، صرخ جمال :

– الزموا اماكنكم ! ... لا تتحركوا ... فاذا قُتلت، فستظل الثورة ، لأن كل فرد منكم هو جمال عبد الناصر !

وواصل جمال خطابه وكأن لم يحدث شيء ! ...

واعترف الارهابي الذي اطلق الرصاص على جمال ، بأنه كان مجرد اداة تنفيذ في ايدي الاخوان . وعلى الفور ، تم القبض على ٤٠٠٠ منهم ، كما تم تصفية التنظيم كله . وقد تبيّن من خلال التحقيق أن الاخوان كانوا يضعون جميع آمالهم في شخص محمد نجيب الذي كان ينقصه « الحذر » تجاههم ، والذي اضطر الى أن يستقيل في شهر نوفمبر ، فاسندت رئاسة الدولة إلى مجلس الثورة ، بصفة جماعية ، ولما كان جمال هو رئيس مجلس الثورة ، فقد أصبح عملياً على رأس الدولة .

كانت هناك ، في ذلك الوقت ، مشكلة هامة تشغل جمال عبد الناصر ... لم تكن تلك المشكلة هي مشكلة فلسطين ، بل مشكلة الوضع الاقتصادي للبلد، ولم يكن جمال اخصائياً في المسائل الاقتصادية . وبطبيعة الحال ، كان جمال يعرف كالجميع حسنات حرّية التجارة وسيئاتها على السواء ،

من الناحية النظرية ... ولكن ، لم تكن المسألة مسألة نظريات . كان المطلوب هو مواجهة المشكلة على اساس العوامل المتعددة التي تشكل الواقع المصري ... وأخذ جمال يستعلم ويتعلّم ، ويستشير اخصائيين وخبراء أجانب . كانت هناك امامه قضية هامة وعاجلة تفرض نفسها دون غيرها من القضايا ، وهي حتميّة تحقيق التنمية الصناعية في بلد عُرف على مر القرون بأنه بلد زراعي صرف ... وكان جمال يعرف بأن الاستعمار لم يستسلم ، وأنه يستبدل اسلحته التقليدية باسلحة من نوع جديد تأخذ لنفسها شكل الاقنعة المختلفة ؛ وهذا الاستعمار الجديد القائم على السيطرة الاقتصادية والمالية — الذي ربما كان ابعد خطورة من الاستعمار التقليدي — استنكره وادانه بشدة بعد ذلك بخمس سنوات ، المفكّر الفرنسي لويس ماسينيون ، الذي قال ، بمناسبة ظهور اتجاه بين الشبان الفرنسيين من انصار السلام يهدف إلى استبدال الخدمة العسكرية بخدمة مدنية :

«إن الخدمة المدنيّة هذه من شأنها أن تصبح اكبر خطراً من الخدمة العسكرية بالنسبة لضمير الشباب ، في حالة استبدال الاستعمار العسكري باستعمار اقتصادي . »

ولكن جمال عبدالناصر كان يعلم أن الاستقلال التام الاقتصادي والمالي لم يكن ممكن التحقيق على الفور . والحقيقة أن الاجراءات التي كانت قد اتخذت لدفع عجلة الانتاج الزراعي والصناعي لم تأت بثمار كثيرة ، برغم المظاهر التي كانت تؤكد عكس ذلك . وكان ذلك يعزى إلى ازدياد السكان الذي واصل تصعيده بسرعة فائقة . كان لا بد اذن من وضع مشروع السدّ العالي الضخم موضع التنفيذ وبأسرع ما يمكن . وهذا السدّ كان من شأنه اولاً أن يضاعف من الرقعة الزراعية للبلاد التي تكوّن مساحة صغيرة جداً بالنسبة للمساحة الكلية للبلد ، وثانياً أن يغذي الصناعة بالقوى الكهربائية الرخيصة واللازمة لتنميتها . ولكن ، ما هي الدولة التي توافق على القيام بهذه العملية الضخمة بكل ما تتطلبه من اموال طائلة وخبراء؟ ليست هي ،

على كل حال ، الاتحاد السوفياتي ، وكان جمال قد كتب في اواخر عام ١٩٥٤ نقداً شديداً للشيوعية نشر كمقدمة لكتاب ضد البولشفية . وفي السنة السابقة كان الشيوعيون المصريون قد طوردوا وحُكموا . اذن فقد اتجه جمال أول ما اتجه ، نحو الغرب ، برغم الانذارات المتعددة التي كانت قد صدرت منذ زمن طويل عن العالم الاسلامي والعالم الغربي نفسه ، بدفع من بعض الكتّاب والمفكرين في بريطانيا وفرنسا والمانيا ، مثل ماسينيون ورينيه جينون [1]. فبسبب عملية الانحطاط التي وجد نفسه مندفعاً في تيارها ، اعطى الغرب اولوية اختياره لبعض العقائد الفكرية الخاطئة ، مثل مذهب العقليين (القائل بكفاية العقل دون الوحي) ، ومذهب العلميّة ، واتخذ بعض المواقف العامة المضرة ازاء متطلبات الحياة ، مثل التظاهر بالحنو ورقة القلب ، والاخلاقية ... وما من شك أن العوامل الصحية للكاثوليكية قد استنكرت بشدة — واحياناً بطريقة سليمة — تلك الاخطاء والانحرافات ، الا انها عجزت عن ازالتها تماماً ، وذلك بسبب عوامل الانحراف التي التحمت ، منذ زمن طويل ، بمختلف العقائد المسيحية . ولو كان العالم الغربي قد كف عن سلوك طريق الخطأ منذ القرن السادس عشر ، لكان قد ادان الاستعمار الذي ليس هو الا مظهراً من مظاهر المادية المتصاعدة للغرب ، تلك المادية التي استطاعت — بقدر كاف من الدفع — أن تنجب ، بطريقة غير متوقعة ، عقيدة كبيرة اتخذت من كرم القلب اساساً لها ، وهي الماركسية .

وكيفما كان الامر ، ففي مستهل عام ١٩٥٥ ، استقبلت القاهرة سفيراً جديداً للولايات المتحدة الامريكية ، وهو شاب مشهور بـ « بتعاطفه مع العرب والاسلام » ... وفي الوقت نفسه ، كان يبدو وكأن التغير قد امتد ليشمل بريطانيا التي اوشكت على اتخاذ موقف ازاء الشعوب الاخرى ،

---

(١) « ازمة العالم المعاصر » الذي نفدت جميع طبعاته التي تعاقبت منذ صدور الكتاب عام ١٩٢٧ حتى اليوم .

لا يقوم بعد على اساس اعتبارها مجرد « شعوب من الملونين » أو شعوب جديرة فقط بمسح احذية الانجليز مقابل حفنة من القروش ... هذا على الأقل ، ما كان يُهمس به ؛ وقرر جمال عبد الناصر أن يقبل فوراً هذه الصورة الجديدة للغرب ، التي رسمتها امامه الكلمات الطيبة ، فطلب من الولايات المتحدة تسليمها الاسلحة التي سبق لها أن وعدت بها « بمجرد توقيع المعاهدة المصرية البريطانية » ... وعلى الفور ، بدأ هؤلاء السادة في وضع الشروط التي كان اهمها دخول مصر في « حلف دفاع مشترك » . ففي شهر يناير عام ١٩٥٥ ، كان قد اقيم حلف موجه ضد الاتحاد السوفياتي ، يضم العراق وتركيا وايران والولايات المتحدة وبريطانيا . وكان ذلك الحلف ، الشهير بـ « حلف بغداد » ، مفتوحاً امام الدول العربية ، ولكنه كان يناقض روح ميثاق الجامعة الذي يرفض فكرة التكتلات ... وقد حاول جمال أن يحمل العراق على الانسحاب من هذا الحلف ، وبذل في هذا الصدد جهوداً كبيرة ولكن دون فائدة ... الا أن جهود جمال لم تكن قد أفلتت من بصر الاتحاد السوفياتي الذي اخذ يتابعها باهتمام متزايد ، حتى استطاع التأكد من أن جمال رجل شريف [1] ... والسوفيات مشهورون باحترامهم وتقديرهم لأهل الفضيلة والامانة والشرف . وقد عرض الاتحاد السوفياتي ، سراً ، أن يزود مصر بالاسلحة التي تسعى للحصول عليها . والسؤال الذي يفرض نفسه في هذه المرحلة ، هو : من الذي ساعد السوفيات على اتخاذ هذه الخطوة الاولى نحو جمال عبد الناصر ؟ والجواب هو بلا ادنى شك : مبادرة امريكا وبريطانيا فيما يتعلق بحلف بغداد ثم تمسك الرئيس المصري بميثاق جامعة الدول العربية ...

---

(١) في كتابه عن جمال (لندن ، ١٩٦٠) يروي يواقيم جوستون أن احد عملاء جهاز المخابرات الامريكي (C. I. A.) ، قال له ، ذات يوم ، وباللغة السوقية الامريكية : « أن مشكلتنا مع جمال هي انه لا عيب فيه ... الأمر الذي يجعل من المستحيل شراءه أو تعرضه للضغط أو للتهديد بالتشهير ، ومن ثم يستحيل الاطاحة به. »

الفصل الخامس

الليلة التي غيرت كل شيء !

١ – الهجوم على غزة

وفي هذه الغضون ، شنت القوات الاسرائيلية غارة مفاجئة على المراكز المصرية في قطاع غزة الآهل بالسكان الفلسطينيين اللاجئين ، وقتلت خمسين شخصاً من عسكريين ومدنيين . وكان جمال قد التزم ، حتى ذلك الوقت ، بمبدأ تخفيض النفقات العسكرية بقدر المستطاع . فقد ادلى في هذا الشأن بالتصريح التالي للكاتب ديزموند ستيوارت :

«كنت مسالماً، حتى بالنسبة لاسرائيل، وذلك برغم التحذيرات التي صدرت عن بعض ضباطنا [1] ... وفي ليلة واحدة ، في ليلة ٢٨ فبراير ١٩٥٥ ، تغير كل شيء ... كان لا بد من وجود السلاح لندافع عن انفسنا ... فقد رأيت اللاجئين ، وأرعبتني فكرة احتمال مشاهدة المصريين وقد اصبحوا في وضع مماثل . »

---

(١) يتعين علينا ان نذكر هنا أن اسرائيل كانت قد استولت بالقوة ، عام ١٩٥٣ ، على ما يزيد عن ٧٠٠٠٠ هكتار من الأراضي العربية ، وأنها بدأت تنفذ مشروعها الخاص بتحويل مياه نهر الاردن لصالحها ، ذلك المشروع الذي كان لا بد له أن يكون موضع اتفاق دولي ، حماية لمصالح البلدان العربية المجاورة . وبرغم الاستفزازات الاسرائيلية، ظل القادة المصريون ، حتى ذلك الحين ، يضعون استمرار الثوره ، وقضية التنمية الاقتصادية ، على رأس قائمة الاولويات الملحة .

وتقدمت مصر بشكوى ضد اسرائيل امام مجلس الامن التابع لمنظمة الامم المتحدة ، الذي اتخذ قرارا جاء فيه « أن لجنة الهدنة المشتركة قد قررت في ٦ مارس ١٩٥٥ أن هجوما مدبراً ومنظما قد وقع بناء على الاوامر الصادرة من السلطات الاسرائيلية ضد القوات النظامية للجيش المصري في غزة » ، ويدين اسرائيل ويطالبها ، من جديـــد « باتخاذ جميع الاجراءات اللازمة لمنع حدوث مثل هذه الاعتداءات » .

وامام اسرائيل المدججة بالسلاح الذي تدفق عليها من الغرب بكميات مفرطة ، وقفت مصر دون سلاح ودون درع تحميها ... وثار الرأي العام ، بينما واصل جمال عبدالناصر جهوده للحصول من الغرب على الاسلحة الموعودة ، ولكن دون ان تأتي هذه الجهود بفائدة ... وفي مارس ، انذرهم جمال : « نظراً لموقفكم ، سأضطر إلى شراء الاسلحة من الشرق » . وازاء هذا الانذار ، ابتسمت الدبلوماسية الاميركية — التي تجيد لعب (البوكر) اجادة تامة ، بينما هي عاجزة عن فهم نفسية الشعوب الاخرى — وقالت باحتقار « إنه يخدعنا ... »

٢ ـ جمال زعيماً عالمياً

وفي غضون ذلك ، دعي جمال عبد الناصر لتمثيل مصر في المؤتمر الافريقي الآسيوي الذي عقد في باندونج بالجمهورية الاندونيسية ، والذي اشترك فيه اقطاب ما يقرب من ٣٠ دولة . وكانت محادثاته مع نهرو — الذي عاد إلى مصر قبل ذلك بشهر واحد — قد شجعته على أن يلبي الدعوة ... وطار إلى باندونج في ١٨ ابريل ، بعد أن شن في اليوم نفسه حملة اعتقالات واسعة النطاق موجهة ضد الشيوعيين المصريين في العاصمة حرصاً منه على الا يبدو اشتراكه في مؤتمر يضم الكثير من الاقطاب الشيوعيين كنوع من التقارب بينه وبين الشيوعية ... ولكن اليسار العربي المتطرف الذي بدا واقعياً آنذاك ، اشاد منذ ذلك اليوم ، بجمال عبد الناصر محييّاً فيه « الوطني ناصر السلام العالمي » بعد أن كان قد اتهمه في الماضي بأنه « فاشستي موالٍ لامريكا » ...

وهناك تغيّر آخر طرأ على الموقف . ففي اسبوع واحد . تحول الرجل الذي كان قد قاد الثورة في مصر ، إلى زعيم دولي ؛ فما من شيء افيد من الاتصالات الشخصية المباشرة ، دون بروتوكول : بين الاقطاب المشتركين في المؤتمر ، والذين كان بينهم رجال يتميزون بشخصية قوية ... كان هناك اقطاب من جميع الاتجاهات السياسية ، فكان بينهم الشيوعيون وكان من بينهم اقطاب موالون للغرب ، وكانوا جميعاً يتسمون برقة الحاشية والاعتدال . وقد اثر جمال تأثيراً قوياً على جميع الوفود المشتركة . كما انه ساهم مساهمة كبيرة في انجاح المؤتمر ، بفضل اشتراكه الفعلي سواء في المناقشات التي دارت على هامش الاجتماعات ، أو داخل لجان المؤتمر المختلفة . وقد انجب مؤتمر باندونج فكرتين اساسيتين . هما فكرة « العالم الثالث » وفكرة « التعايش السلمي » مع الكتلتين، وهما فكرتان اثارتا إهتمام جزء كبير من الرأي العام ، في فرنسا وفي غيرها من البلدان .

٣ ــ جمال : معبود جماهير الأمة العربية

كانت افريقيا وآسيا تبدوان وقد وعتا حقيقتهما وعياً عميقاً . تجاه الكتلتين المتنافستين ؛ وقد ركز مؤتمر باندونج على مبدئين اساسيين من مباديء الاخلاق الدولية .. ولكن الافكار الجميلة تشحب في القاهرة وراء الحقائق الخشنة التي لا بد من مواجهتها : فان الاعتداءات الاسرائيلية كانت تتكرر ... وكانت مصر تخشى وقوع اعتداء جديد من نوع الاعتداء الذي وقع في غزة أو ربما يكون اعنف وأوسع منه نطاقاً : بعد أن تكون العصابات المتعصبة قد اعدت العدة لارتكابه ... واستلهاماً لمبادىء باندونج . اقترح جمال عبد الناصر أن تسحب كل من مصر وإسرائيل قواتها على بعد كيلو متر واحد : بحيث تشرف الامم المتحدة على هذه المنطقة المنزوعة السلاح .

كان هذا اقتراحاً بسيطاً ومسالماً . ولكن رفضته إسرائيل ... وأمام هذا الرفض وفي تلك الظروف ، لم يستطع جمال الا أن يتسلح بأسرع وقت ممكن ، وان يتسلح بأكثر مما كان يرغب . وعاد يتصل بالولايات المتحدة ويكرر انذاره السابق ... عبثاً . فان الخبراء الامريكان « يعرفون جيداً » أن جمال كان « يخدع » ...

وفي ٢٧ سبتمبر ، إنفجر النبأ كالقنبلة : مصر تشتري اسلحة تشيكية ! ... في دمشق ، خرجت الجماهير ترقص في الشوارع ابتهاجاً بالنبأ السعيد ... وفي بضع لحظات ، أصبح جمال عبد الناصر الذي كان يحاربه انصار العروبة في كل مكان ، وبخاصة في سوريا ، أصبح معبود الجماهير العربية التي اخذت تحلم بما سوف يُحقَّق في الغد من آمال ، فرأت الحق والعدل والكرامة وقد عادت تسود من جديد ... واللاجىء العربي وقد استرد ارضه المغتصبة ومحراثه المسلوب ... واللاجئة العربية وقد عادت بصحبة اطفالها ليدفعوا باب دارهم التي تُرد اليهم ... ذلك ان الاسلحة المطلوبة ليست بالصفقة اليسيرة ، بل هي تشمل مئات من الطائرات والدبابات والمصفحات ...

وجعل الدبلوماسيون الاميركيون يعضّون على أصابعهم ؛ ولكن ما عساهم يستطيعون ان يأخذوا على جمال ؟ كان قد انذرهم من قبل ... انذرهم مراراً وتكراراً ، على مر الاسابيع والاشهر ، بكل صراحة ... انذرهم بل وتوسل اليهم بالحاح ، ولكنهم لم يصدقوه . أما الآن فقد فات الآوان !

ومن وجهة النظر التجارية ، كانت صفقة الإسلحة صفقة هائلة : فان مصر سوف تسدد ثمن الاسلحة بكميات معينة من الارز والقطن ، مما اتاح لها أن تحصل على كميات ضخمة من الاسلحة باثمان رخيصة ... وعلى الفور ، التفتت سوريا نحو مصر باجماع شعبي لم يسبق له مثيل ، إجماع كبار الملاّك والفلاحين والضباط والعمال والمثقفين ... وفي اكتوبر عام ١٩٥٥ ، وقّعت الدولتان

معاهدة عسكرية جاء يعززها في الشهر التالي قيام قيادة موحدة. وقد اعلن جمال «أن هاتين الدولتين، اللتين استطاعتا في الماضي، وبفضل وحدتهما، أن تنقذا العالم العربي من التتار والصليبيين، تستطيعان اليوم أن تحمياه من الصهيونية»... وواصلت الدولتان مباحثاتهما من اجل تحقيق وحدة أو إتحاد فيدرالي، تظل ابوابه مفتوحة للبلدان العربية الاخرى.

لذلك، فان إعلان استقلال السودان في يناير ١٩٥٦ وانضمامها فوراً إلى الجامعة العربية لم يعتبر «نكسة». ذلك ان فكرة الوحدة شقّت طريقها في البلدان العربية بسرعة وبقوة. وفي ١٨ يونيو، رفرف العلم المصري على منطقة قناة السويس بعد انسحاب آخر جندي بريطاني، وبعد ذلك بخمسة ايام، انتخب جمال عبد الناصر رئيساً للجمهورية باغلبية ساحقة، وكان جمال قد علّق آماله على أن يرى غيره يحتل هذا المنصب [١]. كانت كل الدلائل تشير إلى أن جمال عبد الناصر قد وصل إلى قمة الحظوة والسلطة والنفوذ... وفجأة، وبعد انتخابه للرئاسة ببضعة اسابيع، سحبت الولايات المتحدة بوحشية عرضها الخاص بتمويل مشروع السد العالي، وذلك على اثر مباحثات طويلة اوشكت أن تكلل بالنجاح... وبلغ من وقاحة الزعماء الامريكيين أنهم اذاعوا قرارهم على الصحفيين قبل أن يبلغوه رسمياً لجمال عبد الناصر!... وعلى الفور، سحبت بريطانيا عرضها وسحب البنك الدولي تأييده للمشروع...

هل كانوا يعتقدون أنهم اذا تصرفوا هذا التصرف، أمكنهم إسقاط جمال؟ هل كانوا يريدون إزالة اعتبار الاتحاد السوفياتي في نظر دول عدم

---

(١) لطفي السيد الذي يبلغ من العمر ما يزيد عن ثمانين سنة. وكان جمال قد استطاع أن يقنع مجلس الثورة – الذي كان قد رشحه هو لرئاسة الجمهورية – بالعدول عن هذا القرار في صالح ذلك المناضل الوطني الذي كان يعد من أقرب اصدقاء سعد زغلول ومصطفى كامل. إلا أن لطفي السيد رفض أن يقبل تعيينه، بل تمكن من أن يقنع مجلس الثورة بان جمال هو الرجل الوحيد الذي يمكن ترشيحه للرئاسة.

الانحياز . على اعتبار أن الاتحاد السوفياتي – بناء على معلومات تلقّوها من مصادر موثوق بها – سوف يعتذر عن تمويل المشروع . مع الاعلان في الوقت نفسه . عن رغبته في تقديم العون إلى مصر ؟ ... مهما كان الامر . فان جمال عبد الناصر ظل يدرس الموضوع في منزله ثلاثة ايام . ولم يكن معه الا بعض المساعدين ... وفي ٢٢ يوليو . خرج جمال وقد تبلور الحل في ذهنه ... وفي خطاب القاه في ذلك اليوم ، لمّح إلى الموضوع بانذار إلى الامريكيين :

– سنبني السد ... وموتوا بغيظكم !

وكان جمال قد استدعى بعض كبار رجال القانون (ومنهم السيد عبد الحميد بدوي ، نائب رئيس محكمة العدل الدولية في لاهاي) ، ووجه اليهم سؤالاً بسيطاً :

– اذا قمنا بتأميم القناة ، فهل يعتبر ذلك عملاً شرعياً ، من وجهة النظر القانونية ؟

وكانت الاجابة بالاجماع :

– أجل ! ... (١)

٤ – تأميم قناة السويس

وفي خطاب القاه جمال في الاسكندرية ، يوم ٢٦ يوليو ١٩٥٦ ، وبلهجة مرِحة طريفة ، أخذ يروي للجماهير مجادلاته مع الدبلوماسيين الامريكيين ... وقد استخدم في شرحه ، ولأول مرة ، اسلوب اللغة العامية العذبة الذي لا بد أن يتلذذ به المستمع ... وكان يبدو الحديث وكأنه يتعلق بمسألة خاصة أو مسألة عائلية ... ثم نظر إلى ساعته ، وبضحكة صادقة من القلب ، اعلن للجماهير العربية أن القناة قدعادت بالفعل إلى اصحابها الشرعيين !

(١) وليس هناك اليوم من يخطئهم في ذلك ، فان شركة القناة كانت محض مصرية .

ثم استطرد يقول :

« إن دخل القناة ١٠٠ مليون دولار ، تأخذ منها مصر ٣ ملايين ... اننا لن نكرر الماضي ابداً ... وسنأخذ نحن الـ ١٠٠ مليون لنبني بها السد العالي ... ان العالم العربي له امكانيات ضخمة ، ونقطة ضعفه الوحيدة هي أنه لا يعي قوته . »

واقترحت « الدول الغربية » على مصر أن تقيم ، بالتعاون مع ٢٤ دولة اخرى ، « هيئة دولية » تكون مهمتها إدارة قناة السويس ... واحتجت مصر امام هذه الاهانة الوقحة لسيادتها ، واستنكرت في الوقت نفسه تجميد الارصدة المصرية في البنوك الغربية ، وإعلان تعبئة الاساطيل والطائرات الرامية إلى تهديدها ... وقد اعلنت مصر أن الغرب ، بخرقه لميثاق الامم المتحدة ، يهدد السلام العالمي ... واقترحت الدعوة إلى عقد مؤتمر من **جميع الدول** التي تستخدم قناة السويس، **لا من عدد منها** يختاره الغرب، وذلك لاعادة النظر في اتفاقية عام ١٨٨٨ بحيث تكفل حرية الملاحة في القناة .

وبدلاً من الموافقة على هذا الاقتراح المضاد ، المعقول والبناء ، دعا الخصوم إلى مؤتمرهم الخاص في لندن ، الذي اقترح انشاء هيئة دولية لادارة قناة السويس ، تتنازل بنسبة معينة من الارباح لمصر ! ثم جاء إلى القاهرة احد الوزراء الاستراليين ، يقول لجمال إن المسألة ليست مسألة اثبات ملكية مصر للقناة ، وكان هذا امراً مسلماً به ، ولكن المسألة هي وجوب تأجيره وفقاً للشروط الموضوعة ...

وقد ظن الابطال المساكين لهذه السياسة الحمقاء أنه كان بوسعهم أن ينتصروا اذا استدعوا الملاحين البريطانيين والفرنسيين البالغ عددهم حوالي مئتين ، والذين يقومون بالعمل الدقيق الذي يتطلبه ارشاد السفن عبر القناة ... وأمام هذا التحدي قام المرشدون الآخرون الذين مكثوا في مواقعهم ، وعلى رأسهم محمود يونس ، بارشاد جميع السفن على اكمل وجه ، ودون أن

يقع حادث واحد . وقد اضطر هؤلاء المرشدون أن يعملوا دون توقف ليلاً ونهاراً ، وكانوا احياناً لا ينامون اكثر من ساعتين في اليوم ! ... وبدأت الطلبات تتدفق من جميع بلدان العالم، من مرشدين يرغبون في الانضمام إلى مركز التدريب الخاص بالهيئة المصرية . وبعون الله ، سارت الامور على وجه مرضٍ .

وفي هذه الأثناء ، كانت مصر تمضي بالصبر والمرونة ، في المناقشات التي دارت في مجلس الامن . وتقرر انهاء النزاع بابرام إتفاقية جديدة تقوم على اساس حل وسط ، في شهر اكتوبر التالي في جينيف . والحقيقة أن فرنسا وبريطانيا كانتا تريدان مهلة ليتسنى لهما اعداد خطة تدخل عسكري ، في سرّية تامة [1] ... وكان من المتفق عليه أن تكون « حجة » التدخل هذا « اعتداءاسرائيلي وقائي ضد مصر » . ولم تكن امريكا تشارك حلفاءها ، في ذلك الوقت ، بالنسبة لتدخل عسكري ، فإن الوقت لم يكن مواتياً لمثل هذا التدخل ، في الوقت الذي كانت فيه امريكا تدين وتستنكر « الاعتداء » الروسي في المجر . وبرغم الالحاح المتواصل لفرنسا وبريطانيا ، لم يتراجع ايزنهاور وظل متمسكاً بمبدأ عدم التدخل العسكري . ولم يكن من المعقول امام الرأي العام العالمي ، أن تستنكر الولايات المتحدة التدخل السوفياتي المسلّح في المجر ، وفي الوقت نفسه ، تؤيد التدخل العسكري الفرنسي البريطاني في مصر !

وفي نهاية شهر اكتوبر ، اعتقدت إسرائيل أن الولايات المتحدة مشغولة اكثر مما ينبغي بأحداث المجر . فاقترحت على فرنسا وبريطانيا تنفيذ الخطة على الفور ، على أن تشن هي حربها الخاطفة المفاجئة ، ثم تتدخل الدولتان الغربيتان عسكرياً « دفاعاً عن الملاحة في قناة السويس » ... وكان الجميع يظنون أن امريكا ، وقد وضعت امام الامر الواقع ، لا بد ان تنحني ...

(١) لم يكن احد يعلم بالخطة باستثناء الملكة اليزابيث ، ورئيس الجمهورية للفرنسية وبعض الوزراء وكبار ضباط البحرية والجيش في فرنسا وبريطانيا .

الفصل السادس

من العدوان الثلاثي الى الوحدة مع سوريا

١ ـ حرب السويس

شنّت اسرائيل عدوانها على مصر ... وكان من المتفق عليه سرّاً أن يوجّه إنذار اليها والى مصر ، من جانب فرنسا وبريطانيا ، بعد أن تكون القوّات الاسرائيلية قد حققت من التقدّم ما يكفي لتنفيذ الخطة ... وكان من المفروض أن يكون وقف اطلاق النار في صالح الغرب ، الى ابعد الحدود .

وبعد شنّ العدوان ببضع دقائق ، قدّم وزير خارجية بريطانيا استقالته مشمئزاً من تصرّفات حكومته ... وفي تمام الساعة الخامسة مساء بتوقيت واشنطون ، علم ايزنهاور بذهول كبير نبأ توجيه انذار مشترك فرنسي بريطاني الى كل من مصر واسرائيل ، ذلك الانذار الذي دعا كلاّ من البلدين الى سحب قواتهما ١٦ كيلومتراً على جانبي قناة السويس ، ليمكن انزال قوّات فرنسية بريطانية في بور سعيد والاسماعيلية والسويس ، والاّ

ففي ظرف ١٢ ساعة ، سوف يتّم احتلال هذه المدن الثلاث بالقوة » ...

وصرخ الرئيس الامريكي :

ـ انها لضربة مباشرة في الوجه !

ورد وزير خارجيته ، جون فوستّر دالاس :

ـ يا للخيانة العظمى ! كلّ الكلام الذي قاله لي إيدن وموليه لم يكن الاّ اكاذيب في اكاذيب ! لا يمكننا أن نثق فيهم بعد اليوم والى الابد !

ويمكن للمرء أن يدرك مدى غضبهما ، اذا أخذ في الاعتبار عاملاً هاماً ، وهو الانتخابات التي أصبحت على الأبواب في ذلك الوقت ... في الوقت الذي كان « حلفاء » امريكا يتصرفون فيه بصدد هذه الأمور الخطيرة دون استشارتّها ... فكان لابد من تبرير الظواهر ... كان لابدّ من معاقبة فرنسا وبريطانيا بالحيلولة دون تحقيق غرضهما ، وهو احتلال مصر بواسطة القوّة الضاربة الرهيبة الفرنسية البريطانية[1] التي حشدتّها الدولتان في السرية التامة ، ثم الاطاحة بالنظام القائم في القاهرة . وكانت اجهزة الاستخبارات المختلفة متفقة على أن لا بد للانذار الفرنسي البريطاني من أن يؤدي الى عصيان شعبي موجه ضد عبد الناصر ... الاّ أن الحقائق اثبتت عكس ذلك ، فإن الانذار الثنائي قد عزّز من وحدة الشعب كله الذي وقف صامداً وراء زعيمه .

وفي مجلس الأمن ، اضطرت فرنسا وبريطانيا للجوء الى استخدام حق الفيتو للحيلولة دون موافقة المجلس على مشروعيْ قرارين ، يدين كل منهما العدوان ... وكان احد القرارين قد تقدّمت به امريكا . اما الآخر ، فكان من اقتراح الاتحاد السوفياتي ... وزالت حظوة الدولتين !

وفي هذه الاثناء ، كان العدوان يواصل ضرباته على مصر ، دون رحمة تجاه المدنيين الذين انهالت عليهم القنابـــل ... والمنشورات . وقد ورد في

---

(١) التي استعملت عدة قواعد ، بينها قبرص ، لاسطولها البحري وطيرانها ومظلييها الخ .

واحد من هذه المنشورات ، اثار ضجة كبرى في البرلمان البريطاني ، عبارات تهدد الشعب ولا سيما سكان القرى الصغيرة ، بمذابح رهيبة. وقد جاء فيه :

« يتحتم علينا أن نقصفكم بالقنابل ، اينما كنتم ... ففكروا في قراكم التي سوف تدمر ... وفي اطفالكم ، ونسائكم ، وشيوخكم الذين سوف يفرون من مساكنهم الملتهبة ، تاركين وراءهم كل ما يمتلكونه ... لقد ارتكبتم خطأ وسوف تدفعون ثمنه غاليا : وضعتم ثقتكم في جمال عبد الناصر ! »

وجاء رد جمال عبد الناصر ، الذي كان له صدى بعيد المدى ، والذي اثار اعجاب اعظم اربع دول في الشرق الاقصى وهي الهند ، والصين ، واندونيسيا واليابان :

« لن نستسلم امام المعتدين ... وانا اعاهد الشعب أننا سأقاتل معه ... لن تسلم مدن القناة دون معارك ... وجميع دول العالم الصديقة سوف تساندنا ... لقد صدرت الاوامر بتوزيع السلاح على الشعب ... فبفضل وعيه واستعداده للاستشهاد ، ينتصر الشعب دائما على المعتدين مهما بلغ تفوقهم عدداً وعدة . »

ولكن أول خصم كان على جمال ان يواجهه هو هيئة اركان حربه التي كانت تعارض بانسحاب القوات المصرية من سيناء . وكان جمال يؤيد فكرة الانسحاب ، حتى لا يجد الجيش المصري نفسه معزولاً بين الاسرائيليين من جانب والقوات الفرنسية البريطانية من الجانب الآخر ... وامام تمسك هيئة اركان الحرب برأيها في عدم الانسحاب ، قال جمال :

– سأخرج لمدة نصف ساعة ، فأرجوا أن تعيدوا النظر في الامر .

واذا قررتم عدم الانسحاب ، فسأضطر إلى التنحي ... »

وعاد جمال ، وسأل اعضاء هيئة اركان الحرب عن قرارهم الاخير ، فقالوا :

– انّا ما زلنا نعارض فكرة الانسحاب ، ولكنك انت زعيمنا ، فليكن ما تقرره انت .

ثم اصدر جمال تعليماته بتحمل القصف بعزم واصرار . وكانت بعض المراكز تتعرض للقصف المتواصل ، كل ربع ساعة بلا انقطاع . وفي منطقة الوجه البحري ، وزعت الاسلحة على جميع افراد الشعب . ثم اقترحت الدول العربية الاخرى دخول الحرب على الفور ، فرد جمال بثبات جأش رائع :

– لا ! دعوني افعل ... لا حرب !

واذا تبنى جمال عبد الناصر اسلوب الدفاع ، في الميدان العسكري ، فقد تبنى اسلوب الهجوم في المجال الدبلوماسي ... واستطاع بذلك أن يصون السلام العالمي . وفي الامم المتحدة ، حصل قرار امريكي ، في اول نوفمبر ١٩٥٦ ، على اغلبية ٦٤ صوتاً مقابل ٥ اصوات ... ويمكن تلخيص مضمون القرار فيما يلي :

« إن اسرائيل قد خرقت اتفاقية الهدنة ، وارتكبت كل من فرنسا وبريطانيا عدواناً صريحاً ... وإن مجلس الامن يطالب بوقف اطلاق النار فورا ، وبانسحاب القوات المعتدية فيما وراء خطوط الهدنة . »

وبعد ذلك بثلاثة ايام ، وبناء على فكرة سابقة لجمال عبد الناصر ، تشكلت قوة الطوارىء الدولية التابعة لمنظمة الامم المتحدة . ولكن ذلك كان يتطلب بضعة ايام ؛ وقد انتهز المعتدون هذه المهلة ، ليمضوا في قصف القاهرة ، ومنطقة الجيزة ، والاسكندرية ومنطقة القناة حيث انزلت قوات المظلات في ٥ و ٦ نوفمبر ، واستطاعت بصعوبة وبعد معارك دامية ، خصوصاً في بور سعيد حيث دافع الشعب عن مدينته ببسالة (على عكس تقديرات « الخبراء » الغربيين) ، أن تحتل المنطقة ... وفي مساء ٥ نوفمبر ، بعث الاتحاد السوفياتي بانذار إلى كل من فرنسا وبريطانيا واسرائيل ، يهدد

فيه بضرب لندن بالصواريخ ، ويشكك بشرعية وجود اسرائيل بالذات ...
وكانت واشنطن قد بعثت بالبرقية التالية للحكومة البريطانية :

«اذا تدخل المسلمون في الاتحاد السوفياتي بارسال المتطوعين المسلحين (وكانوا جميعاً على أهبة الاستعداد) الى مصر ، فلن نتدخل بصفة آلية ... »

وفي الوقت نفسه ، كانت المملكة العربية السعودية وسوريا تقطعان البترول عن المعتدين ... وتعرّض الجنيه الاسترليني لهجوم عنيف من جانب بعض الاحتكارات المالية الضخمة في الولايات المتحدة ... وفي ٧ نوفمبر ، وجهت الامم المتحدة نداء جديداً ، تشير فيه الى قرارها السابق بالنسبة لوقف اطلاق النار وانسحاب القوات المعتدية ، وتضيف بأن بريطانيا قد خرقت ، للمرة الرابعة ، اتفاقية عام ١٨٨٨ الخاصّة بقناة السويس ... واخيراً ، علمت لندن ، بذهول ، أن الهند كانت تفكر في الانسحاب من الكومونولث ...
وخضع المعتدون ، واستطاع جمال أن يحتفل بعيد النصر في ٢٣ ديسمبر .

٢ ـ نتائج « حملة السويس »

هذا الانتصار الذي أحرزه الضمير العالمي ، وهذا الدليل على فعالية ممكنة للامم المتحدة ، عادا بمكاسب كبيرة على مصر ، كما انهما أطاحا بمكانة فرنسا وبريطانيا كدولتين كبيرتين . كان الاستعمار الفرنسي قد رفع القناع ، وكشف عن وجهه الحقيقي العنصري ، والمناهض للعرب ... فباستثناء حفنة من الضمائر الكاثوليكية الكبيرة وبعض الافراد المستنيرين ، وباستثناء الشيوعيين ، لم يُسمع في فرنسا كلها صوت واحد يرتفع دفاعاً عن تلك الدولة الصغيرة المعتدى عليها بغدر ، بل كانت فرنسا مسرحاً لحملة اعلامية ضخمة ومثيرة ، تحاول أن تخدع جزءاً كبيرا من الرأي العام

الفرنسي ... وما من شك أن هذه الحملة سوف تواصل جهودها في السنوات القادمة . واخيراً ، وبالنسبة لفرنسا ، كانت « حملة السويس » بمثابة اعلان لعودة الجنرال ديغول إلى الحكم .

اما الاتحاد السوفياتي ، الذي كان بتدخله عاملاً حاسماً بالتأكيد ، فقد كسب المزيد من الحظوة ؛ واما امريكا فسرعان ما فقدت حظوتها باطلاقها « مشروع ايزنهاور » ، الذي كان يهدف الى مد النفوذ الامريكي الى منطقة الشرق الاوسط كلها ، بما كان يتضمنه من النصوص التي تكفل للبلدان العربية التي تبدي الرغبة بذلك ، جميع المساعدات المادية الامريكية . كما تضمن لرئيس الولايات المتحدة الامريكية حق التدخـــل العسكري في الشرق الاوسط بحرية تامة ، دون استشارة اية جهة من الجهات ، وذلك في حالة « اعتداء سوفياتي » ...

وسارع جمال عبد الناصر ، الذي كان قد اجتمع في القاهرة بالرئيس السوري شكري القوتلي ، سارع يعترض ازاء هذه الحملة الغريبة ... لماذا « سوفياتي » فقط ؟ ... إن روسيا لم ترتكب قط ايّ عدوان على اي بلد عربي ، بينما تاريخ اسرائيل ، وفرنسا وبريطانيا ، حافل بالاعتداءات المتكررة على العرب ... فلماذا لم يذكرهم « مشروع ايزنهاور » .. ؟

وعليه ، فان هذا الاسلوب الامريكي في التدخل ، الذي يحمل طابع العـــداوة للشيوعية من « صنع اميركـــا » ، أفقد الولايات المتحدة ، في ظرف بضعة اسابيع ، ذلك الرصيد من الود العربي الذي كانت قد حصلت عليه بحكم موقفها ازاء العدوان الثلاثي ...

ومن الناحية المادية ، بلغت خسائر الغرب من جراء حرب السويس ، الوفاً من الملايين من الفرنكات القديمة ... فبالاضافة الى الاموال الفاحشة التي انفقت على تنفيذ خطة العدوان وحدها (بما في ذلك حشد القوات ، وتسليحها ، واستخدام اعداد ضخمة من الطائرات والسفن الحربية ، وصيانة جميع هذه القطع الخ ..) ، ظلت قناة السويس مغلقة لمدة خمسة

اشهر ، وظل البترول مقطوعاً ، ثم وضعت جميع الممتلكات الفرنسية والبريطانية في مصر تحت الحراسة . وكما كتب بيار ديستريا في صحيفة « منبر الامم » (La Tribune des Nations) عام ١٩٦١ : « لا بد يوماً من محاسبة جميع الذين حققوا افلاس بلدنا على الارض الاسلامية ، بسبب عماهم أو بسبب تجاهلهم للتاريخ أو لحياة الشعوب ... إن جميع ممثلينا الدبلوماسيين في مختلف العواصم العربية ، والذين لم يستمع احد إلى نصائحهم ، لاقوا جزاء وضوح رؤيتهم في الاوامر التي صدرت بنقلهم وبتوزيعهم على مختلف السفارات في العالم ، دون اقل مراعاة لهم » ...

ولننتقل الآن إلى المكاسب التي عادت على مصر مباشرة ، نتيجة للعدوان الثلاثي عليها .

لقد استطاع جمال عبد الناصر أن يحقق ، على الفور ، هدفاً كان لا يمكن أن يتحقق قبل مرور سنوات طويلة ، وهو تمصير الاقتصاد الوطني الذي كان يخضع لسيطرة الفرنسيين والانجليز والايطاليين وبعض الاجانب الآخرين الذين كانوا يشرفون على الجزء الاكبر من الصناعة الى جانب قطاع التأمينات والبنوك . وقد نال الفرنسيون اكبر نصيب من الاضرار ، اذ انهم كانوا يمثلون الاغلبية . واذا كان مساهمو شركة القناة المؤممة قد حصلوا على تعويضات معقولة ، فإن الآخرين من الرأسماليين قد تحملوا اضراراً جسيمة ... فبالنسبة لهم ، كان « العهد الذهبي » قد انتهى ، وحان موعد وداع شمس مصر الدافئة وابتسامة ابي الهول الساحرة .

ومن ناحية اخرى ، كان من نتيجة تأميم المؤسسات الاجنبية أن حصلت مصر ، بسرعة ، على التعويضات المستحقة لها للاضرار الخطيرة التي لحقت بها نتيجة للعدوان . وكان يتعين على اصحاب رؤوس الأموال الفرنسية التي خضعت للاجراءات المصرية ، أن يوجهوا بغضبهم نحو المسئولين عن احدى الكوارث الأكبر خطورة منذ عام ١٩٤٤ بالنسبة للدول الغربية المنتفعة ، بدلاً من أن يشكوا من مصيرهم الاسود ، ويلعنوا جمال عبد الناصر .

ما من شك أن الاستيلاء على المؤسسات والمصالح الاجنبية الضخمة كان يطرح مشكلات خطـيرة متعـددة ذات طـابع إداري ولكن تشكيل لجنة عليا للتخطيط في ١٣ يناير ، ثم تخصيص ٢٥٠ مليون جنيه لتنفيذ المشروعات الواردة في الخطة الخمسية للتصنيع ، واخيراً اعادة فتح قناة السويس للملاحة الدولية ، اثبت ذلك كله للعالم اجمع أن مصر كانت جديرة بأن تتغلب على المشاكل التفصيلية ، وأنها مصممة على ان تصبح اكبر دولة صناعية في افريقيا .

٣ – الوحدة مع سوريا

خلال شهري سبتمبر واكتوبر عام ١٩٥٧ ، قامت دلائل تشير الى أن خطر عدوان إسرائيلي جديد كان يهدد سوريا . كما أن بعض الدوائر كانت تخشى وقوع تدخل عسكري تركي ضد سوريا ، وكان الشيوعيون في كل من سوريا والعراق ، يطالبون الاتحاد السوفياتي بالتدخل . وكان لا بد من تعجيل قيام الاتحاد الفيدرالي بين مصر وسوريا ، ثم فتح ابوابه لأية دولة عربية تريد أن تنضم اليه . الا أن « الاتحاد الفيدرالي » المزمع اقامته استبدل في نهاية الامر ، بوحدة تامة بناء على مطالب حزب البعث ذي النفوذ القوي في سوريا . ففي نظر زعيم هذا الحزب ، ميشيل عفلق ، كان لا بد من وحدة ، حيث أن الاتحاد الفيدرالي كان من شأنه – اذا ضم مستقبلا بلداناً عربية اخرى – أن يحافظ ، بطريقة غير مباشرة ، على النظم الرجعية في العالم العربي ...

كان هؤلاء المذهبيون على ثقة من أن الوحدة لابد لها أن تفرض الاشتراكية في كل بلد عربي . وقد ظل جمال صامتاً بعض الوقت ، يفكّر في امر هذه الوحدة السابقة لأوانها .

وفي هذه الغضون ، عقد في القاهرة في اواخر عام ١٩٥٧ ، مؤتمر

افريقي آسيوي كان يضم ٣٤ دولة . وكان من ضمن قراراته ، قرار يدين « الاستعمار الاسرائيلي » ، كما أن المؤتمر اعلن تأييده التام لحقوق اللاجئين العرب . كان ذلك بمثابة نصر جديد لجمال عبد الناصر ، كما كان تشجيعاً له للمضي في جهوده لكسب المزيد من تأييد الرأي العام العالمي لقضية فلسطين ... ولعل هذا النصر دفعه إلى تجاوز تحفظاته تجاه الوحدة الكاملة مع سوريا .

ولكن الاحداث تطورت بسرعة ، وخلق الشيوعيون في سوريا والعراق جو رعب حقيقياً : إن الهجوم هو على وشك الوقوع . وفي فبراير ، أعلنت الوحدة ، وانتخب جمال رئيساً للدولة الجديدة ، الجمهورية العربية المتحدة ذات الاقليمين الشمالي والجنوبي ... وبعد مرور بعض الوقت ، طلبت اليمن أن تنضم الى الوحدة ، على اساس كونفدرالي اكثر مرونة . وكان قبولها يوحي بالعودة الى الفكرة الاساسية الخاصة بالاتحاد الفيدرالي المعمّم . ومن جهة اخرى ، بدأ نفوذ حزب البعث يهبط ، بعد حدوث انشقاق بين زعمائه وبعد أن استقال عدد منهم من المناصب الرفيعة التي كانت قد اسندت اليهم ، وأخذ الحزب ينزلق رويداً رويداً حتى أصبح في المعارضة ؛ ولكن شعبيته كانت تتناقص . وكان جمال عبد الناصر على رأس الجمهورية العربية المتحدة ، عنصراً مطمئناً للملوك العرب الذين كانوا قلقين ازاء نظريات حزب البعث .

الفصل السابع

من الثورة الاجتماعية (١٩٥٨) الى اغتيال كندي (١٩٦٣)

١ – نظرة عامة

لم تكن ملكة انجلترا ولا «خبيرها في الشئون الشرقية» انطوني ايدن، ولا حلفاؤهما الفرنسيون، يتصورون عندما بدأوا يعدون العدة لشن عملية السويس، انهم كانوا يستعجلون بانفسهم زحف الاشتراكية في مصر... فتحت ضغط الظروف، اضطرت الدولة المصرية إلى أن تقيم الحراسات، وأن تقوم بالتأميمات، وأن تدير بنفسها عدداً من المؤسسات الاجنبية. وعلى عكس بعض التقديرات والتنبؤات، اثبتت أنها فعلا جديرة بذلك. وفي ضوء الخبرة الواسعة النطاق التي نالتها مصر في هذا الصدد، قام جمال وزملاؤه في عام ١٩٦١ : بالثورة الاجتماعية تحقيقاً للبنود ٢ و ٣ و ٥ من قائمة «اهداف الثورة الستة».

إن كلمة «اشتراكية» (Socialisme) تحمل باللغة الفرنسية سُلّماً واسعاً ومعقداً من المعارف والمشاعر، وتُستخدم للتعبير عن كلمة عربية يتحول معناها بوضوح إلى «عمل اجتماعي» و «تعاون» ؛ وإن «الاشتراكية

العربية » تقدس حقوق الانسان كما انها ترفض ، من حيث المبادىء ، كل شكل من اشكال الالحاد . وهي كذلك تقسّم الاملاك الشاسعة ، من اجل تنمية الملكيات الصغيرة ، بطريقة تنظيمية ، الى حد انها استطاعت أن تفرض على خبراء الاقتصاد السوفيات ، الاعتراف بأن الاشاعيّة الزراعية لا يمكن تحقيقها في بعض البلدان . وأن « الاشتراكية العربية » — كما سنحاول أن نثبت فيما بعد — ليست مقطوعة عن اصدق التقاليد الاسلامية ، برغم أن هناك بعض « الاشتراكيين » العرب الذين يسيئون فهم هذه الاشتراكية ، ويتخيلونها احياناً في صور تكاد تكون ضيّقة الاطار ، وخادعة . وفي هذا المجال ، تكون المنجزات هي التي يمكن اعتبارها مقياساً للعمل الاشتراكي العربي ، اكثر من النظريات التي يطلقها المذهبيون .

ويبدو أن المبدأ القائل بأن الوحدة العربية والثورة الاجتماعية ، يكملان بعضهما ويسيران جنباً الى جنب ، قد فرض نفسه على جمال وزملائه ، حتى استطاع ذلك المبدأ أن يدفعهم ، في شهر سبتمبر ١٩٦٢ ، إلى اتخاذ خطوة فاصلة على هذا الطريق ، بمساندتهم للثورة اليمنية التي دفعت بمصر على طريق حرب دامية بين العربي واخيه العربي ...

والحق ان جمال عبد الناصر لم يكن بطبيعته ... من انصار التدخل ؛ وهناك عدة مواقف اتخذها الرئيس المصري تثبت ذلك بوضوح . ففي عام ١٩٦١ ، وعندما قامت في سوريا حركة الانفصال ، اوقف جمال بنفسه تدخل جيشه حفاظاً على الوحدة العربية من حرب أهلية . وإذن ، فلماذا تدخل جمال في اليمن ؟ هل كان يتصور مدى تطورات هذه المشكلة ؟ كان يدرك ، على اي حال أن اليمن — شأنها في ذلك شأن الكونغو — بلد قبائل حريصة كل الحرص على استقلالها وتقاليدها ، وأن اي تدخل هناك كان محكوماً عليه بان يواجه العقبات والمشاكل نفسها التي لقيها الاستعمار الفرنسي ، حينما أراد أن يفرض سيطرته على المغرب . الا أن اليمن — من الناحية الجغرافية البحتة — ليست هي الكونغو ، وليست هي

المغرب ... أنها جزء عضوي من الجنوب العربي الذي تسيطر بريطانيا على القسم الاكبر منه ... جزء من منطقة تتبلور فيها آمال ومخاوف اكبر واضخم المصالح المالية في العالم ... إن اصحاب المصالح البترولية، ترعشهم فكرة احتمال حصول هذه المنطقة على استقلالها ، فهم يجهدون للحصول على تأييد ايران لخططهم السوداء ، ولا يبخلون في وعودهم بالتنازل لايران عن بعض اجزاء الجنوب العربي . إن اليمن تقوم الآن بدور احدى القواعد المتقدمة في معركة البترول الكبرى ، ويبدو أن قيامها بهذا الدور لن ينتهي قريباً .

وطوال أشهر كثيرة ، لم تستحوذ اليمن على اهتمام الجماهير المصرية ؛ والواقع ان الأفواج الصغيرة من الجنود التي انتقلت الى هناك كانت من المتطوعين . ثم إنه كانت هناك اقطاب مغناطيسية اخرى ، تجذب اليها الرأي العام ... فعلى الصعيد الخارجي ، كانت هناك حركة من الآراء الجديدة داخل اسرائيل ، وكان جون كنيدي قد انتخب رئيسا للولايات المتحدة الامريكية ، وكانت هذه بشائر طيبة لاحتمال الوصول إلى حل سلمي دائم ومشرّف لقضية فلسطين . وعلى الصعيد الداخلي ، كان الرأي العام يتابع باهتمام انتخاب لجان الاتحاد الاشتراكي العربي (ابريل — مايو ١٩٦٣) ، فكان كل مواطن مطالباً بأن يشترك اشتراكاً فعلياً في بناء مصر المعاصرة ، لا بمجرد خطب عامة فحسب ، بل باسهامه في المجهود الوطني على المستوى المحلي ، داخل المؤسسات ، وفي القرى الخ ...

ويتعين علينا أن نضيف الى هذا كله ، التجربة الناجحة لاطلاق أول الصواريخ الموجهة المضادة للطائرات ، والتأميمات التي واصلت الدولة فرضها ، والتي كانت ، بطبيعة الحال ، الحياة اليومية للالوف من العمال والفلاحين ، والموظفين في قطاعي التجارة والصناعة على السواء . ففي عام ١٩٦٣ ، اممت الدولة التجارة الخارجية للقطن ، والصناعات الغذائية (مثل الارز والدقيق) ، وكذلك ما يقرب من ١٥٠ شركة من شركات الغزل والنسيج ، والصناعات الكيماوية والغذائية ، التي كانت قد خضعت من

قبل لتأميم نصفي . ولم يهتم الرأي العام المصري بمشكلة اليمن الا بعد اغتيال الرئيس الامريكي جون كنيدي ، وبعد التصريحات المليئة بالتهديدات التي صدرت عن الرئيس الامريكي الجديد ، ليندون جونسون عقب اغتيال سلفه مباشرة ...

ان الاشتراكية العربية تؤكد ايمانها في الحقوق الدولية ، وفي المبادىء التي قامت على اساسها منظمة الامم المتحدة ... واذا كان بعض الناس قد يئسوا من تلك المبادىء ، فان الثورة الناصرية ظلت متمسكة بكل ما جاء فيها من قيم انسانية ، وظلت تحاسب كل خصومها على اساس تلك المباىء ... وكان هذا هو مضمون الخطاب الذي القاه رئيس الجمهورية العربية المتحدة امام الجمعية العامة للامم المتحدة في نهاية شهر سبتمبر من عام ١٩٦٠ ؛ ذلك الخطاب الذي يمكن أن يوصف بأنه « أساسي » . وقد انتهز جمال عبد الناصر فرصة وجوده في نيويورك ليجتمع بالرئيس اليوغوسلافي الماريشال تيتو ، وبرئيس وزراء الهند ، جواهر لال نهرو . وقد تلا ذلك الاجتماع الثلاثي لاقطاب دول عدم الانحياز ، مؤتمر عقد في يناير عام ١٩٦١ في الدار البيضاء ، تحت اشراف عاهل المغرب ، وضم رؤساء كل من الجمهورية العربية المتحدة ، وسيلان ، ومالي ، وغينيا ، وغانا ، والجزائر ... وقد حصل جمال من هذه الدول على تأييد اجماعي لحقوق اللاجئين الفلسطينيين ، مما اعتبر نصراً كبيراً ، في الوقت الذي كانت فيه الدعاية الصهيونية — تساندها رؤوس الاموال الامريكية الضخمة — تحاول أن تشق للنفوذ الاستعماري الغربي مناطق نفوذ في آسيا وافريقيا . وفي ابريل ، اعلن الرئيس جمال عبد الناصر تأييد بلاده لجميع الدول الافريقية التي تناضل من اجل الحصول على استقلالها ... ونتيجة لهذا التصريح ، وبعد ثلاثة اشهر ، اشتركت وحدات مصرية في تحرير بنزرت . ولكن الرأي العام المصري ، كان في ذلك الحين مشغولاً بقوانين يوليو ١٩٦١ الاشتراكية ، التي غيرت تغييراً كبيراً بنية المجتمع المصري ، مزيلة الفوارق بين الطبقات الثرية والفقيرة ، إلى حد ما ، تحقيقاً لآمال الشيخ محمد عبده .

٢ ـ القوانين الاشتراكية والميثاق

احدثت القوانين الاشتراكية رد فعل كبيراً في الاوساط الثرية ... فبالنسبة للملكية الزراعية ، خفضت القوانين حدها إلى ٤٠ هكتاراً للاسرة الواحدة . وفي الوقت نفسه ، وضعت هذه القوانين حداً اقصى لاتعاب اعضاء مجالس ادارات الشركات ... اما بالنسبة للاسهم ، فقد نصّت القوانين الاشتراكية على أنه لا يجوز لأي شخص أن يملك اسهماً تزيد قيمتها عن ١٠ ملايين من الفرنكات القديمة ...

واذا كانت هذه القوانين قد « استعرقت » بعض الناس ، فأنهم مع ذلك قد قبلوها ، لأنه كان من الممكن للامور أن تكون أسوأ مما كانت ... أما جمال ، فهو يقول إنه إضطر أن يفرض هذه الاجراءات ، لأنه ـ على الصعيد الانساني ـ يضع نفسه في موضع الذين خضعوا لتلك القوانين ، وفي موضع افراد عائلاتهم : فبدلاً من عشرين خادماً يجب أن يكتفوا بخمسة عشر أو ربما بثمانية فقط ... لقد انتهى عهد الكرم والسخاء بالنسبة لهؤلاء، وانتهت الاكراميات التي كانت تعطى بوضع اليد في الجيب وباخراجها مليئة بالنقود أو باوراق النقد ، دون عدّها ... وفلان باشا ، الذي كانت بناته الست يترددن على المدارس الدينية الغالية ، سيلحق الآن أصغرهن سناً بمدرسة ارخص وأكثر تواضعاً ... وهؤلاء الناس الذي لم تشغلهم بعد أي مشاكل مادية ، والذين كانوا يخجلون من التعرض ، اثناء اي حديث ، لمسائل تتعلق بسعر اللحم أو الخضروات أو المنسوجات ، سوف يدرجون هذه المواضيع في محادثاتهم المقبلة ، شيئاً فشيئاً ، شأنهم في ذلك شأن الناس « في اوروبا وأمريكا » ...

وبالمقابل ، فقد نصّت القوانين الاشتراكية على تخفيض الاقساط السنوية

المستحقة للمنتفعين من قانون الاصلاح الزراعي بنسبة ٥٠ بالمائة ... وأما العمال ، الذين كانوا قد حصلوا فيما قبل على زيادة لمستوى اجورهم ، فقد منحتهم الدولة أسبوع عمل من ٤٠ ساعة ، كما نصّت القوانين الاشتراكية على توزيع ٢٥ بالمائة من ارباح الشركات والمؤسسات على العمال والموظفين بواقع ١٥ ٪ للخدمات الاجتماعية و ١٠ ٪ توزع عليهم نقداً في نهاية السنة المالية للشركة أو المؤسسة . ومن جهة أخرى وضعت الدولة يدها على جميع البنوك وشركات التأمين وحوالي خمسين شركة اخرى من الشركات الكبيرة .

و « ميثاق العمل الوطني » ، الذي قدمه جمال والذي حصل على تصديق الشعب في نهاية شهر يونيو عام ١٩٦٢ ، بواسطة مؤتمر شعبي منتخب ، يعلن لامركزية السلطة ، والرغبة في تحويل المجتمع الرأسمالي إلى مجتمع اشتراكي ، وذلك في مدة ثماني سنوات . ومن الابواب العشرة التي يضمها الميثاق ، خمسة منها تعالج تاريخ مصر ، واثنان يعالجان قضية الوحدة العربية ، والابواب الثلاثة الاخرى تعالج موضوع الاشتراكية ، وضرورتها وتطبيقها . اما « الاعلان الختامي » ، فهو يظهر الميثاق بمثابة حلف مبرم بين القوى العاملة للشعب ، من اجل تحقيق الاهداف الوطنية الكبرى . وقد قال جمال في هذا الصدد « إن الميثاق لا يتضمن شروطاً متصلبة صارمة ولا يجب أن يتحول إلى عائق ، بل هو في ايدينا ، اداة لتحقيق التقدم الاجتماعي » .

٣ ــ المنجزات الكبرى

تمكنت مصر ، بفضل القوانين الاشتراكية ، من أن تواجه الانفاق الضخم الذي اوقر اكثر فأكثر ميزانية الدولة ، والذي يقابله ، في الفترة ما بين مايو ١٩٥٨ ويوليو ١٩٦١ ، منجزات هامة ، غالباً ما اعلنها جمال في خطبه ، ومن بينها بناء أول مفاعل ذري وتحقيق مشروع الوادي الجديد ، وهو مشروع ضخم يتضمن اصلاح الاراضي البور الممتدة على مساحة اربعة

ملايين من الهكتارات ، من منخفض القطارة ، غرب النيل ، إلى المنطقة الجنوبية من اسوان ، وبناء مصانع الحديد والصلب في حلوان ، واقامة مصانع لانتاج الاسلحة الثقيلة ، والحصول على عدد من الغواصات الحديثة ، وانتاج الصواريخ الخ ... وقد صدر في عام ١٩٥٩ تقرير عن منظمة العمل الدولية ، جاء فيه أن الدخل الفعلي للعامل المصري قد ارتفع في الجمهورية العربية المتحدة بنسبة ٢١ ٪ ، في المدة بين عام ١٩٥٢ وعام ١٩٥٧ . وفي عام ١٩٦٠ ، احتلت الجمهورية العربية المتحدة المرتبة الثالثة في المؤتمر العلمي العالمي التابع للامم المتحدة ، بالنسبة لعدد الابحاث العلمية التي تقدمت بها والتي نوقشت في المؤتمر . وفي يناير من العام نفسه ، احتفل ببدء العمل في تنفيذ مشروع السد العالي ، الذي تلاه بعد ذلك بتسعة ايام ، توقيع اتفاقية جديدة لتمويل المرحلة الثانية من هذا المشروع الذي جاء بضخامته الفائقة يُثقل ميزانية الدولة ، المحمّلة بالنفقات الناجمة عن مستلزمات الدفاع ومتطلبات الاسكان . ولكن جرأة جمال – تلك الجرأة التي تصنع كبار الزعماء – وجدت جزاءها بحصول مصر على قرض قيمته ٥٦ مليون دولار من البنك الدولي ، لاستخدامه في تمويل مشروع توسيع قناة السويس . وفي شهر ابريل عام ١٩٦١ ، وأمام الاهرامات المضيئة بفضل التكنيك الفرنسي ، رفع ابو الهول في الليل صوته المؤثر ، واخذت الاضواء المسلطة عليه تحرك ملامح وجهه الجليل ، افتتاحاً لمشروع « الصوت والضوء » في منطقة اهرامات الجيزة .

كانت هناك ارقـــام مجردة من الشعر ، تتكلم ... ففي ابريل عام ١٩٦٢ ، سجلت الاحصائيات زيادة قدرها ٩,٢ ٪ في انتاج الشركات المؤممة (اما الشركات التي تساء ادارتها فلا تتلقى اعانات من الدولة ، بل يتعرض المسئولون فيها للعقوبات ، ويكلف غيرهم باعادة تنظيمها) . وهذه نتيجة جوهرية هامة . فهي تثبت أن الاشتراكيه تسير في الطريق السوي ، برغم كل العقبات . وبعد ذلك بثلاثة اشهر ، وبدلاً من أن يختتم العام الدراسي بتوزيع الجوائز ،

اعلن جمال بصوت يخنقه التأثر ، أن التعليم سيكون من الآن فصاعداً ، مجانياً ، في جميع مراحله .

٤ ـ الانفصال السوري والسياسة الدولية

لنعد القهقرى سنة إلى الوراء ؛ فقد كان الانفعال والقلق ما زالا سائدين نتيجة لصدور القوانين الاشتراكية ، حين استطاع جمال ان يحصل على تأييد مؤتمر بلغراد ، الذي ضم ٢٥ دولة من دول عدم الانحياز ، لحقوق الشعب الفلسطيني . كان هذا نصراً بلا ادنى شك ، ولكنه بهتَ بانفصال سوريا عن الجمهورية العربية المتحدة ، نتيجة لانقلاب عسكري ، قام في نهاية شهر سبتمبر لينقذ من القوانين الاشتراكية الاراضي الشاسعة والقصور والخزائن الخاصة ببعض الاثرياء من السوريين واللبنانيين الذين كانوا ، في الوقت نفسه ، مساهمين في الشركة الغواتيمالية – أو على الاصح الامريكية – التي كانت تحتكر تجارة الفواكه في سوريا .

وكان الجيش المصري قد بدأ يتحرك، بأسطوله ومظليّيه ، من اجل القيام بتدخل كان يبدو سهلاً ... ولكن ، تغلبت نزعة جمال السلمية وواقعيته الرفيعة ، فتوجه الى دار الإذاعة ليلقي كلمة ، لا الى شعب الجمهورية العربية المتحدة ، فحسب ، بل الى الامة العربية كلها ، وقال :

> نحن لن نتدخّل !... وانتم في سوريا ، الذين حملتم السلاح للمقاومة ، القوا السلاح ! فأنا لا أريد أن تسيل الدماء العربية !

كان الملايين من العرب يستمعون اليه وعيونهم تفيض بالدمع ، حين استطرد جمال يقول :

> « إن وحدة سوريا ومصر كانت كما تعلمون جميعاً عزيزة عليّ ... ولكن ، ما هو أعزّ من ذلك هو وحدة الامة السورية ! »

ولقد وجد تيصر جمال مصداقه فيما بعد .

وايا ما كان ، فقد واصلت مصر جهودها الجبارة من اجل اعادة بناء الوطن ، وكانت تتغلب شيئاً فشيئــاً – واحيانا بصعوبــة – عــلى العقبات البيروقراطية ، وعلى رواسب الفساد وعلى الاهمال والتهاون . وعلى الصعيد الدولي ، واصلت الدبلوماسية العربية جهودها الصابرة ، واحيانا بتوجيه من جمال شخصياً .

وهكذا ، في يونيو ١٩٦٢ ، لم تقتصر لجنة الميثاق الافريقي في الدار البيضاء على اتخاذ موقف بالنسبة لمشكلة اللاجئين الفلسطينيين العرب ، بل فضحت علناً الطابع العدواني لاسرائيل . ولكن حملة عنيفة قامت آنذاك ضد جمال ... وكانت سوريا ، والمملكة العربية السعودية والاردن ، تهاجمه وتتهمه بأنه يسعى لقبول تسوية مع اسرائيل ، مقابل الحصول على مساعدات اميركية (وبالاخص على مواد غذائية يسدد ثمنها ، لا بالدولار ، بل بالجنيه المصري) . كان وراء هذه الحملة الكثير من الخبث وكذلك رغبة في الحصول من جمال ، على تكذيب رسمي لهذه التهم . ولم يتردد جمال ، فقد ذكر في ردّه على الاتهامات الموجهة ضده ، أن الاردن تحصل ، هي الاخرى ، على المساعدات الاميركية ، وأن السعودية كانت تخضع للسيطرة الاقتصادية لشركة البترول الامريكية « آرامكو » . وفي هذه الغضون ، فارق الحياة رجل غريب ومثير للذهول ، رجل ما زال ينتظر مؤرخه ، وهو ملك اليمن العجوز . وعلى الفور ، قامت حفنة من الضباط اليمنيين بالاستيلاء على الحكم ، وبطلب مساعدة مصر التي لم تتردد في تلبية هذا الطلب . وكانت قد قامت من قبل محاولات متعددة لقلب نظام الحكم في اليمن ، في ١٩٤٨ ، و ١٩٥٥ ، و ١٩٥٩ ، و ١٩٦١ ، وكانت كلها قد فشلت بسبب تدخل المملكة العربية السعودية . وقد تمكن ولي العهد ، الامير البدر (والله وحده يعرف كيف) أن يفلت من الثوار الذين اعتقدوا انه قد مات بعد قصف قصره بالقنابل ونسفه عن آخره . وكان من المؤكد أن البدر لم يستسلم ،

وإنما كان ينوي القتال . وكان البدر يعتبر تقدمياً ، فقد كان يتمتع بثقة السوفيات ، كما أنه كان يعتبر ناصرياً . وكذلك بــدأت حرب اليمن ، وتطورت رويداً رويداً ، وليس من الميسور وصفها الآن . ولكن هناك شيئا نستطيع أن نقوله ، بالنسبة لهذه الحرب ، وبصرف النظر عن المغامرات الخيالية والاحداث التصويرية والغريبة ، وهو أن الفريق الجمهوري الذي استولى على الحكم ، لا يتكون فقط من العاجزين . فان هناك عملاً جدياً يواصل من اجل تجديد النظم على قواعد عصرية ، وكفاحاً باسلاً يخاض ضد العاهات الاجتماعية من شأنها أن تــبرز بعض العناصر الممتــازة ، سواء من الاداريــين أو السياسيين ، والذين يعتبرون فأل خير بالنسبة لمستقبل اليمن ، بعد أن يسوده الوفاق والسلام ، وبعد أن يمضي قدما في سبيل استغلال ثروات ارضه الغنيّه . فان ارض اليمن التي تزرع ببراعة منذ قرون تغذي السكان تغذية جيّدة . وكانت هجرة قوية تسمح بدخول كميات وافرة من المال ، بالرغم من عزلة البلاد .

وقد استخدمت الشهور التي تلت تفجير حرب اليمن للمضي في العديد من المهام الادارية الشبه اليومية ، وفي التحضير لعمل دبلوماسي قصير الاجل ، تبلور في مايو ١٩٦٣ .

٥ ـ مايو ١٩٦٣ وفجر الأمل

إن شهر مايو من عام ١٩٦٣ كان ، بالنسبة لجمال ، شهراً حافلاً بالعمل والنشاط . فهو قد اعلن في الجزائر « وحدة الهدف » بين الدول العربية ، ثم قابل من جديد ، في جزيرة بريوني ، صديقه الرئيس اليوغوسلافي تيتو ، واستغرقت الزيارة خمسة ايام ... وكان جمال ما زال متحرّقاً لإعادة علاقات الود والصداقة التقليدية مع فرنسا ، وها هي تعطيه موافقتها على ذلك ! كانت قد فتحت صفحة جديدة في العلاقات بين البلدين[1] ...

(١) ففي مطلع عام ١٩٦٢ كان بعض رجال الاعمال المغامرين قد سمموا تسميماً سطحياً ـ

فهل تسترد فرنسا مكانها الحقيقي في الشرق الاوسط ، وهل تعيد روابطها التاريخية مع الدول العربية ؟

ولكن ، بالنسبة لعدد كبير من الناس ، كان الحادث الاكبر اهمية هو مؤتمر اديس ابابا ، الذي جمع رؤساء ٣٢ دولة افريقية ، وحمل المرء على أن يحلم بوحدة هذه القارة التي ظلت طويلاً تعاني من الاغتصاب والنهب ، والتي كان يمكن للجمهورية العربية المتحدة ولفرنسا أن تسهما في ازدهارها .

كان الرئيس الامريكي جون كنيدي يبدي اهتمامه بكل هذا . وقد سبق له أن قاله، عندما أعلن أن عهد « اما كذا واما كذا » وعهد الازمة ذات الحدين بين الشرق والغرب، قد انتهى ... فإن الامور كانت أكثر تعقداً من ذلك . ففي داخل اسرائيل ، بدأت تظهر تيارات واتجاهات لم تكن قد ظهرت من قبل ، وربما كانت قد تعرضت للكتمان ، وبعضها يعارض بشدة اسلوب « الصهيونية القاسية » على طريقة المهاجرين الغربيين الذين يتزعمهم بن غوريون ، رئيس الحكومة . وعندما قامت طليعة من الاقليّة العربية ، تنظم المظاهرات احتجاجا على النظام العسكري الذي يعيش العرب في ظله منذ عام ١٩٤٨ ، خرج اليهود من مختلف الاعمار ليقفوا بجانبهم ... إنها ، بطبيعة الحال ، اقليّة ضئيلة ، ولكن بلغ من صدى عملهم هذا ، أن الاقلية العربية كادت تنتصر في الحصول على قانون يستجيب إلى مطالبها في البرلمان الاسرائيلي ، لو لم ينقصها صوت واحد عندما عرض مشروع القانون على البرلمان للتصويت عليه ! وقامت مظاهرات في اسرائيل ، احتجاجا على الوطنية المتطرفة وعلى النزعة العسكرية ، وعلى حوادث الحدود . وكان اليهود الشرقيون ، المتعرضون للاضطهاد والاستغلال ، يزداد عددهم

= علاقات البلدين : محاكمة « الدبلوماسيين » ؛ استدعاء وزارة الخارجية الفرنسية للمدرسين الفرنسيين ...

بسرعة اكبر من اليهود الغربيين ، وبذلك ، فان نفوذهم في تصاعد مستمر ... وقامت الاضطرابات التي عجزت الاتحادات العمالية أن تمنعها ، فأضطر بن غوريون إلى أن يقدم استقالته .

ومن ناحية اخرى ، تحقق كنيدي بنفسه من أن التأييدات الاخيرة من جانب الدول الافريقية الفتيّة ، لوجهات النظر العربية بالنسبة لفلسطين هي تأييدات مخلصة ونهائية . وفي القاهرة ، يقال إن اجهزة الاستخبارات الاميركية كانت تشعر بالبلبلة من موقف الرئيس الاميركي الشاب ... فهو قد راسل جمال مباشرة من جديد ، كما سبق له أن راسله في عام ١٩٦١ ، وكان الهدف ، هذه المرة ، هو الانتهاء من مشكلة اسرائيل ... ثم إنه قد اعلن في الامم المتحدة :

« يتعين علينا أن ندرس بعناية مشكلة اللاجئين ، **وأن نطالب بتطبيق قرارات الأمم المتحدة** »

وفي سبتمبر ١٩٦٣ ، كانت الاشاعات تفيد بقرب حدوث تغيير شامل للسياسة الاميركية تجاه الشرق الاوسط ... ماذا كان في وسع الصهاينة أن يفعلوا ؟

وفي اكتوبر عام ١٩٦٣ ، اشار مؤتمر البترول العربي إلى وجود مشروعات هي موضع الدراسة تتعلق بتأميم عام للبترول العربي مستقبلاً ، الامر الذي اثار القلق في دوائر الاحتكارات البترولية الدولية — المعروفة بشراستها في الدفاع عن مصالحها ، والتي لا تتراجع امام شيء — فراحت تنظم دفاعها ضد خطر التأميم الذي يهددها . ولسوء حظ تلك الاحتكارات ، فإنه لم يكن في وسعها الاعتماد كثيراً على الرئيس كنيدي ... هناك الصهيونيون والمصالح البترولية ... وهكذا أخذت الشتائم تنهال ضد الرئيس الاميركي وكان الرأي العام يتعرض كل يوم لحملة عنيفة ضده ، من الاوريغون إلى تكساس ، حتى بلغت الازمة ذروتها بتهديد الرئيس الاميركي بالاغتيال .

وليس في وسعنا أن نناقش ، هنا ، ظروف اغتياله ... فلنتمسك بالوقائع : فقد صعد جونسون (الذي كان من اشد خصوم كنيدي) إلى رئاسة الولايات المتحدة الاميركية ، وبادر الى تطمين الصهاينة واصحاب الشركات البترولية. وفي مستهل عام ١٩٦٤ ، جاء في المقال الافتتاحي لمجلة « الرقيب العربي » التي تصدر في القاهرة ، ما يلي :

« اننا ندين التصريح الذي ادلى به الرئيس جونسون بالنسبة للعالم العربي . فان لهجته هي نفس هجة تصريح بلفور ، وكذلك التصريح الثلاثي ، الذي يصور في الاذهان أن العالم العربي يشكل منطقة يمكن أن يتخذ بشأنها القرارات في خارجها ، وبواسطة الاجانب ... ويتعين على الامريكيين أن يدركوا جيداً أنه ، في نظر العرب والعالم الافريقي الآسيوي ، لم تتبن الولايات المتحدة لنفسها ، بالنسبة لقيام اسرائيل، موقفاً يمكن أن يوصف بأنه حيادي. واليوم، لا يبدو قيام « توازن »، في السياسة الاميركية، بين العالم العربي ، من ناحية ، واسرائيل ، من ناحية اخرى ، لا يبدو اكثر « حياديا » من ذلك . فنحن امام المنطق نفسه الذي سيطر على عملية السويس . إن الموقف في الشرق الاوسط خطير ، الا أن هذه الخطورة سببها اسرائيل ، لا العرب .

وقد تقولون إن هذا رأيكم وحده ... فليكن ! . ولكن المنبر الاوحد الذي يمكن استخدامه لمناقشة هذه الاخطار ، بطريقة فعالة ، هو منبر الامم المتحدة . فاذا كانت الولايات المتحدة قلقة ، فلتفعل مثلما فعل كنيدي ، فلتثر المشكلة امام الجمعية العامة ، حيث اكد كينيدي حق اللاجئين العرب بالعودة إلى ديارهم ... ولكن ، لا تقوموا بدور الشرطي ! فإن آخر من تطوع للقيام بهذا الدور هو ايدن ، وتعلمون طبعاً ما كان مصيره ... »

الفصل الثامن

من جونسون إلى وزارة زكريا محيي الدين

١ ـ عام المؤتمرات الكبرى

بعد وفاة كنيدي ، ظل مندبوه في الامم المتحدة يطبقون سياسته ، لمدة أسابيع . وحينما تقدم المفوض العام للاجئين الفلسطينيين بطلب من اجل تطبيق قرارات الامم المتحدة الخاصة بعودة اللاجئين إلى ديارهم ، تقدم الوفد الاميركي بمشروع قرار في هذا الصدد ، وتمت الموافقة بالاجماع باستثناء اسرائيل ، بطبيعة الحال ، في ٣ ديسمبر ١٩٦٣ .

ولكن البرلمان الاسرائيلي كان على يقين من أن هذا القرار الاميركي لم يكن في واقع الامر ، الا آخر انتفاضات سياسة الرئيس الراحل ، فرفض أن يأخذ في الاعتبار تصويت الجمعية العامة للامم المتحدة ، واضاف « أن تحويل مياه نهر الاردن سوف يبدأ قريباً » ... وواجهت عدة دول عربية القيام بعمل عسكري على الفور . ولكن جمال عارض هذه الفكرة ... فتعرّض لهجوم بعض الدول العربية ، التي وصفته بأنه « خائن » و « مرتدّ » ... وفي سبيل انهاء المزايدات في هذا الشأن ، اقترح جمال ، بالتعاون مع الجزائر ، دعوة مؤتمر لجميع الملوك والرؤساء العرب ، في القاهرة في شهر

يناير ، تليه دورة ثانية لهذا المجلس من الملوك والرؤساء في شهر سبتمبر المقبل ، في الاسكندرية . وبجانب هذين المؤتمرين للقمة العربية ، كانت القاهرة مقراً لمؤتمرين آخرين للقمة ، مؤتمر القمة الافريقي في شهر يوليو ، ومؤتمر القمة لدول عدم الانحياز في شهر اكتوبر .

وكان من نتيجة هذه المؤتمرات كلها ان عززت حظوة الرئيس جمال عبد الناصر . ومن ناحية اخرى ، درس كل من هذه المؤتمرات المشكلة الصهيونية ، كل بطريقته الخاصة . وقام العديد من الممثلين الافريقيين والآسيويين ، يستنكرون ويدينون التسلل الاسرائيلي في اقتصاد بلادهم ... وفي شهر مايو ، وقع الرئيس جمال عبد الناصر على اتفاقية سياسية مع العراق ، تعد اساسا للصداقة المتبادلة بين البلدين ، وخطوة ايجابية نحو الوحدة .

وعلى الصعيد الداخلي ، شهد شهر مارس — الحافل بالنشاط — صدور قانون يقيم نظاما للتأمينات الاجتماعية واسع النطاق ، وقانون آخر يعفي جميع المنتفعين من الاصلاح الزراعي من ٧٥٪ من الاقساط المستحقة عليهم للدولة . كما صدر ايضا في شهر مارس دستور مؤقت جديد ، وعقدت انتخابات مجلس الامة . واخيراً ، في ٢٦ مارس ، الغيت جميع القوانين الاستثنائية التي لم تكن كثيرة ، في الحقيقة ، الا انها ادت إلى الافراج عن الشيوعيين المعتقلين والذين دعوا الى الاندماج في المجهود الثوري الجماعي . وبذلك ، اتيح للشيوعيين المصريين أن يهتفوا ، في شهر مايو ، لرئيس وزراء الاتحاد السوفياتي ، نيكيتا خروشوف ، الذي قدم إلى مصر في زيارة رسمية لمناسبة الاحتفال باول منجزات مشروع السد العالي . وفي الخطاب الذي القاه بهذه المناسبة ، وجه جمال — بلهجة انيسة — بعض النقد إلى المثل السوفياتية ... فرد عليه خروشوف بلهجة حادة جافية، الأمر الذي ادى إلى جدال استمر اياماً عديدة ، بتبادل الخطب بين الزعيمين ... وتلقى الجمهور المصري هذه المبارازت الخطابية بما عرف عنه من حبور ، وتلذذ بمتابعتها كما يتابع البرامج الكبرى في الاذاعة أو التلفزيون ، ويعتبرها

من « المسرحيّات غير المنتظرة » التي هي مستحيلة في الغرب .
بعد أن انعقدت مؤتمرات القمة الثلاثة الاولى ، افتتح جمال الدورة
ـة لمجلس الامة في شهر نوفمبر . وكان من المتوقع ان تجري انتخابات
ة بعد ذلك بثلاثة اشهر . وفجأة ، راجت اشاعات تؤكد بأن الرئيس ،
يرغب أن يتفرغ ليدير بنفسه الاتحاد الاشتراكي العربي ، يفكر في
ترشيح نفسه لرئاسة الدولة . وقد اثار النبـــأ معارضة الرأي العام ، ثم
ات شعبية ، فاضطر جمال أن يتراجع امامها .

٢ ـ مغزى مؤتمري القمة العربيين

بدو أن هذين المؤتمرين قد اتاحا للامة العربية بأن تخطو خطوة كبيرة
لوحدة ، ونحو اقامة جيش عربي موحد ، وكذلك نحو اقامة جبهة
واحدة في وجه اي اعتداء اسرائيلي . وقد تعهدت الدول العربية بانهاء
تها ، وحل نزاعاتها ، كما انها أكدت من جديد ايمانها بمبدأ تسوية
ات تسوية سلمية ، وفقاً لما جاء في ميثاق الامم المتحدة في هذا الشأن ،
ا بضرورة تحقيق نزع السلاح العام . وعليه ، فقد وافقت الدول
على ميثاق الوحدة الافريقية ، وعلى مبادىء باندونج . ولما كانت
نية قد اخضعت فلسطين لاحتلال استعماري ، فقد وافقت الدول
على قيام جيش فلسطيني للوقوف في وجه أي اعتداء صهيوني ، وللحيلولة
تحويل اسرائيل لمياه نهر الاردن . ولم تتخذ الدول العربية قراراً بانشاء
مقاتلة من الفدائيين لسبب بسيط ، وهو أن تلك الفرق كانت موجودة
منذ امد بعيد ، منذ عام ١٩٤٩ على وجه التحديد ، وأنه لا يمكن
فلسطينيين المعزولين من تشكيل مثل هـــذه الفرق المقاتلة . ومن
اخرى ، طالبت الدول العربية بتحرير عدن والمستعمرات البرتغالية .
ضافة إلى ذلك ، فإن مؤتمر القمة الثاني قد عبر عن ارتياحه لتطبيق

قرارات المؤتمر الاول ، فان الاردن كان قد اعترف بجمهورية اليمن ، واعاد علاقاته مع العراق ، كما أن ليبيا كانت قد دخلت في مفاوضات مع بريطانيا والولايات المتحدة الاميركية ، في سبيل تصفية القواعد العسكرية للدولتين على اراضيهما .

ولكن ، في ١٩ يونيو ، كتب محمد حسنين هيكل ، رئيس تحرير صحيفة « الاهرام » ، يقول إن القرار الخامس من قرارات القمة ، الخاص بالبترول ، لم ينفذ بعد ... واشار الصحفي المصري – الذي يعتبر المتحدث شبه الرسمي للرئيس عبد الناصر – إلى أن الهامش ما زال واسعاً بين معظم القرارات وبين تطبيقها تطبيقاً سليماً ... فان تحديد الكيان الفلسطيني ، مثلاً ، « غير مرضٍ » ومشروع القيادة العسكرية الموحدة يغذي « حلم هجوم عسكري صاعق » ... وفي حالة شن مثل هذا الهجوم ضد اسرائيل « يكون الجيش السوري عرضة للهجوم » ... وفي ٤ سبتمبر ، حذر امين الحسيني ، رئيس اللجنة العربية العليا لفلسطين ، البلدان العربية من منظمة التحرير الفلسطينية ، واتهم رئيسها بانه تجاوز سلطاته المنصوص عليها في القرار الخاص باقامة المنظمة . الا أن الاردن ، والكويت ، والمملكة العربية السعودية استمرت في سداد التزاماتها المالية للمنظمة الفلسطينية . واذن ، فان عام ١٩٦٤ كان بالنسبة للجماهير العربية ، عاماً حافلاً ومشجعاً لجميع الذين يشدهم أمل الوحدة المرتبط بأمل عودة اللاجئين الفلسطينيين العرب إلى ديارهم . وكان ثمة بعض الحالمين والغافلين الذين يتحدثون عن مواجهة وشيكة مع اسرائيل . وكان جمال يبدي قلقاً شديداً ازاء هذه الانفعالات المتطرفة . وفي ٢٥ سبتمبر ، كتب حسنين هيكل مقالاً طويلاً كان موضوعه « أن الجمهورية العربية المتحدة لا يمكن لها ، ولا يجب أن تندفع بدون ترو في حرب ضد اسرائيل » . كما اضاف ، بالنسبة للمشروع العربي الخاص باستغلال مياه نهر الاردن ، « ان هذا المشروع ، يتطلب وقتاً طويلاً لدراسته اولاً ، ثم لتنفيذه » ...

وبالفعل ، كان لا بد من تخفيف اللهجة ... وفي شهر مارس التالي ، ارتفع صوت شاذ ومتنافر ، وهو صوت الحبيب بو رقيبة . وبعد مضي سنة ، حدث انشقاق بين المملكة العربية السعودية ، من ناحية ، والجمهورية العربية المتحدة ، وسوريا ، والعراق من جهة اخرى . واخيراً ، قام نزاع بين الاردن ومنظمة التحرير الفلسطينية وجميع الذين يؤيدونها ... ومرة اخرى ، نُسفت الوحدة العربية ، ولن تلتئم من جديد الا امام نيران المعتدين .

٣ – ١٩٦٥ : عام مضطرب

شهد عام ١٩٦٥ الانشقاق يتابع الانشقاق والتقارب يلاحق التقارب ... فقد حدث خلاف مع المانيا الاتحادية ، ومع تونس ، ومع بريطانيا . فالبنسبة لالمانيا ، التي أُقنعت بأن تسهم سراً في تقوية اسرائيل عسكريا ، فقد ظلت متمسكة بموقفها ، الذي اظهرها بصورة دولة تدور في فلك الولايات المتحدة ، وتطيع اوامر اسيادها تحت الضغط . وكان رد فعل هذا الموقف ، أن سارعت المانيا الشرقية ، في شهر مارس ، إلى إعلان تأييدها للقضايا العربية . وفي مايو ، قطعت كل من السعودية ، والاردن ، واليمن ، والسودان ، وسوريا ، والجزائر ، والجمهورية العربية المتحدة ، علاقاتها مع حكومة بون . وقبل ذلك ببضعة اسابيع ، كان الرئيس التونسي ، الحبيب بورقيبة ، قد اثار نفور جميع هذه البلدان ، بسلسلة من الخطب الحرقاء التي القاها اثناء رحلة قام بها في مختلف العواصم العربية . وكان من نتيجة تصريحاته هذه ، أنه دُعي لزيارة اسرائيل ، ثم تعرَّض ايضا لاحتقار الصهاينة انفسهم .

اما حكومة لندن التي ظلت تتجاهل قرارات الامم المتحدة لعام ١٩٦٣ والخاصة بعدن والخليج العربي ، فقد قامت في هذه المنطقة موجة عارمة من الاضطرابات الشديدة . وفي مستهل شهر مايو ، خصص جمال احدى خطبه الرنانة للتعليق على الاحداث في هذه المنطقة . وأصبح من الواضح

أن المشاكل المعقدة لليمن والجنوب العربي ، كانت الآن مترابطة لا تتجزأ ... فمن اجل مساعدة الجنوب مساعدة فعّالة ، كان لا بد من يمنٍ ديناميكيّة ثورية ، لا سيما وان بريطانيا ظلّت باقية على سلاحها ...

في ١٠ مايو ، حكم على احد الجنود البريطانيين بالسجن عشر سنوات ، لكونه باع للجمهورية العربية المتحدة بعض الوثائق السريّة ، التي نشرتها جريدة « الاهرام » القاهرية في اعدادها الصادرة من ٢٨ مايو حتى ١٢ يونيو .. وكانت الوثائق على غاية الخطورة ، اذ انها كشفت وجود خطة مفصلة ودقيقة لتدخل بريطاني ، لا سيما بالتعاون مع الولايات المتحدة ، في ليبيا ، والكويت ، ولبنان ... وبرغم ذلك ، فإن قطع العلاقات مع بريطانيا لم يتم الا في نهاية عام ١٩٦٥ ، ولسبب لا علاقة له بالشئون العربية على الاطلاق : تنفيذاً لاحد القرارات لمنظمة الوحدة الافريقية بشأن مشكلة روديسيا .

وبالمقابل ، عاد الربيع يزدهر بين القاهرة ودمشق . خلال عام ١٩٦٥ ، في حين تقدمت مباحثات دقيقة ومخلصة بين الجمهورية العربية المتحدة والعراق ، من اجل تعاون اوثق بين البلدين ، وفي سبيل الوحدة . الا أن التصريحات التي ادلى بها الزعيم الجديد لحزب البعث ، والتي جاء فيها « أن الغرب يدفع دول عدم الانحياز إلى الانحياز للكتلة الشرقية » ، اثارت بعض القلق في مصر ، مما حمل جمال عبد الناصر على أن يهاجم حزب البعث مباشرة في الخطاب الذي القاه في ٢٣ يوليو . هاجم جمال حزب البعث الذي كان ينادي بشن حرب فورية ضد اسرائيل ، واستنكر المبالغة والبلاغة اللتين اتخذتهما حفنة من المهيّجين صيغة واسلوباً لخطبهم الحماسية التي لم تأت بعد بأي نتائج ايجابية ، كما أنه ادان حزب البعث « الذي يتكلم منذ ٢٠ عاما ، لكنه لا يفعل » ... ومن المؤكد أن الدعاية الصهيونية تتلذذ في نشر هذه الاقوال في دول الغرب وفي أفريقيا ، بعد أن تشدد من عنفها

في الترجمة ، وتضيفها ، لا إلى حساب بعض البعثيين ، بل إلى حساب العالم العربي بصفة عامة ، وجمال عبد الناصر بصفة خاصة .

اما العلاقات مع فرنسا ، فإنها كانت ، دون ادنى شك ، قد استقرت على درجة ثابتة من الرضى . وخلال زيارة طويلة للقاهرة ، قام بها في شهر يناير مسيو ادجار فور ، ممثلاً شخصيا للرئيس الفرنسي شارل ديغول ، اشاد بالاشتراكية العربية ، وادلى بتصريح جاء فيه « أنه ليس ثمة ما يقف في سبيل تعاون وثيق بين حكومتي فرنسا والجمهورية العربية المتحدة » .

وقد تلت زيارة ادجار فور ، زيارات اخرى ومتعددة لوفود من رجال التجارة والصناعة الفرنسية ، الذين تعهدوا باقامة عدد من المصانع المدرجة في الخطة الخمسية الثانية للجمهورية العربية المتحدة ، كما انهم وقعوا اتفاقية تجارية شاملة . ثم جاءت زيارة المشير عبد الحكيم عامر إلى باريس ، وتعاقبت بعدها سلسلة جديدة من الزيارات لوفود فرنسية رسمية للقاهرة ، مما اثبت التوثيق المستمر للعلاقات بين البلدين .

وماذا عن الولايات المتحدة الاميركية ؟ في ديسمبر عام ١٩٦٤ ، اسقطت الطائرات المقاتلة المصرية طائرة اميركية ، وبعد ذلك باربعة ايام ، انذر جمال عبد الناصر الرئيس الاميركي جونسون ، في خطاب كبير ، بأن المساعدات الاقتصادية الاميركية لمصر لم تكن تعطي الحق للولايات المتحدة بفرض سياستها على القاهرة ، الامر الذي اثار غضب الرأي العام الاميركي على مصر ، وعلى الاسلوب الصريح لجمال عبد الناصر ، وذلك بواسطة حملة قوية في الصحافة ، والاذاعة والتلفزيون . واذا كان وزير الدفاع الاميركي قد اثار ، في شهر فبراير ، وهو يتحدث عن الاطماع الاسرائيلية بالنسبة لنهر الاردن ، « احتمال نشوب الحرب » ، فقد سجل في الوقت نفسه ارتياحه ازاء رد الفعل العربي ، الذي وصفه بأنه ظهر « حتى الآن ليناً ومعقولاً » .

وفي ٩ مارس ، اعترفت الحكومة الاميركية رسمياً بأن الطيار الذي كانت طائرته قد أسقطت ، « وهو يحلق في المجال الجوي للجمهورية العربية المتحدة ، لم يكن قد التزم بالتعليمات الصادرة له ، وكان قد دخل بطائرته منطقة محرّمة » .

ومن ارتجاج لارتجاج ، تطورت الامور رويداً رويداً حتى بلغت العلاقات بين البلدين ، في نهاية العام ، درجة هبوط ملموس في حدة التوتر بين الدولتين ، تحقيقاً للرغبات الصادقة لجمال عبد الناصر ، الذي كان حريصا على تحسين علاقاته بالدول الاخرى ، كما اثبتته ذلك الزيارات المتعددة التي قام بها خلال الشهور القليلة السابقة ، إلى كل من الاتحاد السوفياتي ، ويوغوسلافيا والمغرب ، وغانــا ، ومالي ، وغينيــا ، بصرف النظر عن محاولاته العديدة للتوسط في حل النزاع بين الهند والصين ، ثم بين الهند وباكستان وكذلك لحل مشكلة فيتنام . ولهذا السبب ، وكذلك لمناقشة موضوعات اوسع ، اجتمع جمال برئيس الوزراء الصيني ، شو ان لاي ، لمدة عشرة ايام في القاهرة ، خلال شهر يونيو . وقال جمال في هذا الشأن :

> « لقد قابلت ، خلال هذه السنة ، وعدة مرات ، السيد شوان لاي ، وتباحثنا في جميع الموضوعات ذات المصلحة المشتركة .. وإن ابعاد هذا الشعب الذي يشكل ربع الانسانية ، من الامم المتحدة ، يمثل خطأ واضحاً لا في حقه فحسب ، بل في حق الامم المتحدة والسلام العالمي . »

واخيراً ، في شهر اغسطس ، وتطبيقاً لقرارات مؤتمرات القمة العربية ، تم التوقيع ، في جدة ، على معاهدة من شأنها أن تنهي حرب اليمن . وقد اثارت عملية تطبيق نصوص هذه المعاهدة بعض المشاكل ، التي نتجت جزئياً عن الوضع المعقد للغاية في هذا البلد القبائلي . والحقيقة أن اتفاق جدة قد خيّب امل الكثير من الجمهوريين اليمنيين . وبعد أن قام فيصل مقام أخيه الملك سعود ، في ٢ نوفمبر ، كان يُخشى من تصلّب في سياسة الرياض .

٤ـ الخطة الخمسية الثانية

في الخطاب الذي القاه جمال بمناسبة عيد العمال في اول مايو ، اعلن عن البدء، في شهر يوليو المقبل ، في تطبيق خطة خمسية ثانية تقوم اساساً على الصناعة الثقيلة والادخار . وكان هذا الاعلان اهم احداث العام في مصر ، برغم أن شهر مارس كان كشهر مارس السابق ، حافلاً بالاجراءات الهامة : فقد تم تخفيض جديد فوري (يتراوح بين ٢٠ و ٣٥٪) على جميع الايجارات ، التي كانت قد خفضت من قبل ، في ١٩٥٨ و ١٩٦١ ؛ واكتشفت مناجم جديدة هامة من الحديد ولا سيما من البترول ، وتم بناء مصنع جديد للوقود الذري . ثم ان جمال ، الذي كان قد أعلن ، اثناء حملته الانتخابية : « ليس لديّ ما اقدمه لكم ، في السنوات الست المقبلة ، سوى المزيد من المسئوليات الضخمة » ، وجد نفسه محمولاً إلى الرئاسة باغلبية شبه اجماعية . وعلى اثر انتخابه مباشرة ، قام جمال بافتتاح مؤسستين مختلفتين ولكن كلاً منهما تحمل مغزى كبيراً : فقد افتتح أول مركز نموذجي للثقافة الريفيّة ، واكبر محطة اذاعة في العالم .

واخيراً ، اعلن الحزب الشيوعي المصري ، في ٢٥ ابريل ، قراره بحل نفسه ، وبوضع « امانة المستقبل للامة المصرية في ايدي جمال عبد الناصر والاتحاد الاشتراكي العربي » .. واضاف بيان الحزب يقول « إن مناضلينا ، الذين لا يبلغ عددهم اكثر من الف مواطن ، سيواصلون توجيه النقد ضد اليمين البيروقراطي ، الذي يحدّ أو يخرب سياسة الرئيس » . ويقال إن جمال قد ادهشه هذا النبأ ، على وجه مستحسن طبعا ...

٥ ـ الجماهير الشعبية

وبموازاة هذه الاحداث ، اهتز البلد ـ وخصوصا قطاعه الريفي ـ بحملة واسعة النطاق من اجل تحديد النسل ، سرعان ما اصبحت موضع سخرية الجماهير ، ومصدراً لسلسلة من « النكت » التي يهواها الشعب المصري . وكان يبدو أن الحملة لن تعود بنتائج مرضية ؛ ففي هذا الموضوع كما في موضوعات اخرى ، يرفض الفلاح مثل هذا التغيير السريع في طريقة حياته الخاصة .

وقد جاء في تقرير لجنة مكلفة بالتحقيق في نتائج تطبيق قوانين الاصلاح الزراعي ، نشر في ٩ مايو :

> « هناك عدد كبير جداً من الفلاحين الذين يرفضون ادخال مياه الشرب في منازلهم ، ويرفضون جعل مساكنهم عصرية ، ويرفضون زيادة الحجرات المسكونة ... فهم يريدون الاحتفاظ بـ(وابور الغاز) ، وبالافران الخشبية ، برغم اخطار الحريق » .

واذا كان الفلاح يتمسك بتقاليده على هذا النحو من الشدة ، حتى ولو كانت بعض هذه التقاليد محتاجة للاصلاح ، فليس في ذلك دليل سيء على الصحة المعنوية والطاقات القوية التي ما تزال كامنة في صدور افراد الشعب المصري . ففي كثير من الاحيان ، يكون الشعب ، ولاسيما « الرعاع » على حد تعبير يطلقه الغربيون بلهجة احتقار ، هم الذين يحافظون على أفضل جزء من تراث الانسانية ، في شكل تقاليد أصيلة تتعايش مع عادات فارغة من اي معنى ، أو تكاد تكون . فان الجماهير الشعبية تمثل قوة جبارة سلبية ورصيداً ضخما ، يمكن أن ينطلق منه الذهب والرصاص ، والورد والسماد ،

وفقاً للطريقة التي يتخذها بازائها اولئك الذين يمتلكون زمام السلطة .

وهذا ما يمنح الانسان « الشعبي » امكانيات لا تتمتع بها الطبقات « البورجوازية » و « البورجوازية الصغيرة » ، التي تميل أمانيها الشاملة إلى الاتجاه نحو « طراز الحيـــاة الاميركي » ونحو جميع الاشكال المماثلة من المادية المعاصرة . ويمكن أن توصف هذه الطبقات ، عن استحقاق ، بأنها من الطبقات «الوسطى» لو كان ما يزال هناك بالفعل طبقة اعلى منها كي يستطاع ، بالمقارنة ، أن تُطلق عليها هذه التسميّة . وهذا ، على الاقل ، يعطينا فكرة عن « نخبة المثقفين » الحقيقية ، التي لا ينتمي اليها – باستثناء بعض الحالات النادرة – المثقفون المنبثقون من البورجوازية ، ولا المثقفون المتوسطون الذين أخذت طبقتهم تحتل – اكثر فأكثر – مكاناً لها في المجتمع ، مع تطور الصحافة ، ووسائل الاعلام والنشر اللاواعي .

إن هذا المظهر من مظاهر الامور – الذي ليس من المفيد أن نحلله هنا بالتفصيل – يمثل احد المفاتيح لفهم موقف جمال عبد الناصر من الشعب ومن « المثقفين » على الطراز الغربي الذين يعكسون ، في الواقع ، صورة كاريكاتورية لممثلي الثقافة الحقيقيين ، هؤلاء الذين اشار اليهم النبي محمد بقوله : « إن حبر العلماء اثمن عند الله من دم الشهداء ...» ان المثقف الاصيل الذي لا علاقة له بالمعمَّم السطحي ولا بالعالم « الذي يعرف كل شيء من غير أن يفهم شيئاً » ، هو انسان بلغ درجة من الوحدة الداخلية ومن الوعي تضعه على مستوى جديد ، وتوجهه نحو بُعْدٍ جديد يمكّنه من « الفهم » بأرفع ما في هذه الكلمة من معنى .

هذا يلقي ضوءاً كشافا على « المعلومات » التي تبثّها بعض الصحف ، مؤكدة بأن جمال يتمتع بمساندة الشعب له ، في حين أنه يواجه معارضة من جانب جزء من « النخبة » ... وهذه النخبة المزعومة هي التي اشار اليها جمال عبد الناصر في كتابه « فلسفة الثورة » ، وبخاصة حين أراد أن يتحدث إلى اساتذة الجامعات ... ولكن ، اذا كان الشعب يقوم بالدور

الذي وصفناه فيما سبق ، فليس هو معصوماً عن الخطأ . واذا كان المثقفون المصريون هم احيانا مثقفين « على الطريقة الغربية » – بالمعنى المحقّر للعبارة – فهم لن يتغيروا من تلقاء انفسهم ، بل بتأثير من دفع ذكي وشديد يكون من شأنه أن يرد للاسلام حيويته المُخصبة في قلب المجتمع الاسلامي ... وهذا هو السبب الذي جعل احياناً بعض القلوب النبيلة تندفع نحو تنظيم الاخوان المسلمين، هذا التنظيم الذي ضلّلهم باسلوبه المخطىء اساساً ، بسبب من تسييسه الأخرق ، وخططه المشبوهة غالباً .

٦ – تغيير الوزارة

في شهر اغسطس ، تم اكتشاف مؤامرة واسعة النطاق . فقد كان هناك جماعة من الارهابيين يخططون لسلسلة من الاغتيالات . وكانت هذه الجماعة تابعة لتنظيم عسكري يتبع بدوره لتنظيم سري تمكن الاخوان المسلمون من اقامته ، من جديد ، في البلاد . وقد قبض رجال الشرطة على حفنة من المتآمرين من مختلف الاتجاهات السياسية (ومنهم بعض الشيوعيين الموالين للصين) . وقد استغرقت اجراءات التحقيق في هذه المؤامرة شهورا طويلة ، وكشفت أن من ضمن المتهمين عدداً من الاخوان ، كان قد شملهم ، في الوقت السابق مع الشيوعيين ، العفو الشامل في العام السابق .

وكان من نتيجة هذه المؤامرة وضرورة العمل على تغيير جزئي للسياسة الاقتصادية ، أن زكريا محي الدين – الذي سبق له أن اثبت كفاءة عالية عندما كان وزيراً للداخلية – خلّف علي صبري على رأس الحكومة . وبعد ذلك بقليل ، اسند إلى علي صبري الاشراف على الاتحاد الاشتراكي العربي ، حيث نقل جمال عبد الناصر مكتبه كرئيس للجمهورية .

وبعد اعلان قرار (صفقت له الفئة المتيّسرة من الشعب) بتيسير السفر للسياحة إلى الخارج ، جاء اجراء آخر في نوفمبر حين اعلن رسميا عن تنفيذ

مشروع اقامة منطقة حرة في بور سعيد ، اسوة بهونغ كونغ ، إلى حد ما . وكان من المؤكد أن بور سعيد ، اذ تتحوّل إلى منطقة من هذا النوع وإلى مركز دولي هام للتجارة والصناعة ، سوف تجذب اليها سيلاً مستمراً من رؤوس الاموال الاجنبية . ولكن ، بعد هذا الاعلان بحوالي شهر ، القى زكريا محي الدين امام مجلس الامة خطابا دق فيه اجراس الخطر منبهاً الرأي العام ومحذّراً إياه من الازدياد الكبير والمستمر في عدد السكان (حوالي مليون نسمة في العام الواحد) ، وكذلك زيادة الاستهلاك المتصاعدة . كان القطع النادر يتناقص والميزان التجاري يعاني العجز منذ خمس سنوات . لذلك ، فقد كان من المحتّم اتخاذ اجراءات معتدلة وحكيمة ، لمواجهة هذه الظروف ، فتقرر ، ضمن ما تقرر ، منع البيع بالتقسيط لاجهزة التلفزيون ، والثلاجات الكهربائية ، والاجهزة المنزلية والكهربائية المختلفة ، والسيارات ، (وكان نظام التقسيط هذا قد اصبح جرحاً نازفاً عند المصريين !) ورفع ثمن جميع هذه الكماليات بنسبة بلغت احيانا ٥٠٪ ، مما مكّن الدولة من أن تخصص جزءاً أكبر منها للتصدير . وقد استطعنا أن نتاكد بأنفسنا من أن هذه الاجراءات ، التي كانت مؤلمة للغاية بالنسبة لكثير من الناس « المتواضعين » ، كانت مفهومة ومقبولة من وجهة نظر السياسة العامة للحكومة .

وكان مما آثار قلقاً أكبر ، جملة وردت في الخطاب الذي القاه جمال يوم ٢١ ديسمبر في بور سعيد ، عندما اعلن تمسكه باتفاق جدة ، ثم اضاف : « اذا ما استأنف الملكيون القتال في اليمن ، فسوف نرد على الهجوم » ... وهذا هو ما حدث بالفعل لسوء الحظ ...

الفصل التاسع

السير نحو الهاوية : ١٩٦٦

١ ـ نظرة الى العالم في مستهل عام ١٩٦٧

لا بد لنا ، في هذه المرحلة ، من أن نعود إلى الوراء ، وأن نرتفع فوق حدود مصر ، محاولين أن نلقي نظرة طائر على التيارات الاقتصادية القوية التي هزّت ، خلال عام ١٩٦٦ ، كافة المجتمعات البشرية الموزعة على مختلف انحاء كوكبنا . إن كل شيء ، في عالمنا المعاصر ، مترابط ، ونادرة جداً هي الدول التي لا تتصادى ، كل اسبوع ، بالأحداث التي تجري على بُعد آلاف من الكيلومترات منها ، والتي تبدو وكأنها لا تعنيها . ففي عام ١٩٦٦ ، كان للنفقات الضخمة للحكومة الاميركية في فييتنام ، ولما اسفر عنها من اجراءات للخفض من الضرائب ، أن بدأت تظهر في الولايات المتحدة اولى علامات التضخم ، التي كانت تتفاقم من اسبوع لاسبوع . وقد اتخذت اجراءات دفاعية متعددة ؛ فعلى خط متواز مع « التصعيد » العسكري ، جرى تصعيد آخر بالنسبة لسعر الفائدة ، انتشر في جميع انحاء العالم ، وصاحبته حركة واسعة النطاق لرؤوس الاموال .

ومن ناحية اخرى ، فإن نسبة التصدير إلى الدول النامية ، بالنسبة

للتجارة الدولية ، واصلت خلال عام ١٩٦٦ هبوطها الذي كان قد بدأ في عام ١٩٦٤ ، وذلك بالرغم من التحذيرات الواضحة والحكيمة التي أصدرها زعماء دول عدم الانحياز . ففي المؤتمر الدولي للتجارة والتنمية ، الذي انعقد في الفترة ما بين شهر مارس وشهر يونيو من عام ١٩٦٤ ، والذي تقدمت فيه فرنسا بمقررات جريئة ، لاحظت الدول الخمس والسبعون من دول العالم الثالث التي اشتركت فيه ، بأن « التقدم الذي احرزه اثناء مناقشات المؤتمر ، لم يكن كافياً لضمان الحد الادنى من متطلبات تلك الدول بالنسبة لاحتياجاتها الرئيسية » .

وتعرّض العالم لنقص حقيقي في المواد الغذائية ، ذلك النقص الذي تنبأ به الكثير من العقول الواعية ، منذ سنوات عديدة ، دون أن تستمع اليه بجدية حكومة جونسون ... وكانت تلك نتيجة منتظرة لحضارة « التقدم الفني » ! .. والحق أن هذا النقص في المواد الغذائية جاء نتيجة عوامل متعددة ، أهمها :

١) ازدياد السكان ... ففي عام ١٩٦٤ ، اعلن مدير منظمة التغذية والزراعة ، التابعة للامم المتحدة ، بأن سكان منطقة الشرق الادنى ، التي تبلغ ١٦٠ مليون نسمة ، سوف يبلغ عددها ٤٠٠ مليون في عام ٢٠٠٠ .

٢) النقص شبه التام في الآلات الزراعية وفي النمو الزراعي (بالنسبة لما وصل اليه العلم في هذا المجال) للدول النامية .

وكانت بعض الدول المنتجة قد كدست ، طوال سنوات ، كميات هائلة من الفوائض التي اعتقد البعض انها كانت فائقة . ثم جاءت المساعدات إلى ايران والهند وبعض الدول النامية الاخرى ، يضاف اليها المشتروات الضخمة التي عقدتها الصين والهند ، فانقشعت هذه الارصدة الضخمة مثلما تنقشع غلالة من الضباب الصباحي بمجرد ظهور الشمس ، فتصبح الرؤية واضحة تماماً ... وظهرت الحقائق بوضوح في عام ١٩٦٧ : الهند مهددة بالمجاعة ،

المجاعة الفعلية الحقيقية الرهيبة ... وقد علم الجميع ، منذ نهاية ١٩٦٦ ، انه اذا لم تهطل الامطار بشدة ، فسوف يموت عشرات الملايين من الناس ، نتيجة لنقص الغذاء ، وستجد الأمراض المناخ المؤاتي للانتشار ، وستجتاح الأوبئة البلاد .. فهل تكون المجاعة كافية لتغذّي الشيوعية الهندية (و هل هناك من يستطيع أن يعرف ما تحويه من خفايا) ، بحيث تقوى ثم تتمكن فتنتصر ؟ ألم تكن الولايات المتحدة تهتم بتلك الأنواع من « الابادة الخاصة » وبهذه الشيوعية المتصاعدة ؟

وعلى كلّ حال ، ففي نهاية عام ١٩٦٦ ، واجهت حكومة جونسون أمر التخفيف من سرعة النمو الاقتصادي للولايات المتحدة ، الامر الذي ترتّب عليه تحديد التجارة الدولية . وبصفة عامة ، فإن المواطن الاميركي المتوسط كان قد نسي التضخم ، نظراً لأن استقرار الاسعار كان ، طوّال السنوات العشر الماضية ، مدهشاً ان لم يكن تاماً . ثم جاءت الزيادة ، من يناير الى مارس ، بمعدّل ٢,٥٪ ، ثم من يوليو الى سبتمبر بنسبة متوسطة قدرها ٤٪ ومن جهة اخرى ، فاذا كانت الصحافة قد تحدّثت كثيراً عن بطء طرأ على صناعة انتاج السيارات ، خلال الاشهر الاخيرة من عام ١٩٦٦ ، نتيجة لرفع سعر الفائدة ، فإن هذا البطء المشهدي لا يمثّل شيئاً اذا قورن بالبطء المريع الذي سجّله قطاع التشييد والبناء ؛ واذا كان في ذلك عزاء ما ، فإنه عزاء ضئيل جداً . ونتيجة لرفع سعر الفائدة ، تدفقت الأموال من الخارج الى داخل الولايات المتّحدة ، واصبح من المستطاع تغطية العجز في ميزان المدفوعات ولكن لمدّة قصيرة .

وهذا التوازن ، كانت حكومة العمّال في بريطانيا تدعي انها قد حققته تقريباً ... ولكن ذلك كان مصطنعاً ؛ فلنتجاهل أن النتائج الحقيقية التي حققتها بريطانيا كانت بسبب اجراءات التقشّف التي لجأت اليها خصوصاً بهدف تنمية الصادرات . ولنذكر أن بريطانيا كانت في ١٩٦٦ ما زالت أبعد من أن تسدّد القروض القصيرة الاجل والضخمة التي كانت قد قُدِّمت لها في شهر

يونيو ، من اجل « انقاذ الجنيه الاسترليني » . ولا يمكننا أن ننسى ايضاً الديون الدائمة القصيرة الاجل (المعروفة بـ « حسابات الاسترليني ») ، التي بلغت في اول نوفمبر ١٩٦٦ — ومعظم الناس يجهلون ذلك — ما يزيد عن ٦٠٠ مليار من الفرنكات القديمة ، والتي لن يتمكّن — في رأينا — أن يصفّيها أو يمحوها قرار تخفيض سعر الجنيه الاسترليني ! وكانت الزيادة في الانتاج ، التي لم تحدث في ١٩٦٦ على الاطلاق ، من المنتظر تحقيقها في عام ١٩٦٧ ... ولكن لم يحدث ذلك ، اذ لم يسجّل الانتاج البريطاني اي زيادة خلال العام الماضي .

ولئن كانت عبارة « السير نحو الهاوية » ، تحمل بعض الابهام ، فنعتقد أن القارىء قد فهم الآن ما كنّا نقصده ... امّا وضع ألمانيا الغربية ، التي تدور في فلك الولايات المتّحدة الاميركية ، فاذا كان اقل من ذلك خطورة ، فهو في الوقت نفسه وضع لا يتسم بالازدهار الكبير ... فهناك هبوط في الانتاج ، وظهور للتضخم ، وزيادة في الاسعار وفي الاجور بسرعة تفوق سرعة الانتاج . صحيح ان سعر الفائدة قد ارتفع ، الاّ أن اهم الصادرات (الى فرنسا) قد سجّلت هبوطاً كبيراً . وليس من السهل زيادة الضرائب ، فإن مثل هذا الاجراء من شأنه أن يثير الازمات السياسية ، نظراً للبنيان الفيدرالي للدولة ، وإن جباية معظم الضرائب ، متروكة للسلطات الاقليمية ، كلّ في الاقليم التابع لها .

وبعكس ذلك ، فإن الاتجاه نحو التضخّم قد اوقف في ايطاليا ، وكذلك في فرنسا ، منذ عام ١٩٦٣ . صحيح ان الانتاج الفرنسي لا يزيد بسرعة البرق ، ولكنه على الاقلّ في ازدياد . وامّا الصين ، فهي تشتري الذهب من الاسواق العالمية منذ سنوات ، وقد اقتدت بها فرنسا في حدود امكانياتها ... بينما اخذ احتياطي الذهب في الولايات المتّحدة يسجّل هبوطاً ملموساً . هناك ، بلا ادنى شكّ ، حرب اقتصادية تدور بين الدول الكبرى منذ عشرات السنين ... ومن بين المواد الاوليّة الرئيسية ، هناك مادة تثير اهتمام الولايات المتّحدة الاميركية وحلفائها من اعضاء منظمة حلف شمال الاطلنطي ، وهي البترول ...

وبالاخصّ بترول الشرق الأدنى ... وقد قام نزاع بين شركة بترول العراق البريطانية ، من جهة ، والدول العربية من جهة اخرى ... وقد التفتت هذه الدول نحو فرنسا . أما الولايات المتّحدة فتأمل بأن تتراجع السياسة المستقلّة التي يتبعها الرئيس الفرنسي شارل ديغول في عام ١٩٦٨ ، على أبعد تقدير ؛ فإمّا ان يتنازل ديغول عن مكانه لصالح عملاء اميركا ، وإمّا أن يضطرّ الى الانحناء أمام المشاكل التي لا بد لها أن تظهر بمجرّد وضع مشروع السوق الاوروبية المشتركة موضع التنفيذ . وانفتاح فرنسا على الشرق يبدو وكأنـه المخرج الوحيد ... والواقع ان ، الولايات المتّحدة ، بسبب تشدّدها ، توجّه فرنسا نحو دمشق ... والرياض ... والقاهرة ... وبغداد ... وموسكو .

٢ ــ الحلف الاسلامي ، وسوريا وتركيا

وعلى هذه الارضية الخلفية من الاوضاع الدولية المختلفة التي شرحناها ، ظهر في بداية عام ١٩٦٦ الملك فيصل ، ملك المملكة العربية السعودية ، يدعو عبثاً جميع البلدان الاسلامية الى الدخول في « حلف اسلامي » ، ففضح فيه جمال « حلف بغداد » آخر متستّراً يهدف الى خدمة الاستعمار في الشرق الادنى . وقد رفضت تركيا عرض فيصل في حين أن سوريا عرفت انقلابها التاسع عشر في السنوات السبع عشرة الماضية ، والذي ادّى ، في شهر ابريل ، الى اسناد رئاسة الوزارة الى الدكتور يوسف زعيّن . وعلى اثر سلسلة من المباحثات التي دارت في القاهرة خلال شهري سبتمبر واكتوبر ، تم التوقيع ، في ٤ نوفمبر ، على اتفاقية دفاع مشترك بين سوريا ومصر ، كما تقرر اعادة تبادل السفراء بين الدولتين ، وابرام عدد من الاتفاقيات التجارية . وفي شهر ديسمبر ، وعلى اثر قيام نزاع عنيف بين الحكومة السورية وشركة بترول العراق البريطانية ، طار الى باريس وزير الخارجية السورية ، وأعلن للجنرال ديغول :

« نحن نقدّر سياسة فرنسا البترولية كل التقدير ، تلك السياسة التي ولدت بتوقيعنا الاتفاق مع الجزائر والخاص بالزيوت الهيدرو كربوريّة ، ونريد أن نثبت تقديرنا هذا باعطاء فرنسا نصيبها من البترول ، وحتى باعطائها حقّ تسويق البترول العربيّ بصفة عامة . »

وإذن فإن سوريا بحكومتها الجديدة ، كانت تؤيد تماماً سياسة الصداقة مع فرنسا التي ظلّت الجمهورية العربية المتّحدة تنمّيها .

٣ ـ العلاقات الدولية

ان جميع المشاكل التي كانت موضع نزاع بين فرنسا والجمهورية العربية المتّحدة ، والخاصة بالممتلكات الفرنسية المؤممة أو الخاضعة للحراسة منذ حرب السويس ، سُوِّيت عملياً في نهاية شهر يوليو . وقبل ذلك ، في شهر مارس ، كان وفد برلماني فرنسي يضمّ نوّاباً ديغوليّين ، قد اعرب عن « رغبة فرنسا في اقامة تعاون مثمر مع الجمهورية العربية المتّحدة ، في شتى الميادين » . وبعد هذه الزيارة بقليل ، وصل الى القاهرة وزير فرنسي ، يحمل رسالة من الجنرال ديغول الى الرئيس جمال عبدالناصر . وقام الوزير باتّصالات مع المسئولين المصريين لتنظيم « معرض توت عنخ آمون » في باريس ... وفي ٢٥ مارس ، ادلى الوزير الفرنسي بالتصريح التالي :

« ان انبعاث العالم العربي هو أهم حادث في هذا القرن » .

وكان لهذه العبارة وزن كبير ، خصوصاً وأنها صدرت عن وزير الثقافة الفرنسي ، اندريه مالرو ...

وعلى اثر عودة مالرو الى باريس ، اتصل زعماء الحزب الشيوعي الفرنسي بالاتحاد الاشتراكي العربي ، ودام الحوار بعض الوقت ، وادّى الى ايجاد « مجال واسع للتفاهم المشترك » بين الحزب الفرنسي والاتحاد الاشتراكي العربي . وفي شهر يونيو ، تم التوقيع على اتفاقيات مع بعض الشركات الفرنسية

الكبيرة ، المتخصصة في استيراد الخضروات والفواكه على نطاق واسع . ثم تلت هذه الاتفاقيات ، في شهر ديسمبر ، اتفاقيات اخرى ، تجارية ومالية وعلمية الخ ... وفي هذه الغضون ، قامت البارجة الفرنسية « الزاسيان » بزيارة ودّية لميناء الاسكندرية ، اثارت الانتباه .

وفي شهر فبراير ، قبل المستّر دين راسك ، وزير الخارجية الاميركية ، قبل بصفة مبدئية ، أن يقوم بزيارة للقاهرة . وان دلّ هذا على شيء ، فانما يدلّ على سير العلاقات على طريق التحسُّن . وفي الشهر التالي ، وافق وفد يمثّل البنك الدولي للبناء والتعمير ، اثناء زيارة له الى القاهرة ، على ان يقوم البنك بتمويل بعض المشروعات الهامة المدرجة في الخطة الخمسية الثانية . واعلن الوفد « ان الظروف اصبحت مؤاتية لإقامة علاقات اقتصادية ثابتة مع الجمهورية العربية المتّحدة » .

وفي الوقت نفسه ، بعد أن قرّر جمال رفع اشتراك الجمهورية العربية في صندوق النقد الدولي الى ١٥٠ مليون دولار ، ارسل الصندوق الى القاهرة وفداً ، في شهر ابريل ، ليتّفق مع المسؤولين على اشتراكه في تمويل مشروعات الخطة الخمسية ، في حدود ٧٠ مليون دولار .

أخذ « الطابور الخامس » الصهيوني في الولايات المتّحدة ، والذي كان يبدو قلقاً منذ عدّة اسابيع ، أخذ يشدّد من ضغطه على اعضاء الكونجرس الاميركي ووسائل الاعلام المختلفة ، حتّى جـاءت القطيعة ... ففي شهر مايو ، رفضت الولايات المتّحدة مدّ الجمهورية العربية المتحدة بالمعونة الغذائية التي كانت قد تعهدت بها والتي بلغ مقدارها ١٥٠ مليون دولار ، تدفع بالعملة المصرية . وفي الوقت نفسه سلّمت الولايات المتحدة لأسرائيل — للمرّة الثالثة في سنتين — عتاداً حربياً ضخماً . وفي ٩ مايو ، ادلى جمال عبد الناصر بالتصريح التالي لاحدى الصحف الهندية :

« إن الخلاف بين بكين وموسكو قد شجّع التدخّـل الاستعماري والضغوط الاقتصادية » .

وفي اليوم التالي ، وصل رئيس الوزراء السوفياتي ، الكسي كوسيغين ، الى القاهرة حيث استطاع ، بفضل خبرته الفنيّة الواسعة ، أن يزور ويتفقد بنفسه سير العمل في مشروع السدّ العالي . وصدر بيان مشترك يطالب بتصفية القواعد الاستعمارية . وفي شهر يونيو ، منح الاتحاد السوفياتي معونة اضافية لمصر ، قدرها ١٥٠ مليون روبل ، ثم اعلن بعد ذلك بشهر واحد ، منح مصر مواد أوليّة بما يعادل ١٦٠ مليون روبل ، كانت مصر تستوردها حتى ذلك الحين من الدول الغربية .

ثم اقيمت المظاهرات البحرية ، فبعد زيارة مدمّرتين مصريتين لميناء سيباستوبول الروسي ، قامت ثلاث قطع من الاسطول السوفياتي ، تصاحبها الغوّاصات ، بزيارة ودّية للاسكندرية حيث ترجّل الاميرال السوفياتي ، قائد هذه السفن ، وأدلى بالتصريح التالي :

« ان سفننا تتعرّض باستمرار ، وهي تُبحِر في البحر الأبيض المتوسط ، لتحليق الطائرات الاميركية فوقها ، وهذا يؤكد ضرورة وجود اسطول سوفياتي في هذه المنطقة بصفة مستمرّة ، فهذا أمر يتعلّق بأمننا . »

وحاولت الولايات المتّحدة أن تعوّض ما لحق بها من خسائر نتيجة لسياستها ، فأرسلت سفينتين حربيتين لاجراء زيارة ودّية في بورسعيد ، لأول مرّة منذ اثنتي عشرة سنة . ثم جاءت الى القاهرة شخصيّات شبه رسمية « لجسّ النبض » . ولكن ، في الامم المتّحدة ، طالب جمال مطالبة شديدة بوقف الغارات على فيتنام ... فهو لم يكن يستطيع أن يضحّي بمبادئه من أجل إسترداد المعونة الاقتصادية التي رُفِضَتْ له ، والتي كانت حيويّة تقريباً بالنسبة لبلده . وقد حدّث الشيء نفسه بالنسبة لبريطانيا . فإن الحكومة العمّالية فشلت في محاولاتها اعادة العلاقات الطبيعية مع القاهرة ، بسبب رفض لندن ، على طريقة استعمارية خالصة ، أي تنازلات في عدن حيث تتعاقب الاضرابات وأعمال

العنف ، وتنتشر الى مسقط وعُمان ؛ وكان الجنوب العربي كله يشتعل ناراً ...

وبعد زيارات للقاهرة ، في شهري مايو ويوليو على التوالي ، اجتمع المارشال تيتو والسيدة انديرا غاندي والرئيس جمال عبد الناصر في الهند ، في شهر اكتوبر ، حيث عقدت بينهم مباحثات اقتصادية دامت اسبوعاً . وقد استحلف الزعماء الثلاثة الرئيس جونسون لوقف غاراته على فيتنام ، كما أنهم اقترحوا عقد « مؤتمر للتجارة » في خريف عام ١٩٦٧ ، تدعى اليه جميع الدول النامية البالغ عددها ٧٧ دولة . (١)

وكان أمير الكويت قد استعدّ في القاهرة ، في شهر ابريل ، لمحاولة التوسُّط لحلّ مشكلة اليمن ، الاّ ان المحاولة انتهت بالفشل في شهر اغسطس . وبرغم هذا ، فقد تمكَّن الكويت ، في نهاية العام ، من أن يحصل من جمال على امتيازات هامة بالنسبة لتلك المشكلة ، من بينها رفض الحكومة المصرية تسليم حكومة الجمهورية اليمنية بعض معارضيها الذين أُوقفوا في القاهرة . ولكن ما يسيطر بعد ذلك على السياسة الخارجية ، كثافة حدّة التوتر بالنسبة للمشكلة الفلسطينية . وقبل ان نستعرض هذه المشكلة بمضاعفاتها الجديدة ، يتعيَّن علينا أن نبرز هنا الوقائع الجوهرية التي تتعلَّق بالسياسة الداخلية التي انتهجها جمال عبد الناصر .

٤ — ١٩٦٦ : المشكلات الداخلية

برغم الصفة الشاغلة والخطيرة التي اتسمت بها المشكلات الخارجية ، وبرغم تعقُّدها بالنسبة لرجل يحمل على كتفيه حمل دولة تبدو وكأنها قاعدة دوّارة في وسط الاراضي الآهلة بالسكّان ، فقد استطاع جمال في يناير وفبراير ، أن يكرّس الجزء الأكبر من وقته ومن خواطره ومن طاقته ،

---

(١) وقد عقد هذا المؤتمر (الذي حضره ٨٦ دولة) بين ١٠ و ٢٤ اكتوبر ١٩٦٧ في مدينة الجزائر .

لعملية اعادة تنظيم الاتحاد الاشتراكي العربي ، تلك العملية التي كان لا بدّ من انجازها نظراً لضرورتها الملحّة . فحتّى شهر يوتيو ، راح جمال ينتقل من محافظة الى محافظة ، ويقابل المسئولين المحليين ليتعرّف على المشاكل الحقيقية ، وليخرج من الخبرة الناتجة من الممارسة اليومية ، بأحسن الدروس ، وليستشير ، على الطبيعة ، جميع من يهمّهم الأمر .

واذا كانت مشكلات الاتحاد الاشتراكي العربي أساسية ، فإن هناك ، بلا ادنى شكّ ، مشكلة أخرى تكاد تنازعها الأولوية ، وهي مشكلة التضخّم السكّاني الذي أدّى الى شنّ حملة جديدة ومنظّمة من أجل تحديد النسل ، على مستوى الجمهورية ، وانتشرت حتّى شملت أبعد القرى واصغرها . وليس في وسعنا هنا أن نستعرض نتائج هذه الحملة ، فان الزمن وحده هو الكفيل بذلك .

ولنصرف النظر عن اعتقال بعض الشيوعيين المعارضين الذين كانوا يحاولون أن يقيموا حزباً جديداً في الخفاء ، ولنصرف النظر ايضاً عن قضية الأخوان المسلمين التي بدأت في شهر ابريل ، في الوقت الذي تم فيه القبض على ستة من معاوني المشير عبد الحكيم عامر بتهمة التهريب على نطاق واسع[١] . فإن خطب الرئيس جمال عبد الناصر ، التي تردّدت فيها عبارة « الثورة مستمرة » ، كانت بمثابة تمهيد لتشكيل وزارة جديدة ، في شهر سبتمبر ، برئاسة الوزير الأسبق للصناعة والمشهور بكفآته العالية ، صدقي سليمان . وكان تشكيل هذه الوزارة الجديدة يحمل ، في حدّ ذاته ، اعلاناً عن بذل مجهود جبار من أجل تطبيق الخطّة الخمسية الثانية مع العمل على تجاوز اهدافها ، في حالة الضرورة . وفي ١٠ اكتوبر ، أعيد نظام البيع بالتقسيط ، على أساس من قيود معقولة . وفي ٦ ديسمبر ، أعلن عقب إجتماع خطير لمجلس الوزراء ان جميع الجهود سوف توجه نحو تحقيق جميع أهداف الخطّة الخمسية الثانية ،

(١) وقد حكم على اربعة منهم بالاشغال الشاقة المؤبدة .

بالاستفادة من الكميّات الضخمة للغاز الطبيعي والبترول الذي تم اكتشافها قبل ذلك بشهر واحد... ولولا مشكلة اللاجئين، واسرائيل، ومنظّمة التحرير الفلسطينية والخلافات بين العرب، لكان المستقبل خالياً تماماً من الغيوم. هل كان يمكن للمرء ان يصدّق ان جمال وكبار المسئولين المصريين يريدون الدخول في حرب وبالذات في تلك المرحلة الحاسمة من الجهود التي كانت ستؤدي، بعد ثلاث سنوات أو أربع، الى نهوض الجمهورية العربية المتّحدة كقوّة صناعية كبرى؟ الم يكن جمال هو الذي ادلى بالتصريح التالي، في ابريل عام ١٩٦٥، الى رئيس تحرير المجلّة الفرنسية الكبيرة «حقائق» (Réalités):

«انه يمكن للدول العربية، تطبيقاً لأحد مقرّرات مؤتمر باندونج، ان تقبل وجود اسرائيل، اذا سُوّيت مشكلة اللاجئين وفق قرار الأمم المتحدة بتاريخ ١١ ديسمبر ١٩٤٨»

٥ ــ اسرائيل وجيرانها العرب

في ٥ مايو، كان وزير خارجية سوريا قد استدعى سفراء فرنسا، والولايات المتّحدة، والصين الشعبية، والاتحاد السوفياتي... فمنذ شهر فبراير، كانت اسرائيل تضاعف من الحوادث على الحدود الاردنية والسورية.. ومنذ أول مايو، تعرّضت الحدود اللبنانية بدورها إلى الخرق من جانب اسرائيل. وأعلن وزير الخارجية السوري انه «من الآن فصاعداً، سنواجه الاستفزازات بوسائل ثورية رادعة، ولن نتقبلها مثلما حدث في الماضي، وأرجو أن تفهموا جيداً أن جميع المصالح الاستعمارية في المنطقة ستكون مهدّدة بالدمار التام». وقد أُحيطت جميع السفارات في دمشق بالحشود العسكرية الاسرائيلية على الحدود المجاورة، والتي يبدو انها جاءت مباشرة بعد الاعلان عن المساعدات الروسية الممنوحة لسوريا من أجل تنفيذ مشروع

بناء سدّ ضخم على نهر الفرات . وفي الوقت الذي استمرّت فيه حوادث الحدود حتّى شهر يوليو ، بالنسبة للبنان ، وحتّى آخر أغسطس بالنسبة للاردن[1] ، وبصفة دائمة بالنسبة لسوريا ، تصاعدت خطب الزعماء في كل من دمشق واسرائيل ، وتضاعف عنفها وشدّة لهجتها .

وفي نهاية شهر يونيو ، وأثناء اجتماع لرؤساء الدول العربية في القاهرة ، ردّ رئيس منظّمة التحرير الفلسطينية على الاتهامات التي وردت على لسان الملك حسين ، وتقدّم للاردن بقائمة من عشرة مطالب ، كما ذكّرها بتعهداتها السابقة .. ولم تحلّ الازمة .

ومرّة أخرى ، صدرت امام جمال عبدالناصر وعود جديدة بتأييد اللاجئين الفلسطينيين ، اولاً من قِبَل رئيس وزراء افغانستان ، اثناء زيارة رسمية للقاهرة ، ثم من جانب زعيم تانزانيا اثناء الزيارة الرسميّة التي قام بها جمال ، بعد ذلك بقليل ، ولمدّة اسبوع لذلك البلد الافريقي .

وفي شهر اكتوبر ، تقدّمت اسرائيل بشكوى ضد سوريا متهمة إياها بمساندة غارات الفرق المقاتلة الفلسطينية التابعة لمنظمة « الفتح » ، وذلك بعد أن اعلن رئيس الوزراء الاسرائيلي بأن سوريا سوف تُعتَبَر مسؤولة « عن جميع اعمال التخريب التي يرتكبها الارهابيون المتسلّلون ، في الأراضي العربية المجاورة » .

وبالرغم من هذا التهديد الواضح ، فإن الدول العربية لم تضع حدّاً للخلافات بينها . وفي شهر نوفمبر ، لم تكن قرية سورية هي التي تعرّضت لغارة اسرائيلية ، بل كانت قرية اردنية ... وكان الهجوم عليها مدمّراً ووحشياً ، واسفر عن خسائر فادحة : فقد نسف ١٢٥ منزلاً ، كما سقط ٢٠ قتيلاً و ١٥٠ من الجرحى وكان معظمهم من المدنيين . وقد بلغ من شدّة ردّ فعل

---

(١) في ٢٩ اغسطس ، شنت القوات الاسرائيلية هجوماً واسع النطاق على قريتين اردنيتين ، ونسفت ١٤ منزلا بالديناميت ...

الجماهير الاردنية انه اثار دهشة الرأي العام الاسرائيلي ... ففي جميع المدن الأردنية ، قامت المظاهرات تطالب بالسلاح ، بينما اعرب الملك حسين عن اسفه لعدم تدخّل الجمهورية العربية المتّحدة . وفي ٢٤ نوفمبر ، أدان مجلس الأمن إسرائيل ، بالاجماع ، لشنّها هذا العدوان الدامي .

وقبل ذلك بعشرة ايام ، أي في اليوم التالي للعدوان ، كانت افغانستان وماليزيا والباكستان والصومال قد طلبت من الجمعية العامة للأمم المتحدة تعيين حارس تكون مهمته صيانة وإدارة الممتلكات العربية في اسرائيل وكذلك تحصيل ايراداتها . الاّ أن هذا المشروع فشل في الحصول على عدد الاصوات اللازمة لاقراره ، اذ صوتت ضده ٣٨ دولة (بما فيها فرنسا) ، مقابل ٣٦ دولة صوتت في صالحه و ٣٦ دولة أخرى امتنعت عن التصويت .

وفي شهر ديسمبر ، ساد الهدوء منطقة الحدود السورية والاردنية لبضعة ايام ، في الوقت الذي هاجم فيه الملك حسين منظمة التحرير الفلسطينية ، واستنكر في الوقت نفسه أسلوب إسرائيل . وقال العاهل الاردني :

« إن العمل الفدائي يعطي لاسرائيل حجة لتهاجمنا ولتفرض علينا القتال في الوقت الذي تختاره هي . واذا كنا عاجزين عن منع الارهابيين من عبور الحدود ، فإن اسرائيل تحمل ايضاً نصيباً مماثلاً من المسئولية ، ويجب عليها أن تغلق حدودها . »

وتكرّرت المجادلات بين العرب اثناء انعقاد مجلس الدفاع في ١٠ ديسمبر ... وتبادل كل من مصر والاردن ، وسوريا والسعودية المزيد من الاتهامات . وحاول احمد الشقيري أن يثني الملك حسين ، ثم أعلن في نهاية الامر « انه مضطر للجوء الى اسلوب الحرب الخفيّة » . وهاجمت الصحف والاذاعات في القاهرة وفي دمشق : الملك حسين بالذات ، بسبب « رفضه » السماح للقوّات العراقية والسعودية بأن تدخل الاردن لتتمركز على اراضيه ... وقد أكد العاهل الاردني بشدّة للأمين العام لجامعة الدول العربية الدول العربية

أن حكومته لن تطبّق هذا القرار السرّي الذي تم اتخاذه مؤخراً ، الاّ اذا وُضِعت جميع القرارات الاخرى موضع التنفيذ ، أي اذا دفعت جميع الدول العربية التزاماتهـا المالية في الحـال ! واضاف الملك حسين يقول : « وانه لا بدّ للجمهورية العربية المتّحدة من ان تدخـل في اتصال مباشر مع العدو بازالتها لقوّة الطوارىء الدولية التابعة للامم المتحدة » ... والاّ ، فاذا وقع عدوان اسرائيـلي في المستقبل عـلى الاردن أو عـلى سوريا أو عـلى لبنان فلن تستطيع مصر التدخـل مباشرة ، بسبب وجود قوّات الطوارىء ... (ومن الصعب حقاً معارضة وجهة النظر هذه) ... واستطرد الملك حسين يقول : « ثم ان مصر وعدت بحشود عسكرية هامة في صحراء سيناء وفي قطاع غزّة ... فلتنفذ ذلك ! وأخيراً ، فإن ضرورة عقد مؤتمر قمّة جديد في القريب العاجل ، اصبحت تفرض نفسها ! »

وفي هذه الغضون ، اخذت اذاعة الملكيين في اليمن تهاجم « جمال الخائن الذي يسمح للسفن المحمّلة بالعتاد الحربي الصهيوني ان تعبر من خليج العقبة » ... وأقل ما يمكن أن يقال ، في نهاية عام ١٩٦٦ ، هو ان الحالة كانت « ساخنة » ، ساخنة جداً ؛ ومن المدهش ان المقالات الافتتاحية التي نشرت في مختلف الصحف الخاصة بكثير من الدول ، في نهاية عام ١٩٦٦ ، لم تعكس الدرجة الصحيحة التي سجّلها ميزان الحرارة في منطقة الشرق الأوسط في ذلك الحين .

الفصل العاشر

١٩٦٧ : اشتعال البارود

١ - ١٩٦٧ : مؤامرة ضد سوريا ؟

« انني انصح ، اذا تطلب الأمر ، بالقيام بعملية انتقامية مماثلة لعملية ١٣ نوفمبر . صحيح ان مجلس الأمن قد أداننا ، ولكن توقفت الغارات الاردنية ... واذا تطلّب الأمر ، فسنعطي الكلمة للمصفّحات والطائرات ... »

هكذا تكلّم ، في مستهلّ عام ١٩٦٧ ، رئيس اركان حرب الجيش الاسرائيلي .

وفي الوقت الذي استمرّ فيه تبادل اطلاق النار على الحدود السورية ، ظهر فجأة أمل : فقد وافقت اسرائيل على أن تحضر اجتماعات لجنة الهدنة التي كانت تقاطعها منذ ثماني سنوات... ولكن هـذا القرار لم يخرج بنتيجة ما ، فانه كان مجرّد خداع ، مثلما حدث بعد ذلك ، في عشية عدوان ٥ يونيو ، عندما اعلنت اسرائيل عن تسريح الجيش على نطاق واسع ... وتشجّعت الولايات المتّحدة واسرائيل باستمرار الخلافات العربية القائمة في اليمن وفي عدن ، حيث تتزايد الاضطرابات ، وفي داخل منظّمة التحرير الفلسطينية .

وفي نهاية شهر يناير ، وبعد الزيارة العقيمة التي قام بها في القاهرة احد كبار المسئولين الاميركيين ، استقبل القائد العام للجيش المصري نائب الأمين العام لمجلس الدفاع القومي الفرنسي . وفي ١٣ فبراير ، اصدر جمال اوامره بغلق المجال الجوي المصري لجميع الطائرات العسكرية التابعة للانجلو ــ ساكسون . وبعد ذلك بتسعة ايام ، وصل الى القاهرة مستشار الرئيس الاميركي جونسون ، للشئون الاقتصادية . وقد جذبته رائحة قوية من البترول المتفجر من الآبار الفياضة التي تمّ اكتشافها مؤخراً في منطقة العلمين ، وكان يوم وصوله يوافق عيد الوحدة مع سوريا ؛ وفي خطاب القاه جمال بهذه المناسبة ، اكّد صلابة موقفه ازاء الولايات المتّحدة ، بقوله :

« ... إنهم يريدون مساعدتنا ، ولكنهم يطالبون مقابل ذلك بحق الاشراف على جيشنا ... وقد قلت لهم : لا .. فردّوا بقطع القمح عنّا . ولكننا نفضّل أن نبيع ذهبنا وأن نحصل على القمح من غيرهم ... وقد تمّ ذلك بالفعل ! »

وبعد أن هاجم جمال الانكليز بسبب اراقة الدماء في عدن ، اعرب عن ارتياحه حيال العمل المشترك مع سوريا . وبالنسبة للنزاع القائم بين حكومة دمشق وشركة بترول العراق البريطانية ، تعهّد جمال بإحباط المناورات الاستعمارية التي تهدف الى اثارة العداوة بين العراق وسوريا بشأن البترول .

وفي شهر مارس ، استسلمت شركة بترول العراق امام الحكومة السورية .. وكان هذا بمثابة نصر عابر وقتي في قصة المؤامرة التي كانت تُدَبَّر ضد سوريا منذ أكثر من عام ، على نطاق واسع ... ففي سبتمبر ١٩٦٦ ، اي قبل ذلك بحوالي ستة شهور . كانت بعض الصحف الاسرائيلية تحمل في صدرها عنواناً يقول : « انقلاب فاشل في دمشق ... الصدام بين قوّاتنا وسوريا اصبح لا مفرّ منه » . وبطبيعة الحال ، فإن الدوائر المالية المرتبطة بالبترول كانت تريد أخذ ثأرها ، مهما كان الثمن ... وإلاّ : فانها تعلم علم اليقين أن حركة تأميم البترول سوف تعمّ بسرعة . وسواء رضيت باراقة

الدماء والدموع من عيون المساكين، أم لم ترضَ ، فان نهاية الاحتكارات الاستعمارية المستغلّة مؤكدة ... فعلى المدى الطويل ، سوف يأتي اليوم الذي تتحرّر فيه ايطاليا ، وفرنسا ، واليابان، وروسيا وغيرها من الدول المنتجة ، من براثن التحكّم الأميركي ...

وابتداء من شهر ابريل ، اخذت الحكومة الاسرائيلية تقوم بسلسلة من الاستفزازات المتنظمة ؛ ففي ٢ ابريل استولت على بعض الأراضي التي كانت موضع نزاع ، واخذت تزرعها ، ممّا دفع سوريا الى دعوة لجنة الهدنة الى التدخل ؛ الاّ ان اسرائيل لم تُبْدِ اقلّ قدر من الاهتمام ، فاضطرّت سوريا الى أن تفتح نيران مدافعها ... وتدخلت مصفّحات العدو ... وفي ٨ ابريل ، كانت العاصمة السورية مسرحاً لمعركة جوية بين الطائرات العربية والاسرائيلية . وتدخّل الاتحاد السوفياتي لتوبيخ الصهاينة ، بينما فرضت الامم المتحدة امرها بوقف اطلاق النار ... وتقدّمت كل من سوريا واسرائيل بشكوى امام مجلس الامن .

إلاّ ان المؤامرة ضد سوريا ليست إلاّ قناعاً ... فان المؤامرة الحقيقية كانت موجهة ضد فلسطين وضد شعبها وضد العروبة ... وهي مؤامرة تمّ تدبيرها قبل قيام دولة اسرائيل بزمن طويل ، ثم تم التصديق عليها بموجب الحلف العسكري السري الذي تمّ التوقيع عليه في شهر مايو من عام ١٩٥١ بين اسرائيل وحكومة واشنطون ، والذي لم يكشف عن وجوده الاّ عام ١٩٥٢ ، في الوقت الذي كانت فيه الولايات المتّحدة تدّعي انها ليست مرتبطة الا بالاعلان الثلاثي الذي وقّعته بالاشتراك مع فرنسا وبريطانيا في مايو ١٩٥٠ ، ذلك الاعلان الذي كان يخدم بوضوح مصالح اسرائيل !

يبقى ان رأس رمح المؤامرة كان موجهاً ضد سوريا ، فإذا تخلّت عنها الدول العربية الأخرى ، سقطت الحكومة التقدّمية السورية وانتصرت اسرائيل . امّا اذا تدخلت الدول العربية لمساندة سوريا وردع المعتدي ، قام الصراخ

« بأن العرب يريدون ابادة اليهود » ، تلك القصّة الخرافية التي تجد في الغرب كثيراً ممن يصدّقونها[1] ... ان الولايات المتّحدة تلعب بالنار أو – بعبارة اصحّ – تلعب بالذرّة ... ولكن فشل سياسة جونسون في فييتنام تدفع الولايات المتّحدة الى البحث عن ثأر تأخذه على ارض اخرى . وهذا أمر لا بدّ منه ، لا سيّما وأن الانتخابات تقترب وان المجموعة التي تسيطر على الحكم في واشنطون – خصوصاً اولئك الذين جاءوا الى الحكم بعد اغتيال الرئيس كنيدي – يضعون كل آمالهم في تجديد فترة الرئاسة الحالية .

٢ – عواقب استفزاز ٨ ابريل

قامت الاردن والسعودية بتوجيه اللوم الشديد لمصر :

« لا بدّ ان نظام الدفاع القائم في سوريا كان غير سليم ، والاّ فانّ المعتدي لم يكن يجني ثمرة اعتدائه ... وذلك ، برغم ان اتفاقية الدفاع المشترك بين سوريا والجمهورية العربية المتّحدة كانت سارية المفعول منذ ٩ مارس ... »

« هل يُعَدُّ ذلك عملاً جدّياً يا جمال؟ اذا لم يكن هناك نظام دفاعي ، فمن يستطيع ان يصدّقك عندما تقول ان هناك نظاماً هجومياً ؟ كيف يمكن للمرء الاّ يعتقد انك « تخدع » ؟ هل انت مصمّم فعلاً على ان تقاتل في حالة عدوان اسرائيلي ؟ نحن نعلم انك تفضّل حلّة

---

(١) نحن لا نقصد هنا بعض الناس ، خصوصاً في فرنسا ، من الذين كانوا وما زالوا يعطفون على اسرائيل عن حسن نية ، تحت تأثير بعض الذكريات من نوع (« اليهود قوم من الضحايا ») ... وهنا ، لا بد من طرح سؤال : هل عرب فلسطين هم الذين اضطهدوا اليهود ؟ ... ثم يقال ايضاً عن يهود اسرائيل : « انهم رواد ويعملون بشدة وجدية » ... والحقيقة ان عهد الرواد قد مضى منذ زمن طويل ، ثم ان كون الانسان ضحية وكونه يعمل بجدية لا يمثلان قيماً في حد ذاتها .

الرومان على المدفع ، ومنبر الامم المتحدة على ذوي الرصاص والمعارك ... ولكن ، الا تظن صراحة انك تبالغ في هذا الصدد ؟ ... »

لم تكن اللهجة التي استخدمت في سبيل تأنيب جمال ملتزمة تماماً بالاسلوب الاكاديمي . فان العرب ، لكونهم من سكان منطقة البحر المتوسط ، متعودون على الافراط بالبلاغة وعلى المبالغة في خطبهم التي غالباً ما يُساء فهمها ، وأحياناً تُفهم على عكس ما تقصده عندما تترجم ترجمة حرفية[1]

وفي ٥ ابريل ، تباهى رئيس وزراء اسرائيل علناً بأن بلاده قد تلقت مساعدات عسكرية اميركية ضخمة . ثم اعلن بعد ذلك باثني عشر يوماً :

« ان سبب وجود الاسطول الاميركي في البحر المتوسط ، هو حماية اسرائيل ... »[2]

وطالبت الدول العربية بتكذيب رسمي لهذا التصريح ... ولم يأت شيء من هذا القبيل من قبل الرئيس جونسون الذي كان قد قصده محمد حسنين هيكل بسلسلة من المقالات الرائعة التي استعرضت شكاوى العرب ، والتي اختتمت في ٣١ مارس بالاستنتاج الآتي :

« بعد أن كنا امام احتمال وفاق ، اصبحنا اليوم امام احتمال مواجهة »

وفي الولايات المتحدة ، قامت حملة عنيفة كل العنف وواسعة النطاق ضد الجمهورية العربية المتحدة وزعيمها ، بواسطة الصحافة الخاضعة

---

(١) كثيراً ما ترجمت العبارة العربية الشعبية « فليشربوا من البحر » ، سواء الى اللغة الفرنسية أو الى اللغة الانكليزية ، لا بحيث تعطى معناها الحقيقي ، وهو فرض اجراء غير مرضي بالنسبة للطرف المعنى ورغم انفه ، بل ترجمت بمعنى « فلندفع بهم الى البحر » أو « فلنغرقهم في البحر » ، الخ ... وبصفة عامة ، فان خطب جمال عبد الناصر تترجم ترجمة رديئة ويشوه مضمونها في الصحافة الاوروبية حيث يمكن ان تفهم بعض العبارات « النكتية » على انها عبارات عنيفة تتجاوز حدود اللياقة ...

(٢) نشر التصريح في مجلة (US News & World Report) الاميركية .

للاحتكارات ، وبواسطة شبكات الاذاعة والتلفزيون التابعة لها . وقد بلغ من عنف تلك الحملة ان اضطر جمال ، في ٨ ابريل ، الى احاطة اعضاء الكونجرس الاميركي رسمياً بأن بلده « لا تتلقى ولا تطلب من بلدهم اي مساعدات » .

وأخيراً ، أثير من جديد دور الاسطول السادس الاميركي ، الاّ ان اشكول ادلى ، في نهاية الشهر ، بالتصريح التالي :

« لا يمكننا ان نقيم دفاعنا بالاعتماد على الاسطول السادس ، اذ ان وضعه على اهبة الاستعداد للتدخّل قد لا يتم بالسرعة الكافية » ..

لذلك ، فانه ليس من المذهل ان يكون البرلمان الاسرائيلي قد وافق مسبقاً ، في ٩ مايو ، على جميع الاجراءات الرادعة التي قد تتخذ على الارض السورية . وبتعزيز من هذا التصويت ، اعلنت هيئة اركان الحرب خلال الايام القليلة التي تلت قرار البرلمان ، « ان قلب حكومة دمشق اصبح امراً ضرورياً » . وامام هذه المقاصد ، التي اذاعتها اذاعة اسرائيل ، سادت الشرق الأوسط موجة من القلق الشديد .

وطلب الاسطول السادس من لبنان التصريح له باجراء « زيارة مطوّلة » لميناء بيروت ... وامام ردّ الفعل الشعبي العنيف للرأي العام ، جاء الردّ الرسمي الذي اتسم بشدّة اللهجة : « الى الوراء ! لن يسمح بأي زيارة » ... اما الفرنسيون ، فقد استقبلوا بطريقة افضل ...

ففي ذلك الوقت بالذات ، قام الامين العام لوزارة الخارجية الفرنسية ، بمصاحبة فريق من المعارضين يعدّ بعضهم من كبار موظفي الدبلوماسية الفرنسية ، قام بما اسماه « رحلة عمل » ... وكانت الرحلة ذات مغزى كبير . فبعد ان اجرى سلسلة من المحادثات الودّية مع المسئولين السوريين ، والتي وصفت بأنها تحمل « طابع التفاهم المشترك » ، توجه هذا الوفد الفرنسي الى بيروت ، حيث خاطب رئيس الوفد ، اللبنانيين المتحزّبين لفرنسا ، وصرّح علناً بأن « الوفاق الثلاثي الذي ولد في السويس ، قد مات ... » . ثم

توجه بعد ذلك الى القاهرة ، حيث أجرى محادثات مع الرئيس جمال عبد الناصر ومعاونيه ، استغرقت حوالي اسبوع . وفي ١١ مايو ، اعلن رئيس الوفد الفرنسي في خطاب القاه اثناء مأدبة عشاء رسمية اقيمت تكريماً له :

« ان التقارب بين فرنسا والجمهورية العربية المتّحدة ، انما يقوم على فهمهما المشترك لاستقلال الشعوب ، ولعدم التدخل في الشئون الداخلية للدول الاخرى ، كما انه يقوم ايضاً على تعاون مشترك غير مغرض بينهما ... واذا كنت على وعي بذلك اثناء مغادرتي باريس ، فاني الآن ، وأنا موجود في بلدكم ، واثق منه كل الثقة ... »

٣ ـ الحشود العسكرية الاسرائيلية

قامت السلطات الاسرائيلية ، مخالفة لنصوص هدنة عام ١٩٤٩ ، بتنظيم عرض عسكري في القدس ، في الوقت الذي ترددت فيه انباء عن قيام اسرائيل بحشود عسكرية على الحدود السورية . ومن ناحية اخرى ، فقد اذاع بعض مراسلي الصحف الفرنسيين وغيرهم من الصحفيين ان هناك تحرّكات عسكرية في اتجاه الحدود المصرية . وفي ١٧ مايو ، لفتت سوريا نظر مجلس الامن الى هذا الشأن ، بينما اخذت اذاعة اسرائيل ـ التي يستمع اليها المصريون بكل حريّة ـ تردّد مراراً وتكراراً : « ان جيشنا سوف يزحف على دمشق ليعطي درساً للسوريين » . ولو لم يأمر جمال بعض الوحدات المصرية بالتحرّك من اجل تخفيف الضغط على الجبهة السورية ، لكان قد خرق اتفاقية الدفاع المشترك بين الجمهورية العربية المتّحدة وسوريا ، ولكان قد ظهر بمظهر الخائن للقضية العربية ، برغم حظوته الكبيرة . فقد طلب من الامين العام للأمم المتحدة وحصل بالفعل على سحب قوّات الطوارىء الدولية المرابطة في الأراضي المصرية ، وكان سحب هذه القوّات يمثّل احد المطالب القديمة للاردن ، كما سبق لنا ان شرحناه . وقد اعتبر هذا الاجراء بمثابة انذار

للمعتدي . وفي ٢٢ مايو ، اضطر جمال لأن يعيد فرض حظر الملاحة في المياه الاقليمية المصرية على جميع السفن التي تمرّ من مضيق تيران ، والتي قد تحمل المواد الاستراتيجية لميناء ايلات (التي استولت عليه اسرائيل دون وجه حقّ ، منذ عشرين عاماً) . وفي ٣٠ مايو ، قال جمال :

« ان المسألة ليست مسألة مضيق تيران ، بل حقوق شعب فلسطين . نحن نريد السلام اكثر مما يريده غيرنا ... ولكننا نريده قائماً على العدل » .

وحين أعلن جمال عبد الناصر ان مصر تتعهد بتطبيق قرارات الأمم المتّحدة تطبيقاً دقيقاً ، شريطة أن تقوم اسرائيل بتطبيقها هي الاخرى ، اعطى السكرتير العام للامم المتّحدة تعهداً علنياً بأن مصر لن تبادر بالهجوم[1] . وفي ٣٠ مايو ، وقّـــع الملك حسين في القاهرة اتفاقية دفـــاع مشترك ، سرعان ما انضمّت اليها العراق . وبعد ذلك ، قام جمال ـ الذي لا يؤمن كثيراً بالحرب ، فهو لم يكن قد جنّد اكثر من ثلاث دفعات ، ولا اختار فرقاً من الطراز الأول ـ قام بشنّ المعركة الدبلوماسية . امّا خصومه ، الذين خرجوا من هزيمة السويس بدروس قيّـمة ، فكانوا يتوقعون تركيز المجهود المصري على هذا الميدان ، وعليه فقد استعدّوا خير استعداد بوضع مصايدهم في الأماكن المناسبة .

٤ ـ مصر تشن الهجوم ... في الأمم المتحدة

وفي ٢٨ مايو ، اجتمع مجلس الامن للنظر في شكوى مقدّمة من مصر ، تثير المخالفات المتلاحقة لقرارات الهدنة من جانب اسرائيل ، وتطالب باعادة العمل بلجنة الهدنة المشتركة ، التي كانت اسرائيل تقاطعها بصفة مستمرة منذ عام ١٩٥٦ .

---

(١) ان التصريحات المعادية التي صدرت عن منظمة التحرير الفلسطينية ، جاءت على لسان بعض الاشخاص من غير المسؤولين . ان المنظمة خاضعة للقيادة المصرية ، وقد استغلت هذه التصريحات من جانب الدعاية الصهيونية في اوروبا واميركا .

وقد اعلن السكرتير العام للامم المتحدة رسمياً ، تأييده لهذا المطلب . وفي ٢ يونيو ، فتح مجلس الأمن باب المناقشة على الشكوى المصرية ، ثم تأجلت المناقشة حتّى ٥ يونيو ... وكان الاميركيون قد علموا ، بغضب شديد ، ان تركيا وايران تبدوان وكأنهما تميلان لتأييد العرب ، برغم المعاهدات التي تربط كلاً منهما بواشنطن ، وذلك بتشجيع من بعض الخطب التي القاها الوفد الفرنسي ... الا ان العسكريين الاميركيين والرئيس جونسون ، الذين تابعوا عن كثب جميع الاعدادات العسكرية الاسرائيلية ، بل واشتركوا فيها ، كانوا « متفائلين بالنسبة للمستقبل » ...

وفي الواقع ، فان ايمانهم بفضيلة « الحرب الخاطفة » كان اكبر بكثير من ايمانهم في الشرعية وفي عدالة قضيتهم . ففي ٢٣ مايو ، كانت الولايات المتّحدة قد اعلنت ان اغلاق مضيق تيران يعتبر « عملاً غير شرعي » ، بينما كان من المفروض — حتّى يكون مثل هذا الحكم ذا قيمة ومقبولاً — ان يصدر عن محكمة دولية مختصّة ، ولم تكن الجمهورية العربية المتّحدة ترفض ان تطبق ما قد يصدر عن مثل هذه المحكمة من قرار في هذا الشأن . ان « العمل غير الشرعي » الوحيد ، في هذه القضية ، هو أن تقوم الولايات المتّحدة مقام مثل هذه المحكمة !

كانت حكومة واشنطون ، في الواقع ، تحاول ان تقوم بدور « الشرطي » بحجّة الدفاع عن خُلق منافق ومن اجل الحفاظ على مصالحها المالية في الشرق الاوسط وفي غيره من المناطق ... واخذ الانجلو — ساكسون يقومون بتحرّكات متوعّدة مهدّدة لاساطيلهم ، وحاولوا ان يضمّوا اليهم بلداناً اخرى لتوجيه انذار ، بشكل أو بآخر ، الى جمال عبد الناصر ... ولكنهم لم يحرزوا نجاحاً ملموساً .

ومن جهة اخرى ، كان الاتحاد السوفياتي قد طلب عبثاً ، في ٢٤ مايو ، انسحاب الاسطول السادس من البحر المتوسط ؛ وبصفة رمزية ، اخذت بعض القطع من الاسطول السوفياتي تعبر مضيق البوسفور متّجهة نحو البحر

المتوسط ... وكان المنطق الظاهري للامور يفترض ان يمضي جمال قدماً على الطريق الصحيح ؛ بيد ان اسرائيل كانت تسرع في استعداداتها للعدوان ، وتعلن عن عزمها استخدام القوّة لاعادة حرّية الملاحة عبر مضيق تيران ، في حالة فشل الانجلو – ساكسون في محاولاتهم . وكان وزير خارجية اسرائيل قد صرّح في هذا الخصوص : « لقد حدّدنا مهلة معينة ننتقل بعدها الى العمل ، وهذه المهلة لا تعدّ بالاشهر ولا بالاسابيع ... »

وفي هذه الظروف ، ادلى الجنرال ديغول بتصريحاته المعروفة لدى الجميع ، والتي رفعت من شأن فرنسا في العالم وعادت بها في طريقها الطبيعي ، وهو طريق الامانة ، والخلق ، والحقوق الدولية ، طريق السلام . فقد أعلن الجنرال أنه سوف يدين ويلوم الدولة التي تبادر باستخدام الاسلحة ، على ان « المشاكل موضع النزاع (مضيق تيران ، واللاجئين ، الخ ..) يجب ان يبتّ في امرها بناء على قرار دولي » ... وقبل كل شيء ، شعر جمال وشعرت مصر كلّها بنبالة مشاعر فرنسا الممثّلة في شخص رئيسها[1] . وبفضل ذلك ، استطاعت فرنسا ، في بضع ساعات ، ان تسترد جميع ما كان البعض يظنّ انها خسرته لعشرات السنين أو حتى للأبد ، لا في مصر فحسب ، بل في سائر العالم العربي وفيما وراء حدوده .

ان العوامل المُطَمْئِنة بالنسبة لجمال كانت ، بلا شكّ ، تبادل الرسائل مع الرئيس جونسون ، والزيارة المنظورة لنائب رئيس الجمهورية زكريا محي الدين للعاصمة الاميركية . وكان الرئيس جونسون قد بعث ، في منتصف شهر مايو ، برسالة الى رئيس الجمهورية العربية المتّحدة ، يبدو انها قد شجّعت العدوان الخاطف ، ممّا يثبت خير اثبات حقيقة ما كتبه الكاتب الاميركي الاسرائيلي جون بيتي عام ١٩٥٠ ، في كتابه « الستار الحديدي الـذي يحيط بأميركا » :

(١) ولم يكن احد يدرك أن ديغول ، باتخاذه هذا الموقف الجرىء ، يثير غضب المعارضة ضده ، وتذمر بعض انصاره .

« ان جميع رؤساء الولايات المتّحدة ومعاونيهم ينحنون امام الصهيونية مثلما ينحني اي رجل امام قبر مقدّس . وقد بلغ من قدرة الاقليّة اليهودية في الولايات المتّحدة الاميركية ، ومن طموحها المفرط ، ان اميركا تجد نفسها ، بسبب هذه الاقليّة ، مهدّدة بأخطار متوالية وبحرب عالمية ثالثة . »

٥ ــ العــدوان

وفي ٥ يونيو ، وقبل بدء المناقشات الاعتيادية المسالمة في مجلس الأمن ببضع ساعات ، بدأت اسرائيل عدوانها ... ومعروف ان ذلك العدوان قد تمّ إعداده بعناية منذ سنوات ، على اساس مبدأ الهجوم الخاطف الشامل والمفاجيء (Blitzkrieg) ، الذي طبّقته المانيا الهتلرية عام ١٩٤٠ ، والذي طبّق ليتناسب والظروف الراهنة ، بواسطة خبراء اميركيين واعضاء في الجيش الاسرائيلي من الذين درسوا في فييتنام . وقد اسقطت المدفعية المصرية المضادة للطائرات عدداً كبيراً من الطائرات الاسرائيلية من طراز « ميراج » ، ولكن كان قد فات الأوان ... فإنّ مدارج معظم المطارات المصرية كانت قد تعرّضت للقصف ، واصبحت غير صالحة للاستعمال ، وكان من أثر مفاجأة العدوان ان العدد الاكبر من الطائرات المصرية قد سُمّر في الارض ، بينما نسف عدد كبير منها كليّاً أو جزئياً ... ان النزعة السلمية الصادقة ، السليمة الطويّة ، والسيرة الطليقة الفوضوية التي يتميز بها المصري ، المتوسط ، والتي تجعل منه رجلاً ودوداً خفيف الروح ، قد دفع المصري ثمنهما غالياً ... ولكن هناك مسئولين آخرين ، اولئك الذين تركوا الجاسوسية الاميركية تعمل بحريّة تامة في مصر ، منذ سنوات ... فعندما قمنا بزيارة للقاهرة عام ١٩٦٠ ، ذُهلنا لمشاهدة جامعة اميركية تعمل هناك ، وقد استغرب اصدقاؤنا المصريون ؛ ولكن كانت خبرتنا ، نحن الفرنسيين ، في هذا المجال تفوق خبرتهم ...

فكلٌّ يكتسب خبرته في أوانه . وهناك ثغرة اخرى ، وهي رواسب العهد البائد ، وبقايا الفساد ... فالى جانب الضباط الكرام والبواسل ، كانت هناك فئة من الضباط من الذين ضلّلهم المال ، و الدخل غير المشروع ، والنساء ... وكل هذا يلقي ضوءاً على بعض الأسباب التي جعلت من المقاومة المصرية قوّة غير قادرة وغير كافية . وفي رأينا، أن الانتصار الاسرائيلي قد نجم عن الاستعداد الدقيق للعدوان ، وعن دقّة المعلومات الاميركية الخاصة بمختلف المطارات المنتشرة في الصحاري ... ومن ناحية اخرى ، فان العون المباشر من قبل الولايات المتّحدة وبريطانيا ، المحدود مادّياً والكلّيّ معنوياً ، حقيقة اخرى لا بدّ ان تؤخذ في الاعتبار . وقد قال جمال بنفسه « انه ليست لدينا ادلّة على اشتراك اميركا في العدوان ، ليس لدينا سوى بصمات أصابع اميركا »...

وبالنسبة لسير العمليّات العسكرية بالتفصيل ، فهناك الكثير من القصص الخرافية ، كتبت ليتسنّى لبعض الصحفيين والمعلّقين المرتجلين ان يشبعوا غلّتهم ، وحساسيتهم وقدرتهم على الابتداع والانشاء . وهناك بعض الاحداث[1] لا يمكن ان يُعلّق عليها بعد ، لأسباب مختلفة ... وان جلسات مجلس الأمن ، التي أخذت تبثّها اذاعة صوت اميركا – التي يُسمع ارسالها بحريّة في القاهرة على الهواء مباشرة كانت تعكس التواطؤ الوثيق بين الانجلو – ساكسون والصهاينة ... وكان لا بدّ من كسب الوقت ، حتى يتاح لاسرائيل ان تستغلّ الفرصة المؤاتية لها، فأخذ الانجلو – ساكسون يناورون لتأجيل تنفيذ قرار وقف اطلاق النار ، بقدر الامكان ... وفي ٧ يونيو ، وجه الاتحاد السوفياتي انذاراً لاسرائيل ، تحدّد فيه موعد تنفيذ القرار في التاسعة مساء ... الاّ ان اسرائيل ، وفي الوقت الذي قبلت فيه الاطراف الاخرى وقف اطلاق النار ، ووضعته موضع التنفيذ ، واصلت عدوانها في كل بقعة تجد فيها مصلحة لنفسها .

---

(١) وعلى سبيل المثال محاولة اسرائيل اغراق سفينة التجسس الاميركية « ليبرتي » ، التي كانت قد قدمت العون للاستخبارات الاسرائيلية ، واذاعت أوامر من شأنها ان تفشل سلاح المدرعات والمشاة العربية .

مثلاً ، كان لا بدّ لاسرائيل ان تستولي على المرتفعات السورية التي تقع بالقرب من حدودها وتطلّ على دمشق ... واذا كان هذا الموقع يمثّل مركزاً استراتيجياً هاماً ، من الناحية العسكرية ، فقدكان يمثل ايضاً نقطة مرور انابيب البترول التي تهمّ الانجلو ـ ساكسون ... وبالاضافة الى ذلك ، فان هيئة اركان حرب الجيش الاسرائيلي ما زالت راغبة بمشاهدة « مجزرة دمشق »، وسقوط حكومة نور الدين الاتاسي ... ولكن ، فشلت اسرائيل ، وقد ترتّب على عنادها نتائج لم تكن متوقعة .

فقد وجهت يوغوسلافيا وجميع دول حلف وراسو ، انذاراً جماعياً لاسرائيل ، ثم أكّدت موسكو هذا الانذار بعد صدوره ببضع ساعات ، وبلهجة بلغ من شدّتها ان اذهلت المعتدين ... ولم يكن جونسون في مركز يسمح له بأن يتعرّض لخطر نشوب حرب عالمية ، فهو يعلم علم اليقين ان الاسطول السادس قابل للإنجراح اكثر ممّا يتصوّره احد ، ثم يعلم ايضاً ما يمكن لمثل هذا الاحتمال أن يلحق بجيشه العدواني في فيتنام من مأساة ... والشيء الذي لم يكن جونسون يعلمه هو ان جميع المنظّمات الخاصة بالزنوج في اميركا تستطيع ، في حالة نشوب حرب عالمية ، ان توجه ضربات حاسمة من الداخل ...

وأوقفت اسرائيل اطلاق النار ... انه انتصار ، ولكنه في الوقت نفسه هزيمة ... فقد وُفّر سكّان دمشق ، ولم تنسف منازل الضواحي ، ولم تسقط الحكومة السورية ، ولم تتكبّد سوريا خسائر كبيرة كما كانت هناك ايضاً محاصيل زراعية ضخمة لم تقع في ايدي العدو ... ومن ناحية أخرى ، كانت نتيجة عناد اسرائيل ، انه منح الشعب المصري حيوية جديدة ، على الاقلّ في القاهرة ، حيث عشنا ذلك اليوم ، لا في النوادي او في مكاتب الوزارات ، بل في وسط الجماهير الشعبية ، في الترامات ، وفي المقاهي والمطاعم الشعبية ، ومع بائعي الخضروات ... ونحن نستطيع أن نشهد بأن هذا الشعب كان يعلم تماماً أن الجيش المصري ، المحروم من معدّاته الهجومية ، قد انسحب الى

منطقة القناة ، وانه قد كفّ عن القتال ؛ وفي الوقت نفسه ، كان جميع المصريين يفكّرون في اخوانهم السوريين الذين يواصلون الكفاح ، وجهاً لوجه ، ضد عدو سفّاك ... كانوا يتخيّلون المعارك وهي تدور في الشوارع ، والعدو وهو يجمع قوّاته لتنفيذ مشروعه القائم على الحقد والثأر . وقد تبع اولى نتائج الهزيمة من الذهول والجمود شيء غريب في تلك الظروف بالذات : التصميم والعزيمة ... كان كل فرد يستمع دون انقطاع الى الانباء ، بواسطة جهاز الاستقبال « الترانزستور » ... في المقاهي ، وفي وسائل النقل المشترك ، وفي الشوارع ، وفي كل مكان ، كانت هناك موجة جديدة من الحيوية ... كان المواطن الشعبي يضع نفسه مكان جمال ، ويشعر بأنه لكونه انساناً ذا قلب كبير ، لم يكن ، حتى آخر لحظة ، يريد أن يؤمن بسفك الدماء ، وبالأسلحة ، وبمذبحة الابرياء ... ولكنه كان ايضاً شعوراً بضرورة الصمود امام التيّار والسير بعكس مجراه ... وعندئذ ، شعرنا بمدى الطاقة الخارقة التي اثارها انعدام الضمير الاسرائيلي ضده ... لم تسمع ضحكة واحدة أو مزحة في تلك السهرة ، ولا « مسرح » لتسلية المتفرّجين ، بل كان هناك تأثر وانفعال امام الكارثة التي لم يُشهد لها مثيل في مصر منذ قرون طويلة ... لقد كان يوماً تسوده الجدّية والرزانة والتصميم ، فلو كانت الاذاعة قد اصدرت نداء للشعب بأن يتسلّح بالعصي ويتوجه الى السويس ، لكان قد نفذ هذا الأمر في الحال ، وزحف الى هناك بجميع فئاته ، من موظفين ومدرّسين وحتى الكثير من البورجوازيين . ومنذ تلك اللحظة ، أدركنا أن نصر العرب مؤكد ... وان المقاومة السورية في وجه الاعصار الاسرائيلي المنقضّ على دمشق بعد وقف القتال ، ستلعب ، بلا ادنى شكّ ، دوراً هاماً في هذه الحرب .

الفصل الحادي عشر

الاستقالة المستحيلة

١ ـ تلك الليلة ...

ان الهزيمة المصرية كانت ، قبل كل شيء ، هزيمة القيادة العليا . كانت الاسئلة ترتفع من كل مكان بصخب وضجيج : لماذا لم تكن القيادة ، في ساعة المحنة ، قد رفعت من بعض القيود التي كانت قد فُرضت ـ لاسباب سياسية ، أو لمجرد « عدم استمزاج » ، من يعلم ؟ ـ على بعض الخبراء العسكريين من الطراز الاول ؟ لماذا لم يُستمع إلى التحذيرات التي كانت تصدر منذ سنوات عديدة عن اولئك الذين كانوا يكتشفون في الجيل الجديد من الضباط الذين حلّوا محل الضباط الاحرار ، عدداً كبيراً من الضباط « التنابل » المتزوجين غالبا من نساء غير مُعَدّات لدور زوجات رجال قد يصبحون ابطالا ؟ لقد نمت ، بتأثير من البيئة العائلية ، عقلية بورجوازية جديدة ... وقد قال لنا احد الضباط المتقاعدين البواسل ، عام ١٩٦٣ : « عندما تدق ساعة القدر ، سوف يفعلون مثلما فعل ضباطكم انتم الفرنسيين في عام ١٩٤٠ ، فسوف يتفرّقون على اثر أول ضربة لاذعة مفاجئة ... » وفي يونيو ١٩٦٧ ، هناك ايضا من سأل : « لماذا لم تُقَرّر التعبئة العامة

بالفعل ؟ لماذا كان عدد المجندين بهذه القلة ؟ » .

كانت القيادة العامة هي المشير عبد الحكيم عامر ، الذي اراد ان ينتحر حتى قبل أن تنتهي العمليات ... وهذا شيء يمكن ادراك اسبابه ، فان ثقة جمال ، اعز اصدقائه ، هي التي وضعته في هذا المركز المليء بالمسئولية الضخمة . فالى جانب المأساة الجماعية للهزيمة ، بكل ما تضمنته من خسائر قليلة في الارواح وانما هائلة بالنسبة للمعدات الحربية ، كان ثمة مأساة الصداقة الشخصية ... موضوع مأساوي عجيب ، بغني عن كل تعليق [1] ومن ثم فمن الممكن أن نفهم أن تكون كتفا جمال قد رزحتا تحت هذه الاعباء التي تراكمت عليهما بمثل هذه السرعة .

وتكلم الرئيس ... واستمعت الأمة بأسرها إلى خطابه في الاذاعة والتلفزيون ... وأعلن جمال قراره بالتنحي ، وأضاف انه ، تطبيقاً للدستور ، قد سلّم جميع سلطاته لنائب رئيس الجمهورية زكريا محي الدين ... ولكن هنا ايضاً ، اهتزت قوى غريبة تكمن في قلب الشعب ، بتأثير كلماته البالغة غاية البساطة ... وكان بجانبنا رجل وزوجته ، وهما مصريان من أصل لبناني ، كانا من « ضحايا » القوانين الاشتراكية ومن اشد اعداء هذه القوانين وأعداء جمال عبد الناصر بكل تأكيد – فاذا بعينيهما تفيض بالدموع ، واذا بهما يردّدان « ولكنه لا يستطيع ان يفعل ذلك ! ليس من حقه أن يفعل ذلك ! » ... وقد شهدنا بعد ذلك بقليل ، دون ان نفهم في بادىء الامر ، عشرات من الاطفال ، تتراوح اعمارهم بين الثامنة والثانية عشرة ، ينهضون فيشكلون الصفوف مثلما يفعلون في المدارس ... وكانوا يقولون انهم في انتظار طالب كبير ، كي يقودهم إلى منزل الرئيس « حتى نطلب منه ان يبقى ... »

---

(١) مأساوي مثل فرار موضوع انتحار الجنرال رينيه دي لارمينا ، في فرنسا ، منذ بضع سنوات . (وكان هذا الجنرال معروفاً جيداً في القاهرة ...) .

ولم يكن ثمة اية انفعالية زائفة . فلئن كانت بلاغة جمال تمسّ الروح مسّاً عميقاً ، فإنها ابسط انواع البلاغة :

« سأعود لاعمل بين الجماهير ، وسأقوم باداء واجبي كأيّ فرد منكم ... وفي الوقت الذي أترككم فيه ، اريد أن اقول ان قلبي معكم ، وآمل أن يكون قلبكم معي . »

ومنذ المساء ، ومنذ الليل ، من الاحياء الشعبية وكذلك من الاحياء الراقية ، بدأت سيول بشرية تتوجه « نحو جمال » ، إلى منزل الرئيس ، ناسية الساعات والنوم ... من المدن ، ومن قرى الريف ، زحفت طوابير من الرجال والخيل والجمال ، وما لبثت ان صحبتها زمزمات الناقلات المحمّلة بما يفوق حمولتها من الكتل البشرية ، وباصات خلقتها المناسبة خلقاً ، ووافدون جدد يمتطي بعضهم ظهور الحمير والبعض ظهور البغال ، وجرّارت زراعية تحمل اهرامات بشرية ، كما في السيرك ... كان الجميع يهتز ويزحف ... حتّى اذا طلع الفجر ، انبثق مشهد عجيب : عاصمة كبيرة ، تفوق مساحتها مساحة باريس ، غشيتها امواج شعبيّة هائلة ، لا تُعَدّ بمئات الالوف مثلما حدث عام ١٩٣٦ ، بل بملايين ... تلك الملايين التي كانت قد صفقت مراراً لجمال ، والتي كان الزعيم قد انتظر عبثاً ، في ١٩٥٢ ، « سيرها ، صفوفاً متراصة ، في زحفها المقدس » ... ها هي ذي اخيراً ، صفوفاً متراصة ، ها هي بالملايين ؛ ولكن ليس في ساعة النصر ، بل في ساعة الضيق ، ساعة الأصدقاء الحقيقيين ، ساعة المحنة ... ولا يمكن لمن لم يشاهد الزحف الكبير بنفسه ، أن يتصور شوارع مصر الجديدة الواسعة مثل شارع الشانزليزيه ، وقد امتلأت بحشود لا حصر لها ، حتى اصبح من المستحيل مرور بائعي المرطبات والسندوتشات والحلوى ...

وحانت ساعة ذهاب جمال إلى مجلس الامة ... وتقدمت سيارة الرئيس ثم اضطرت إلى التوقف على بعد امتار ... ودار حوار بين الرئيس والجموع

المحتشدة امام منزله :

— « لقد تعهدت أن اواجه مجلس الامة ... »

وردّت عليه الجماهير :

— لن تمر ! ... إبق ... فكل ما يمكنك أن تفعله هو أن تقول لأعضاء مجلس الامة : سأبقى ، وانا أسحب استقالتي ...

إن هذا الشعب كان يعرف ما يفعله جيداً ، برضىً وبشاشة ، وسيكون خطأً فادحاً أن يظن المرء أن في ذلك اندفاعاً عاطفياً أو هوَساً أو تعصباً[1] ولقد اتيح لنا ، في ذلك اليوم ، أن نتحدث مع حوالي عشرين شخصاً ، من مختلف الاعمار ومن مختلف الفئات الشعبية ، فكانت آراؤهم جميعاً بالنسبة للحالة الراهنة ، واضحة ، ذكية ، متزنة ، ولم نسجل ردود فعل انفعالية الا عند بعض الطلاب « المثقفين » ، برغم انهم ينكرون ذلك ...

وإذن ، فان « معجزة شعبية » ، كانت تجعل من « الكارثة » انتصاراً . وبدفع من الطاقة الشعبية الهائلة ، استعاد جميع المسئولين — باستثناء واحد أو اثنين — شجاعتهم ، واتخذوا امام الجماهير موقفاً يقوم على الكرامة والأمل. وقد وصف الرئيس هواري بومدين هزيمة ٥ يونيو بقوله « إن العرب قد خسروا معركة ، ولكنهم لم يخسروا الحرب» ، ملمّحاً بذلك إلى ذكرى هزيمة اعظم من هذه بكثير ، بالنسبة للشعب الفرنسي . غير أن مدى الهزيمة كان موضع مبالغة شديدة في بلدنا ، بفضل الصحافة التي تعتمد على الإثارة ؛ فإنه لم يكن هناك نسبة بين هزيمة ٥ يونيو وهزيمة فرنسا عام ١٩٤٠ : إذ أن

---

(١) بادرت الحكومة اللبنانية ، وتبعتها الحكومات العربية الاخرى ، الى ارسال برقية لجمال : تطالبه فيها بالعدول عن قراره ، كما اذاع زكريا محي الدين ، ومن بعده البوليس ، على موجات راديو القاهرة ، بيانات تحمل المعنى نفسه . وفي سائر انحاء العالم العربي ، أرسلت المخابرات والبرقيات : « إمنعوه من الاستقالة ! » .

احتلال النصف الشمالي من بلدنا مكّن هتلر من الاستيلاء على أخصب اراضينا الزراعية ، وعلى الجزء الاكبر من ثروتنا الحيوانية ومن طاقتنا الصناعية ومن شبكة السكك الحديدية . ولا يمكن مقارنة هذه الغنيمة بما حصلت عليه اسرائيل من بعض الثروات المعدنية التي عثر عليها موءخراً في شبه جزيرة سيناء ، تلك المنطقة الصحراوية الجبلية الشاسعة ، والتي يصعب الدفاع عنها عسكرياً . اما قناة السويس ، فاذا كانت حيوية بالنسبة لمصر ، منذ سبع سنوات أو ثماني ، فهي اليوم قد فقدت نصف حيويتها ، نظراً للتقدم العظيم الذي حققته مصر في مجال التصنيع ، وبفضل المكاسب الضخمة التي تعود للدولة من المنشآت المتعددة التي تشرف عليها . إن المعركة الخاسرة لشهر يونيو ١٩٦٧ تمثل هزيمة صغيرة بالمقارنة مع احداث مايو ١٩٤٠ ، التي جاءت في وقت كانت فيه التعبئة العامة قد تقررت منذ زمن بعيد ، وكانت الجيوش متمركزة في مواقعها ، على أهبة الاستعداد لمواجهة الاعتداء .

٢ – ردود الفعل في فرنسا

وعلى كل حال ، فان الجماهير الفرنسية مكثت على حالة الحكمة ووضوح الروءية [1] . وان هذه الثقة الجماهيرية في الدبلوماسية الفرنسية وفي مبادئها الأساسية كما في رجالها ، قد فاتت بعض المراقبين الأجانب ، الذين تحمسوا في الاهتمام المبالغ به بردود فعل طبقة فوقية من الرأي العام (يحاول آخرون أن يقللوا من شأنها) مكوّنة من رجال الاعلام المحترفين ، ومن عدد كبير من المثقفين . فان رد فعل عدد كبير منهم كان صادراً عن « تعاطف » ...

(١) نشرت مجلة « اكسبرس » استفتاء للرأي العام الفرنسي دل على ان ٧١ الى ٧٢ ٪ من الاشخاص الذين سئلوا كانوا يتمنون وقف الاعمال الحربية فوراً ، وانسحاب القوات المسلحة خلف حدودها ، وعدم تدخل فرنسا ، إلا لتحدد المعتدي من الفريقين الذي بدأ بالعدوان ، ولتعامله على هذا الأساس .

« إن تعاطفنا يتجه إلى إسرائيل » ... « إننا متعاطفون مع إسرائيل » ... وهناك عدد كبير من بين هؤلاء ، طرأ على موقفهم هذا تغيير منذ حرب يونيو الماضي . وكان موقفهم ، في الوقت الذي هددت فيه الحرب العالمية بالانفجار ، يقوم على توجيه من عواطف غامضة تكاد تكون ، في بعض الاحيان ودون أن يشعر صاحبها ، قد أصيبت بعدوى العنصرية المناهضة للعرب ... ففي الوقت الذي يصرخ فيه كل من النازح والمغلوب على امره ، ويطالبان باحترام الحق والعدالة ، يرفض اولئك الناس مجرد الاطلاع على ملف القضية ، وذلك بسبب حسن منظر المتّهم !

والآن ، وقد دخلنا مرحلة ما بعد ١٢ يونيو ، وهي مرحلة الأحداث الراهنة ، وأصبحنا لا نستفيد من أي رجوع إلى الوراء ، فستكتفي بابراز بعض الحقائق التي تستحق الاهتمام والتي سوف تعود بنا ، في النهاية ، إلى جمال عبد الناصر ، وإلى الدور العالمي الذي أسنده اليه القدر .

ففي ٥ يوليو ، في الامم المتحدة ، صوّت على قرار باغلبية مطلقة يطالب بانسحاب القوات الاسرائيلية من الاراضي المحتلة ، انسحاباً فوريا . بيد ان هذا القرار لم ينل أغلبية الثلثين اللازمة لتنفيذه . وكانت من بين الدول الافريقية ، البالغ عددها ٣٢ دولة ، اربع عشرة فقط صوتت في صالح المشروع ... وكان ذلك بمثابة فشل لجمال عبد الناصر ولجهوده المواظبة من أجل الحصول على تأييد الحكومات الافريقية للقضايا العربية ... كما كان نجاحا لمناورات خصومه . الا انها كانت ايضا مسئولية ثقيلة ، قبلت أن تتحملها امام التاريخ ، الدول الافريقية العشر التي امتنعت عن التصويت [١] ، والدول الثماني الاخرى [٢] ... انها لمسئولية كبيرة حقاً ، اذ أن نفوذ منظمة

---

(١) اثيوبيا ، تشاد ، ساحل العاج ، فولتا العليا ، داهومي ، جمهورية افريقيا الوسطى ، نيجر وروااندا .

(٢) مدغشقر ، توجو وستة بلدان تتكلم الانجليزية هي ليبيريا ، ملاوى ، غانا ، جامبيا ، =

الامم المتحدة قد مُسّ ... وأية سابقة هي ! سابقة ربما كان ضحاياها الاولى القادمة هذه الدولة أو تلك من الدول الافريقية الصغيرة ، المعدومة من القوات المسلحة أو تكاد ...

ويبدو المناخ العام وكأنه مسموم ... وكما سبق للرئيس الاميركي الراحل ، جون كينيدي ، أن أعلنه ، فان مجرد قيام الاتفاق بين الدولتين العظيمتين لم يعد كافيا ، فإنهما لن تتمكنا من فرض هيمنتهما على عالم تسوده الآلام ويُضرّب فيه الحق عرض الحائط ... وإن العلامات المنذرة بنزاع عالمي جديد تتضاعف كل يوم . وهل تستطيع فرنسا أن تظل على هامش مثل هذه الحرب ، اذا وقعت بالفعل ؟ إن ثروتها الزراعية ، ومركزها الاستراتيجي يجعلان منها قاعدة كبيرة الاهمية بالنسبة لأي من الخصوم ، وبما أن مثـل هذه الحرب ، ينتظر أن تكون صراعـاً حتى الموت ، فيكون من الميئوس منه أن تتوقع فرنسا موقفاً معتدلاً ازاءها من المتنازعين ، أياً كانوا .

وبالنسبة لمن لمسوا الحرب وعاشوا في ظروفها ، فان عبارات « نابالم ، وفوسفور ، وجراح ، وتشويه ، والآم ، وحرمان ، ووباء ، وانحطاط » ليست بالعبارات الخالية من المعاني ... وفي الحقيقة ، ليست سوى بعض نقاط من برنامج العرض الكبير والاخير للسيرك الدولي للابادة المشتركة ... فهل هناك سبيل للخلاص غير اللجوء إلى منظمة دولية للأمم المتحدة ، برغم اجراءاتها المسخطة ، وبرغم الصبر الكبير الذي تتطلبه المباحثات في اطارها ، وبرغم مناقشاتها الطويلة والدقيقة ، ذلك اللجوء الذي كان جمال عبد الناصر وما زال بطل الأخذ به اسلوباً ، بفضل تمسكه بالتعهد الذي قطعه على نفسه اثناء حرب فلسطين [1] .

— بوتصوانا ، وليسوتو (التي اعلن مندوبها بأن مصلحة أمن بلده تقتضي أن يصوت «مثلما يرغب مندوب جنوب افريقيا » ...) .

(١) راجع الفصول الأولى .

هذا هو الموقف الذي لا يتزعزع والذي اتخذه جمال عبد الناصر في نهاية شهر سبتمبر ١٩٦٧ . واذا كان الزعيم العربي قد اكد ضرورة البحث عن تسوية دبلوماسية ، فليس في ذلك ما قد يثير الدهشة ؛ ولكن البحث عن تسوية دبلوماسية لا يعني الاستسلام ، ولا يعني الخضوع للعنف ، ولا يعني التنازل عن المبادىء ... إن الاستقالة المستحيلة لجمال عبد الناصر امام شعبه لتحمل في حد ذاتها استحالة تراجع رئيس الجمهورية العربية المتحدة امام القدر وامام مهمته ... فـــان باني مصر الحديثة ، وزعيم جزء من العالم غير المنحاز ، لا يستطيع ان ينسى الجرح الذي يحمله في قلبه كل انسان اتيح له أن يدرك مأساة اللاجئين ، سواء كان عربيا ، أو مسلماً ، أو مسيحياً أو من انصار اللاادرية . وقبل أن نحاول أن نتيح للقارىء أن يختبر آلام هذا الجرح المفتوح ، نرى من واجبنا اولا أن نستعرض بسرعة العمل الهائل الذي حققه ، في أقل من خمسة عشر عاما من ممارسته للسلطة ، احد احفاد فلاحي قرية بني مرّ .

خاتمة

مهما يحدث ، فان جمال عبد الناصر قد استطاع أن يحقق ، في فترة ١٥ سنة ، الأمل الكبير الذي كان يتطلع اليه الشيخ محمد عبده ، وهو الهدف القومي الأكبر : الاستقلال ... وفي عصرنا الحديدي ، كان هذا الاستقلال يتطلّب أن تُدنِّس سماء بلد الشمس بدخان المصانع الأسود . ولكن ، ليس هذا بالامر المزعج ، فإن أبا الهول قد شهد اسوأ من ذلك ... لقد سارت عملية التصنيع وقطعت شوطا كبيراً ، مما اذهل الاقتصاديين . فبعد مرور عشر سنوات على طرد فاروق ، بدأت مصر تصدر المنتجات الصناعية ، مثل الثلاّجات الكهربائية ، والطباخات ، والغسالات ، والاثاث المعدني الخ.. ثم أخذت تصنع الطائرات الحربية والصواريخ ، وكذلك الوقود الذري اللازم لتشغيل مفاعلاتها . وإن المعونة التي تقدمت بها لبعض الدول النامية ، لم تضم المهندسين الزراعيين فحسب ، بل شملت ايضا خبراء في مختلف ميادين العلم التكنولوجي ...

اما الصناعة الثقيلة فهي في طريق الانجاز . وفي كل عام ، يضاف إلى الرقعة الزراعية مساحات شاسعة من الاراضي المستصلحة ، لا تقاس بمئات الهكتارات ، بل بعشرات الالوف من الهكتارات ، إلى أن تقاس في المستقبل بالملايين من الهكتارات ، بعد الانتهاء من تنفيذ اضخم مشروع في القرن العشرين واكثره طموحاً ، وهو مشروع السد العالي . ولنضف إلى ذلك أن

الثورة الناصرية قد استطاعت أن تعيد النظام الداخلي ، وأن تحدّ من الاوبئة الاجتماعية والامراض ، مثل البلهارسيا ، ومرض السكّر ، وغيرها من الامراض . [1]

قد ينتهي جمال ، ولكن سرعان ما ينهض غيره ليحلّ محله ، كما سبق أن اعلن مراراً وتكرارا . فمن بين الاعضاء الكثيرين لفريقه القديم الذين ما زالوا حاضرين ، ومن بين المعاونين ذوي القيمة العظيمة والذين انضموا ، على مر السنين ، إلى الفريق الاول ، هناك الكثير من الشخصيات الجديرة بقيادة السفينة التي استطاع الرئيس أن يعوّمها من جديد .

وبفضل نشاطه وشجاعته في ١٩٥٦ ، ردّ جمال الثقة إلى جميع الدول المستقلة الصغيرة أو الدول التي اوشكت أن تستقل . وبعد أن اصبح من زعماء العالم الثالث ، اثبت بأمثلة رائعة ، أن المفاوضة لا تلغي التمسك بالمبادىء ، وأن الاعتدال يمكن أن يكون مثمرا ، وأن اللاعنف يجب ان يحترم في جميع حدود الامكان ... وبرفضه الاعتراف بتقصير الامم المتحدة المستمر ، بسبب عجزها واخفاقاتها العرضية ، كما أنه على الصعيد الخاص لا يمكن لعجز قاض أو لخطأ يكون قد ارتكبه أن يؤثر على قيمة القانون ، فان جمال قد ضرب مثلاً رائعاً على الخلق الدولي .

وإن فكرة الوحدة العربية ، التي هي جزء لا يتجزأ من السعي وراء السلام (وهو هدف مشترك لشعبي مصر وفرنسا ، كما سبق للامين العام لوزارة الخارجية الفرنسية أن اعلنه في القاهرة اثناء زيارته في شهر مايو الماضي) ، وأمل من آمال شعب يتكون من حوالي خمس عشرة دولة من

---

(١) ونزعة الاجرام ، وهي ليست هامة بالمقارنة مع الاجرام في أوروبا واميركا ، قد سجلت هبوطاً ملموساً . اما تعاطي الحشيش ، وهو داء اقل خطورة من تعاطي الخمر في الدول الغربية ، فقد سجل ايضاً هبوطاً ، وكذلك عادة ختن البنات (والتي تقل خطورتها اهمية مما يتصوره البعض) .

الدول « المعنية » مباشرة ، لهي ايضا في الحقيقة أمل من آمال ٧٠٠ مليون مسلم وكثير من الزعماء السياسيين في مختلف الدول. ونحن نشارك رأي المؤرخ البريطاني ارنولد توينبي ، حينما قال إن هذه الفكرة — فكرة الوحدة العربية — تمضي قدما ، بل هي في الواقع في سبيلها إلى التحقيق [1].

ان العمل الذي انجزه جمال عبد الناصر ، سيظل من اكبر وأروع الأعمال في التاريخ ، اذا لم تقض عليه الحرب ... إن مصر ، ومعها بعض الدول الأخرى من الدول غير المنحازة ، تظل وفيّة ، بقيادة زعيمها ، لدعوة الاسلام ودعوة « القارة الوسيطة » التي تمتد من جبل طارق حتى اندونيسيا ، وتشكل ، بين الكتلتين الكبيرتين حيث تسود « حضارة الجماهير » بكل ما تحمـــله من ظروف لاانسانية وتصنيع متضخم واسلحة شيطانية وتغذية تزداد تشوّها على مر الايام — تشكل هذه الدول حزاما واقيا عريضا حول الكرة الارضية ، تحقيقاً لما جاء في القرآن :

« وكذلك جعلناكم امة وسطاً »

ان على الاسلام ، بوفائه غير المتزعزع للقيم الروحية ، وبحاجزه الليّن الذي يقيمه في وجه الماديّة المتزايدة ، ان على الاسلام ، بانصاره المجهولين وزعمائه السياسيين المشهورين على السواء ، أن يواصل سيره على السراط المستقيم ، دون ان يترك لجانب أو لآخر ان يلوّثه ... وفي الظروف البيئية التي وجد نفسه فيها ، ونظراً للقوى الساحقة التي تثقل عليه من كل جهة ، استطاع جمال عبد الناصر أن يعمل كل ما في وسعه ، كأيّ عامل مخلص ؛ لقد قام ، وما زال يقوم خير قيام بالدور الاستثنائي العظيم الذي اسنده اليه القدر .

---

(١) بل وانها ايضاً متشخصة ، منذ سنوات ، في الاغاني البديعة النقية التي تغنيها أم كلثوم والتي هي اقتباس لاثمن ولأروع ما يحويه الادب العربي العريق .

ملحق

١ - الاشتراكية العربية

« ان شعبنا يؤمن بالرسالات السماوية ، فهو يعيش في المنطقة التي كانت مهد الاديان السماوية »

(الميثاق)

كان غوته يردد : « ان النظريات ، يا صديقي ، رمادية ، اما شجرة الحياة الرائعة فتظل دائماً خضراء »... ان « الاشتراكية العربية » ليست « نظرية رمادية » ، أو نظاماً صلباً ينبثق من الافكار الفلسفية المسبّقة . ففي محاولة اولية لمعالجة القضية ، يمكننا أن نصفها بأنها شكل من اشكال « الاختبارية » (Empirisme) ، على حد قول ادجار فور . وفي الواقع ، فان « الاشتراكية العربية » ، تتشعب جذورها عمقاً بحركات فكرية مرتبطة تماماً بجوهر الاسلام نفسه . وسوف نعود ، فيما بعد ، إلى هذه النقطة .

محاولة اولية لتحليل « الاشتراكية العربية »

عند أول وهلة ، تبدو « الاشتراكية العربية » وكأنها نتيجة لرد فعل الشعب ازاء الظلم الاجتماعي ، لا « بصفة عامة » ، بل الظلم الاجتماعي في شكله الراهن بالنسبة لزمان قيامها ومكانه ، أي في الشكل الذي واجهته ثورة ١٩٥٢ . وبعبارة اخرى ، فان « الاشتراكية العربية » هي نتيجة

رد فعل الشعب ازاء «مجتمع النصف بالمئة». وانطلاقا من هذا الوضع بالذات، من هذا الوضع المعاش، قامت الخطوط التوجيهية الرئيسية التي وردت في الميثاق[1] :

ا ـ ان مبدأ الانسان الحر[2] هو اساس المجتمع (الباب السادس)

ب ـ ان القيم الروحية الخالدة المنبثقة من الاديان، كفيلة بان ترشد الانسان، وان تضيء حياته بالايمان. وان تثير في نفسه طاقات وافرة من اجل الخير، والحق والمحبة. وجميع الرسالات انما كانت، من الناحية الانسانية، ثورات متجهة نحو الكرامة والسعادة[3] (الباب السادس).

ج) ان العنف يجب ان يرفض، بكل حد من حدود الامكان، ومن ثم خضوع طبقة لدكتاتورية طبقة أخرى[4].

د) يجب ازالة الاستغلال وتوزيع الثروات توزيعاً منصفا، كما يجب ضمان تكافوء الفرص للجميع، والقضاء على المشاغل والقلق بالنسبة للمستقبل المادي، وهي عوامل مميزة للحالة البروليتارية.

---

(١) أن النصوص المترجمة للميثاق ليست خالية من العيوب؛ واللجوء الى النص الاصلي باللغة العربية ضروري بصفة عامة.

(٢) بالمعنى الروحي للكلمة، او بمعنى الـ «توماسية» (Thomisme).

(٣) بالنسبة للتوماسية، التي اصبحت في القرن العشرين، الفلسفة شبه الرسمية للكنيسة الرومانية، فان سعي الانسان وراء السعادة هو عمل مطابق للخطة الالهية؛ ويمكن ان يسير جنباً الى جنب مع السعي وراء الكمال.

(٤) إذا كان كل مجلس شعبي متتخب يجب ان يتكون من ٥٠ ٪ على الاقل من العمال والفلاحين (وعلى سبيل المثال: فان كل دائرة تنتخب اثنين من المرشحين، احدهما على الأقل يجب ان يكون عاملا أو فلاحاً)، فان الاتحاد الاشتراكي العربي، وهو يمثل البنيان السياسي الاساسي للدولة، ليس بمثابة «الحزب الواحد» الذي قد يتطلب قيامه عملية فرز دقيقة تقوم على الوحدة العقائدية. فبعكس ذلك، جميع فئات الشعب ممثلة فيه؛ الفلاحون وسكان المدن الكبرى، والعمال، والفقراء، والأثرياء، وذوو المهن الحرة، والمثقفون والرأسماليون، الخ...

هـ) واخيرا ، فان الملكية الخاصة والوراثة شرعيتان ، على الا يترتب عليهما اي استغلال أو سيطرة الاشخاص أو الدولة . وأن الملكية الفردية ولا سيما الملكية الزراعيــة ، يجب أن تشجع وتنمّى . والرأسمالية الخاصة ، التي لا تقوم على الاستغلال ، لها مكانها في المجتمع [1]

بعض الملاحظــات

في جميع انحاء العالم ، ينتشر القطاع العام اكثر فأكثر . الا أن المسألة تختلف كل الاختلاف ، حسبما تطرح بالنسبة لدول بلغت من نموها حد التضخم (فيكون هنا تدخل الدولة قائما على الخوف من القدرة الجبارة والدور الحيوي للبنوك ، والاحتكارات وشركات التأمين) ، أو بالنسبة للدول الضعيفة النمو ، حيث كانت احيانا رؤوس الاموال الاجنبية بمثابة

---

(١) بالنسبة لهذه النقطة ، فان الميثاق يحدد تدخل الدولة على النحو التالي :

١) تدخل على نحو التبعية التامة للدولة ، ويشمل ذلك البنوك ، وشركات التأمين ، ووسائل النقل الاساسية (مثل السكك الحديدية ، والنقل البري ، والموانيء ، والمطارات) ، وكذلك المصادر الهامة للطاقة (السدود ، ومحطات القوى الكهربائية ، الخ) .

٢) تدخل على نحو الخضوع التام لاشراف الدولــة ، ويشمل الصناعات المختلفة ، والتجارة الخارجية التي تلتزم بتخصيص ٢٥ ٪ من نشاطها للقطاع الخاص .

٣) تدخل على نحو اشتراك الدولة بنسبة لا تقل عن ٢٥ ٪ ، ويشمل ذلك قطاع التجارة الداخلية .

٤) تدخل على اساس مراقبة الدولة واشرافها اشرافاً دقيقاً ، ويشمل ذلك قطاع الاسكان (بواسطة العوائد التصاعدية على الاملاك ، وتحديد الايجارات ، وتنميــة الاسكان التعاوني) : وتطبيق قوانين الاصلاح الزراعي (حتى تحول دون قيام اقطاع جديــد قد ينشأ عن وجود عائلات متعددة الاطراف وبمتلك كل منها الحد الاقصى من المساحة المسموحة وفقاً للقانون ، مما يمكن اسرة مكونــة من ٢٠ شخصاً ان تستعيد لنفسها املاكاً تبلغ مساحتها ٨٠٠ هكتار . لذلك ، فان القانون قد حدد الملكية الزراعيــة بالنسبة للاسرة الواحدة ؛ كما حدد مهلة تمتد على ثماني سنوات ، تباع فيها المساحات المتجاوزة للحد الادنى ، سواء للافراد أو للجمعيات التعاونية الزراعية) .

السيد الحقيقي ؛ والاستعمار والرأسمالية – اللذان لا يمكن فصلهما – هما السبب الرئيسي لارتفاع الاسعار والنمو غير الطبيعي للاقتصاد الوطني . ثم إن الدول النامية تريد أن تحقق التصنيع باسرع وقت ممكن . فهل يمكن تحقيق ذلك بدون تخطيط ؟ وعلى ضوء ما سبق ، فان هناك بعض الحجج التي لا يستطيع المرء أن يسمعها دون أن يبتسم استهزاء ، مثل « الربح الفردي » الذي يقال انه كان في الماضي . « مصدراً للتنمية والازدهار » . وهنا ، يتساءل المدافعون عن « الاشتراكية العربية » : تنمية ماذا ؟ وازدهار من ؟ الم يكن في هذا القول نوع من الارتياح لما حققه النظام الرأسمالي طوال القرون الماضية ، من ازدهار على نطاق واسع ، انطلاقا من المؤسسات المصرفية والشركات التجارية العالمية التي اقيمت في القرن السادس عشر ؟ ان الاوربيين كانوا يمارسون الابادة بالجملة في اميركا ، ويخضعون الهنود الحمر للاشغال الشاقة التي كانت تقضي عليهم ، ويفرضون على الزنوج اشكالا اخرى من العبودية الوحشية للغاية ... وكانت النتيجة ان المعادن الكريمة اخذت تتدفق ، بكميات هائلة ، على مختلف الدول الاوروبية وتحدث خللا في الاقتصاد الاوروبي الذي كان يعاني ، في ذلك الوقت ، من وجود بعض الملوك المنافقين الذين افسدوا عملتهم . وقد حدث ذلك في الوقت ذاته الذي قام فيه الاصلاح البروتستانتي ، والغى فيه ذلك القرار الحكيم بمنع الربا والذي كانت المسيحية قد ظلت متمسكة به حتى ذلك الحين ، اسوة بالاسلام الذي ما زال متمسكا به حتى عصرنا الحالي ... انه لتسرع خطير أن يرتاح البعض لهذه الحضارة القائمة على « الربح الفردي » ، والتي ولدت في بحر من الدماء افسد معظم التقاليد الدينية ، وقضى على القيم الروحية من اساسها في الوقت الذي كانت فيه تلك القيم ما زالت قوية ، وفتح الابواب لبعض اساليب للحياة اثبت التحليل الماركسي انها اساليب تتسم كلها بالمادية والانحطاط . وربما كان من المذهل ، ومن المخالف للحشمة ، بالنسبة لانسان شرقي ، أن تُمَجّد هذه الحضارة الرأسمالية في هذا الوقت بالذات ،

وبعد ان تسببت في الدمار والخراب، وفي الجرائم المتعددة الاشكال والالوان ، وفي تشوش الشباب ، وفي تخلي الابكار عن مسئولياتهم وفي الحروب المتلاحقة ... ان القتلى لم يعودوا يُعدون بعشرات الالوف ، بل بعشرات الملايين ... وبعد ضحايا الغازات السامة ، من منكوبي الحرب العالمية الاولى ، والذين كانوا يموتون بعد اصابتهم بخمسة عشر أو بعشرين عاما ، اصبح لدينا اليوم ضحايا القنابل الذرية ، وشهداء الفوسفور والنابالم ... في جميع البلدان ، يسود القلق نفوس الحكماء ... صحيح أن « القوة الدافعة » للربح الفردي قوة جبارة ، ولكن ، إلى اين تدفع بنا ؟

وبالمقابل ، فان امام المسئولين عن الاقتصاد في مصر وفي الدول النامية الاخرى ، بلداناً غير رأسمالية ، بلداناً سجل فيها التصنيع وعلم التكنولوجيا تقدماً ملموسا ومرضيا ... وهذا هو ما كان يرتله أول قمر صناعي سوفياتي ، بعد أن اطلق في الفضاء ، واتخذ لنفسه مدارا حول الارض ، وعندما كان يمر بانتظام فوق الولايات المتحدة ، وهو يبث نغمته التهكمية ... الم تكن روسيا ١٩١٧ هي اعظم مثال للدولة المتخلفة اقتصاديا ؟ الم تكن اشتراكية لينين ، وهي عبارة عن تطبيق للماركسية في بلد متخلف انتصرت فيه الشيوعية (بعكس تقديرات المذهبيين الذين كانوا يتوقعون أن دكتاتورية البروليتاريا ستقام اول ما تقام في دولة بلغ نموها الصناعي درجة التضخم) الم تكن هذه الاشتراكية هي التي استطاعت بالتغلب على اكبر المشاكل ، ان تقود روسيا على طريق التقدم ، وتنهض بها إلى اعلى قمم النهضة العلمية ؟

ما يمكن لحضارة الدولار، حضارة الإثارة الجنسية والمخدرات ، أن تقول للدفاع عن نفسها ؟ تلك الحضارة التي ينشر فيا كتّاب مشهورون و « مربّون » مجلات مخصصة للمخدرات ، ويشجعون فيها الجمهور على تناولها ، تلك الحضارة التي تفقد المسألة الجنسية فيها غالباً كل اتصال بالطبيعي ،

إلى حد انها تؤدي إلى « الطفالة » ، [1] ، وإلى العشق المنحط ، وإلى العقم وإلى الشذوذ على اقبح اشكاله، تلك الحضارة التي تُطارد فيها حشمة النساء بجميع الوسائل وأحقرها ، ما تستطيع أن تقوله للدفاع عن نفسها ، تلك الحضارة القائمة على القصص الخرافية الهزلية ، وعلى القمار ، والتي تمجد النجوم السينمائية ، والتي تبدو متوجهة نحو انجاب جيل جديد من المتخلفين والآليين ؟ انها حضارة تثير الشفقة والأسى ... وحينما ينهار هذا العالم العابد الدماء والذهب ، فربما جر في سقوطه جميع الحضارات الاخرى ، وهذا هو الخطر الكبير الذي تهدد به حرب عالمية . وحتى يتسنى لنا ان ننقذ أغلى وأثمن ما يمكن انقاذه ، يبدو أنه لزام علينا أن نتجنب الحرب ... وكما قال الرئيس جمال عبد الناصر ، فان الحرب «كل يعرف كيف تبدأ ، ولكن ليس هناك من يعلم كيف تنتهي » ... وإن الظروف الراهنة تتطلب المزيد من القادة السياسيين القادرين على العمل الجدي والمتمتعين بوضوح الرؤية وبصلابة الاعصاب ... الا ان الظروف الراهنة تتطلب ايضا وجود المؤسسات المطابقة لهذه الفترة الانتقالية ، وهذا هو ما تسعى الاشتراكية العربية أن تحققه ، على ضوء التجارب .

ان الاشتراكية العربية ليست مجموعة جديدة من المبادىء الاساسية ، فهي ليست جديدة ولا هي مجموعة من المبادىء .

الاشتراكية والدين والعروبة

الغنى وظيفة اجتماعية وعلى الغنيّ أن ينفق المال .

« وأنفقوا مما آتاكم الله »

« ... والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله ، فبشّرهم بعذاب أليم » [2]

---

(١) الاحتفاظ بخصائص الطفولة الجسمية والنفسية والعقلية .

(٢) سورة التوبة ، الآية ٣٤ .

إن اديان الهند تقول بالمثل ، بل إن البابا ليون الثالث عشر ، في منشوره الصادر عام ١٨٩١ بعنوان « الشئون الحديثة » (Rerum Nesarum) ادان الرأسمالية بمقدار ما تذل الانسان ... وبعده ، لم يتردد البابا بيوس الحادي عشر في أن يؤكد : :

« ان الدولة تستطيع أن تصبح المالك الشرعي لوسائل الانتاج ، وخاصة اذا كانت تلك الوسائل توفر لاصحابها قدرة من شأنها أن تسيء للصالح العام . »

اما البابا يوحنا الثالث والعشرين ، فقد تجاوز هذا القول بكثير ، في منشوره الصادر عام ١٩٦١ بعنوان « الام والمعلمة » (Mater et Magistra) ، والذي جاء فيه :

« ان بناء الاشتراكية يمكنه ، بل يجب أن يحقق بحيث تجنى الثمار المرتبطة بها ، وبحيث تمحى أو تقهر تأثيراتها السلبية . فالاشتراكية احدى مميزات عصرنا ، وهي ثمرة من ثمار الاتجاه الطبيعي للانسان نحو التحالف من اجل تحقيق ما يتعذر على الطاقات والوسائل الفردية أن تحققه من أهداف مشتركة ... »

على هذا النحو ، يبرر التوافق بين الاشتراكية والدين ، في الوقت الحاضر ، حتى في مصر . الا أن الاشتراكية العربية ـ وهذا ، في رأينا ، أمر جوهري ـ تندرج ايضا ، شاء البعض ام ابوا ، في حركة فكرية تؤثر على الاسلام منذ القرن الثالث عشر ، على يد ابن يتيمة ، وهو من اكبر المفكرين في التاريخ . وبدفع من هذا المفكر ومن كبار تلاميذه ، اصبحت هذه الحركة اطارا للقومية وال « وحدوية » العربيتين الناشئتين . ولنكتف هنا أن نذكر بان دراسة مؤلفات ابن تيمية وانصاره قـد اثرت بشدة على حركتين كبيرتين ، راحتا تتطوران حتى ادتا ، في القرن العشرين ، إلى قيام مملكتين عربيتين قويتين هما المملكة الوهابية . التي انتصرت في العربية السعودية ، قبل عام ١٩١٤ بقليل ،

والمملكة السنوسية ، التي انتصرت في ليبيا بعد ١٩٤٤ بقليل .

وقد أخذ بناة الاسرة السنوسية ينشرون نُظمهم التعاونية خلال فترة ٦٠ سنة ، حتى عام ١٩١٠ ، على اراض كانت احيانا معادية ، وفي اسوأ مناخات العالم العربي وافريقيا ... وكان اعظم تلك المجتمعات بلدة شغبوب التي اقامها السنوسي الأكبر في واحة تقع على الحدود بين ليبيا ومصر ، نموذجا للنظام التعاوني ، وقد تحولت من واحة جافة ، في خلال بضع سنوات ، إلى مركز من اهم مراكز الاشعاع العلمي والديني ، بعد أن اقيم فيها جامعة اسلامية بثت أضواءها من المحيط الاطلسي حتى الشرق الاقصى . ومن حول هذه الجامعة ، التي قامت على نظام متين من المراتب (اذ أن اعضاءها كانوا منقسمين إلى ثلاث دوائر ، كل حسب مستوى معارفه ومؤهلاته) ، عاشت جموع من التجّار والصناع والنقالين والمزارعين ، حتى تحولت الواحة إلى مدينة صغيرة ، كما ارادها مؤسسها ، ومنظمة وفقا لتعليماته . ولم يكن في وسع الرحالة الاوروبيين الذين كانوا احيانا يعادون الاسلام ، أن يخفوا ذهولهم وأعجابهم امام النتائج العظيمة لهذا العمل الجبار الذي تحقق على ارض غير مخصبة ... فان الواحات المصابة بالملاريا والتي كانت درجة ملوحة ارضها تحول دون تنمية الزراعة فيها ، كانت تتحول إلى بساتين شاسعة شبيهة بالجنة ... وعلى طول الطرق التي تعبرها القوافل ، اقيمت المجتمعات وتمركزت في نقط المواصلات ... ثم إن لهذه « الامبراطورية من المجتمعات » شئونها المالية ، ووزراءها ، وقطبها وهو زعيم الطائفة الذي يشرف على كل شيء ويترك في الوقت نفسه حرية واسعة لكل مركز لأدارة شئونه الداخلية . وقد اخذ البدو الرحالة ، وملوك الممالك السوداء المجاورة ينضمون الى هذا المجهود الضخم حيث استطاع الاسلوب الروحي في اعلى مستوياته أن يتحالف مع المجهود الرامي

إلى اقامة مجتمع متوازن من الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية . وقد استشرى الاستعمار الغربي في محاربة هذه المنجزات العظيمة ، بقتل رجال الدين ، وبتشريد اعضاء تلك المجتمعات ، وباشعال النار في المباني . وقاتل السنوسيون وانتصروا بعد ربع قرن من المعارك الدامية .

ولم تنطفىء الشعلة ، وظلت الدعوة السنوسية قائمة، من اجل الاسلام ، ومن اجل الانسانية جمعاء ، تلك الدعوة التي تقول : اذا اردتم انقاذ الروح ، فاعملوا بجهد لاقامة المدينة التي من شأنها أن تحافظ عليه وتصونه ، مع جميع الرجال ذوي النية الحسنة .

ولن نتكلم هنا عن المجتمعات التي اقيمت في الجزيرة العربية بدفع من ابن سعود نفسه ؛ إن ما نقصده هو أن نشير فقط إلى أن الاشتراكية العربية ليست مصرية فحسب ، بل ان جذورها تمتد إلى تقاليد قديمة تستمد منها نسغها . وهذه الحقيقة تجد مصداقها في الوحدة العربية ، وفي بقاء المجتمع الاسلامي ، وفي التقارب الذي نشاهده احيانا بين مصر وليبيا والسعودية بالنسبة لمشاكل معينة تبدو احيانا وكأنها موضوع خلاف بينها .

الحركة التعاونية

برغم الاهمية البالغة للجمعيات التعاونية الاستهلاكية التي تنمو بنجاح في القاهرة وكذلك في القطاع الريفي ، والتي تحد من ارتفاع الاسعار وتعرض في كثير من الاحيان بعض السلع ذات المستوى العالي ، فاننا سوف نقتصر هنا على الجمعيات التعاونية الزراعية . وقد كان لا بد من اقامة هذا النوع من الجمعيات ، نظرا للمشاكل المتعددة التي اعترضت سبيل صغار الملاك ، وبصفة خاصة المشاكل المتعلقة بالمحاصيل المطلوب زراعتها ، وكيفية تسويقها ، وكيفية الحصول على القروض اللازمة لتمويلها . لذلك ، فقد اصبح كل مالك جديد من المنتفعين من قانون الاصلاح الزراعي ، مطالباً بالانضمام

إلى جمعية تعاونية زراعية[1].

وقد ترتب على النتائج المتعددة لتطبيق قانون الاصلاح الزراعي ، م
استعمال الاساليب الجديدة للعمل الزراعي ، ومن تقسيم الاراضي ، ضرور
انشاء ادارة عامة يكون من شأنها أن تشرف على النظام التعاوني . وبالفع
فقد زاد الانتاج ، كما تم تخطيط المحاصيل وتصنيفها على اساس متطلبا
الاقتصاد الوطني . ولكن ، سرعان ما بدأ الفلاح المصري ، المعرو
بتعلقه بمذهب الفردية ، ينخر غاضبا ويشكو من هذه الاجراءات ، مد
انها « تحدّ من حريته » ... الا انه استسلم ، بفضل عقله الراشد وواقعيته
امام النتائج العظيمة التي كانت قد تحققت في القرى الاخرى التي قبلت
دون اعتراض ، جميع الاساليب الجديدة التي ادخلت فيها ... فتكاثر
المصانع الصغيرة مما ضاعف من تنمية مختلف الصناعات المفيدة لانماء الريف
واستطاع الريفيون أن يفلتوا من براثن المرابين ، كما أن عمليات تحويل م
الأنهار اثارت اعجاب الفلاحين اكثر من اساليب الاسكان الجديدة
والخدمات الاجتماعية والثقافية من مختلف الانواع ، التي تتطلب بعض
الوقت حتى تندمج في العادات والتقاليد .

---

(1) ان من واجب هذه الجمعيات ، وفقاً للقانون ، وعلى ضوء الاحتياجات الحق
لأعضائهـــا :
ا) أن تمد الفلاح بالمواشي ، وبالبذور ، والسماد ، والآلات الزراعية ، ووس
النقل والوقاية .
ب) أن ترشد وتدرب الفلاح بالنسبة لمختلف انواع المحاصيل ، واختيار البـذو
واساليب الري ، ومحاربة الآفات .
ج) أن تتكفل بتسويق المحاصيل الرئيسية لحساب الاعضاء ، وأن تخصم الاقساط المست
على الفلاح عن ثمن أرضه ، أو عن سداد ديونه أو الضرائب المستحقة عليه .
د) أن تقيم مرافق الخدمات الاجتماعية والتعليمية الخ ...

الاتحاد الاشتراكي العربي

ان الاتحاد الاشتراكي العربي مُكلّف بان يُعنى بتطبيق الاشتراكية تطبيقاً صحيحاً ، فهو لا يشرع ولا ينفذ بل يوفر المجال اللازم للمناقشة ، ولاقتراح المشروعات ، وتقديم التوصيات والمقترحات على مجلس الامة للتصديق عليها تمهيداً لاحالتها على الحكومة لتنفيذها . وبعبارة اخرى ، فان الاتحاد الاشتراكي العربي يوجـه ويشرف ويراقب ، وعليـه فإن مجالسه عـلى مستوى المحافظات وعـلى جميع المستويات الدنيا ، تكون بمثابة « مجالس استشارية » تتيح الفرصة للعناصر الجادّة أن تبذل الجهود ، وتشترك في الادارة ، مما يعطيهم خبرة ثمينة وقيّمة . وبالنسبة للحكومة ، فان الاتحاد الاشتراكي العربي يمثل خير وسيلة لاتصاله مباشرة بالرأي العام . واخيرا ، فان الاتحاد الاشتراكي العربي هو عكس الحزب الواحد تماما .

تقدم التوعية الوطنية

ان التوعية الوطنية — التي كانت من اهم مشاغل الشيخ محمد عبده ولا سيما جمال عبد الناصر — قد حققت تقدماً كبيراً وسط الجماهير الشعبية وفي صفوف الطبقات الوسطى . وقد كتب مورينو [1] في هذا الشأن ، يقول :

« ان منظر المواطنين المجتمعين حول رجل مثقف يطالع الصحف بصوت عال ، أو المتحلقين حول جهاز استقبال لسماع احدى خطب عبد الناصر ، لهو من المناظر التي تستحق المشاهدة . فهي تجمعات شبيهة بالتي نشاهدها في باريس ، امام محلات بيع اجهزة التلفزيون ، والتي تهدف الى متابعة سباق الدراجات حول فرنسا . وما من شك أن الشعب المصري ليس اقل

(١) كان يزاول مهنة التدريس في مصر لمدة عشرات السنوات ، وقد نشر ، عام ١٩٦٤ ، مؤلفاً بعنوان « مصر » ، يعد سجلا يعكس الحياة المصرية احياناً بامانة كبـيرة ، باستثناء بعض الاخطاء الفنية بالنسبة للاسلام .

نضوجا من الشعب الفرنسي بالنسبة للسياسة ، فهو يعلق على الشئون العامة اهتماما شديداً ومتزايدا ... والتلفزيون ، الذي ادخل في مصر عام ١٩٦٠ ، يمثل اهم وسائل الاعلام . لذلك ، فكل من يرغب الحصول على جهاز تلفزيون يتمتع بتسهيلات غير عادية .

« واذا كان الشعب المصري – الذي اعتاد الكثير من المراقبين الاوروبيين الذين سبق لهم أن اقاموا في مصر ، أن يقللوا من شأنه بجعله مماثلا لشعب من الخدم – اذا كان هذا الشعب المصري يوجه اهتماما حقيقيا وملموسا للسياسة ، فان السبب لذلك هو أن الحكومة الحالية قد منحته المزيد من المنجزات والمشروعات الضخمة المبشرة بالخير الكثير . »(١)

واذن ، فقد انتصرت الثورة فيما يتعلق بهذه النقطة الجوهرية ، اذ أن الوعي القومي الحقيقي قد تطور بالفعل ، ودون ظهور العيوب القصوى المترتبة على التوعية السياسية . وبالنسبة للانسان الغربي ، فان التوعية تعني ، في كثير من الاحيان ، العمل ، والمهنة ، والانتاج ... فكيف يعبر عن العمل في مصر ؟ وهل يعمل الناس في مصر ؟

العمــل

اذا كان الميثاق يعلن « أن العمل حق ، العمل واجب ، والعمل شرف » ، فلنحمد الله لعدم وجود اتجاه نحو عبادة العمل ، تلك العبادة التي الحقت ببلدان اخرى اضرارا جسيمة بتشويهها لبعض المفاهيم الاساسية . ولسوف نتعرض لهذه النقطة بالتفصيل فيما بعد . اما بالنسبة للسؤال الثاني ، فسنجيب عليه بالاشارة إلى ما جاء في مقال ، نشرته منذ بضع شهور ، الصحيفة

---

(١) من بين الامثلة التي ذكرها مورينو ، الاصلاح الزراعي ، والسد العالي ، ومشروع الوادي الجديد ، ومشروع توسيع قناة السويس .

الالمانية « بيلد زايتونغ » (Bild Zeitumg) لمراسلها كلاوسجون هآف (وهو يعد ايضا من كبار المعلقين السياسيين للاذاعة والتلفزيون الالماني) بعد أن قضى الصحفي وزوجته بعض الوقت في الجمهورية العربية المتحدة.
كتب هذا الصحفي يقول :

« لقد قال المؤرخون مراراً إن مصر هبة النيل ومهد الحضارات. ولكن مصر ليست ذلك فحسب ، بل انها ايضا ذلك البلد الذي حقق تقدما صناعيا وتكنولوجيا رائعا ، بمرأى من التماثيل الحجرية الضخمة لعهد الفراعنة ، التي تشاهد هذا التطور باعجاب كبير. ان مصر ليست سوى تلك الصورة الجميلة لواد من الزمرد ، وصحارى ساخنة تمتد حتى الافق. إن مصر التي عرفناها هي قبل كل شيء ، ارض الابتسامة وارض رجال يستحقون التقدير دون تردد.

« لقد نال المصري اعجابنا بفضل ابتسامته الصريحة الهادئة التي تنير وجهه الاسمر ، وبفضل استعداده التلقائي للتضحية في سبيل معاونة غيره ، وبفضل طيبة قلبه العميقة ولطفه. وقد اعجبنا ايضا بسمائه المنطلقة الزرقاء التي لا تفارقها الشمس الساطعة على مدار السنة.

« قال لي احد الفلاحين من قرية الدندرة : « نحن نعيش حياتنا ...» ثم اضاف إلى هذه الجملة الفلسفية يقول : ... « وان حياتنا هذه ساطعة مضيئة مثل النهار ... ومثل النهار ، تتعرض حياتنا احيانا للظلام نتيجة وجود بعض السحب المتراكمة » ... ثم استطرد يقول : « وبطبيعة الحال ، فان السحب نادرة جداً في مصر ! .. » ان هذه الكلمات البسيطة تعكس حكمة ذلك الفلاح الذي يعمل ، مثل الآلاف من اخوانه ، في الارض التي خلقها نهر النيل ... انه يعمل بانهماك وعناد وصلابة تكذب جميع الادعاءات المغرضة

التي تصف الانسان العربي بالكسل والتهاون . ويكفي لأي انسان أن يزور مصر مرة واحدة ليتحقق من أن الجميع يعمل بمحبة ومواظبة .

« ومع شروق الشمس ، تبدأ جميع المدن المصرية بالتحرك ... هناك سيل متواصل من الكارات تتوجه إلى السوق ... سيارات النقل المشترك مليئة بالعمال والموظفين . وفي المكاتب ، يقوم الموظفون باعداد وارسال الخطابات والوثائق ... والجميع يعمل دون توقف .

« انه لمن الممتع فعلا ، بالنسبة للزائر ، أن يتجول في شوارع القاهرة ، في الفجر ، وان يحس بقلب البلد وهو ينبض ، ذلك البلد الذي يبني لنفسه مستقبلا معاصراً جديراً بالمجد الذي تعكسه الاهرامات وابوالهول .

« إن اعين ابي الهول تتابع باهتمام نهضة الوادي القديم حيث تتكاثر المصانع وناطحات السحاب ... وهو يسمع الصوت المصم للطائرات النفاثة التابعة لشركة الخطوط العربية المتحدة ، وهي تحلق في سماء مصر الساطعة .

« هل في ذلك تناقض بين الماضي والحاضر ؟ كلا ، بل في ذلك استئناف عظيم ونهضة حديثة مكملة لأمجاد الماضي .

« وان لم يكن الزائر قد شاهد مصر من هذه الزاوية ، فهو عاجز عن معرفة وجه مصر الحقيقي ، وعن معرفة المصريين معرفة صحيحة ، ومعرفة طلاقتهم التي تصاحب تصميمهم على التقدم والنجاح ، وهو عاجز عن أن يفهم أن في استطاعة هؤلاء الفلاحين والعمال والموظفين ورجال الاعمال ، أن يعملوا على هذا النحو من الشدة دون أن تفارقهم ابتسامتهم ولا هدوؤهم ، وهي

مميزات تبدو وكأنها انعكاس لسمائهم الساطعة وشمسهم الدافئة ... وهو عاجز عن أن يفهم أن عقلهم الراشد هو في صورة الآفاق الواسعة لبلدهم . »

معنى العمل

مهما كانت « طرافة » هذا التمجيد للعمل في الجمهورية العربية المتحدة ، فلن نخفي رأينا انه يمثل خطرا . ففي اسرائيل ، مثلا ، وفي خلافها من الدول ، كان تعظيم العمل ، وكان العمل الشاق المتواصل . ولكن ، ليس العمل جديراً بالثناء الا اذا كان يؤدي لخدمة قيم حقيقية . فأنا شخصياً افضل الكسلان الذي يتذهب في الشمس على اولئك الذين يجهدون في اعداد خطة معقدة للاستيلاء على شيء معين بالقوة . كنت افضل لو أن المخربين الهتلريين كانوا قد قللوا من حماسهم في العمل ... وحبذا لو أن عمال الصلب الالمان كانوا قد تكاسلوا قليلاً ! وليس من حق احد أن يضيع فرصة واحدة ليهاجم عبادة العمل العمياء ، وهي اكبر اكذوبة وشر خديعة . فان العمل لا يكون مقبولا ، حقيقة وموضوعيا ، الا اذا كان يمثل الميل الطبيعي للانسان الذي يؤديه ، وتفتحاً طبيعياً لنشاط تكوّن الانسان فيه وتطور ثم تكرس له ، والا اذا كان العمل هو بمثابة تفتح لما أسماه ارسطو بـ « الفعل الحقيقي الخاص لكل منا » ... ولكن ، هذه الكلمات تكاد لا تفهم لدى الحضارة اللاانسانية التي تسود في الغرب ، أو ربما تثير مجرد ذكريات بعيدة للعصر الذهبي الذي لا يشترك فيه سوى حفنة من ذوي المزايا من الفنانين والمبتدعين على مختلف انواعهم ...

ان ما سبق ليس الا مظهراً لما كتبه البروفيسور ريسلر في مؤلفه « الاسلام الحديث » ، والذي جاء فيه :

« ان العالم الاسلامي ليس بعيدا عن الايمان بان الحضارة الغربية قضت نهائيا على جميع اركان الحرية ، ودمرت السلم الداخلي للشعوب الصغيرة وخربت انسجامها ، بعد أن كانت تلك الشعوب ، وهي تعيش على هامش شعوب العالم الاخرى ، تستطيع أن تعيش سعيدة في هدوء الحياة الابوية ... فبالنسبة لهؤلاء السكان المغرمين بالحرية والاستقلال ، لن تستطيع حسنات التقدم والعلم أن تعوضهم عن هدوء الايام التي مضت وطمأنينتها . »

وما من شك أن هذه الطمأنينة كانت مؤاتية للعمل الروحي ... ففي تلك المجتمعات ، كان تمجيد العمل حقيقياً ، وليس تشويها كاريكاتورياً للمفاهيم التقليدية يكاد يعكسها رأسا على عقب على حد قول رينيه غينون ، الذي كتب يقول :

« لا يمكن للعمل أن يمجد بمجرد الخطب ، وهذا أمر لا ينطوي على معنى معقول . يمكن تمجيد العمل نفسه بتحويله من مجرد فعل مدنس للقدسيات إلى مشاركة فعلية وعن وعي لتحقيق خطة مهندس الكون الاكبر . »

إن مفهوم العمل على هذا النحو لم يمت في جميع الاوساط المصرية ، واذا كان قد بدأ يغيب في بعضها ، فيمكن أن يحيا من جديد . لقد كان الاخذ بأسلوب الغرب مجرد سلاح دفاعي وهو لا يزال كذلك . ولكن الخطر هو أن تؤخذ الوسيلة على انها الهدف ، فتتقمص الشعوب بالاسلوب الغربي بصفة دائمة ونهائية ... وبواسطة اللجوء إلى التقاليد؛ وبالعودة إلى الروحانية التقليدية الحقيقية ، تستطيع الاشتراكية العربية أن تجتاز مرحلة جديدة من مراحل نموها ، في جميع الميادين ، ثم تستطيع بعد ذلك أن تنهض على المجال الدولي لتواجه الاشتراكية الماركسية التي ليس لها أن تحاربها بل أن تخصبها وأن تغنيها اذ تعقم ، من غير عنف ، عناصرها السلبية .

وهنا ، نشارك رأي ريسلر ، مرة اخرى ، حينما كتب في عام ١٩٦٣ :

« على الصعيد الدولي ، يمكن لتطور الاسلام أن يعود بفوائد كبيرة لجميع الشعوب . ذلك أن الاستقلال الذي حصلت عليه شعوب الشرق مؤخراً طرح امامها الضرورة الملحة للتهوض بمصير الفرد ، بمصير الجماهير الشعبية من الفلاحين المساكين .

« لذلك ، فان الحل السحري للاصلاح الزراعي وتوزيع الاراضي يثير لدى هذه الشعوب المحبة للحرية ، رغبة شديدة لتملك بلورها تلك الارض العاقة التي امتصت جهودها وعرقها على مر القرون . ولكن ، يتضح لنا اليوم — وهو شيء يثير الاستغراب — إن الاصلاح الزراعي ، الذي كان دائماً اساسا للبرنامج الماركسي ، يستخدم في العالم الاسلامي كسلاح موجه ضد مذهب الجماعية بالذات . إن المسلم المتحرر ينشد اليوم الملكية لا الكولخوز ، وهو يطمع في أن يكون له منزله الخاص ، وممتلكاته الخاصة ، وأن يتمتع بها شخصياً ... واذا كان من اجل تحقيق هذه الامنية يشترك في منظمات أو في لجان تأميم أو غيرها من المؤسسات ، فهو لا يفعل ذلك الا بهدف الحصول على الملكية الفردية بشكل اضمن .

« وهكذا ، فان الاسلام يوشك أن يوفر للعالم المعاصر توازناً تميل الدول الغربية ، بالعكس ، إلى أن تبتعد عنه اذ تجد نفسها مقسورة على أن تماشي صيغة تعميم سيطرة الدولة بطريقة تصاعدية . »

٢ ـ بعض وجهات النظر

ماسينيون

« إن قضية الوضع السياسي للبلدان العربية ما زالت قضية حاسمة بالنسبة لهذا الميثاق الثقافي لدول البحر المتوسط ، الذي نأمل أن يكون موضع البحث بين اوروبا المسيحية (وفرنسا بصفة خاصة) والعروبة الاسلامية . الا أن الحل لهذه القضية يكون من الصعب تحقيقه خصوصاً بسبب الاستعمار الصهيوني لفلسطين والاهتمام الاقتصادي المتزايد للولايات المتحدة حيال هذا الاستعمار . صحيح أن جرائم اوروبا المناهضة للسامية هي التي سببت تضخم الهجرة الصهيونية إلى فلسطين التي بلغت ٢٠ ضعفاً عما كانت عليه منذ عشرين عاما . ولكنني اصر أن العدالة الاجتماعية الحقيقية تقضي بأن ترغم المانيا باعادة الجنسية الالمانية لجميع اليهود من مواطنيها الاسبقين ، بدلا من أن يرغم الاسلام على شن جهاد ميئوس منه للمحافظة على الاماكن المقدسة بما في ذلك مدينة القدس ... واذا كان في وسع الاسلام أن يجد صيغة للتعايش السلمي مع اليهود من النوع اليمنى أو من السفردي ، فأنه لا يستطيع أن يتكلم الـ « ايديش » مع اليهود من طائفة الاشكناز ، وبينهم وبين الاسلام تناقضات متعددة . وقد كان من المأمول ان يجري اصلاح اللغة العبرية في شكلها الجديد ، بأن يؤخذ في الاعتبار بعض العوامل المشتركة بين اليهود والعرب والتي لا بد منها لاعادة التوفيق بينهما ، تلك العوامل المعتادة بالنسبة لكبار الكتاب اليهود في القرون الوسطى ، الذين كانوا يكتبون بالعربية . وبعكس

ذلك ، يجري هذا الاصلاح في اتجاه الماني — امريكي ، الامر الذي يثير القلق..»

(كتب في عام ١٩٤٦ ، قبل قيام دولة اسرائيل بسنتين ،
ونشر في « الاسلام والغرب » — ١٩٤٧)

« إن فلسطين ، على وضعها الراهن ، تمثل التجربة النهائية وأعلى مراحل الاستغلال الاستعماري الدولي الذي يبث ، منذ قرون ، كراهية شديدة في سائر انحاء عالم المضطهدين .

ولم يكن هذا الاستغلال المنظم نتيجة لمادية عمياء ، ولكنه إفساد مدبر للقوى الروحية الاصيلة للانسانية ...

والنزاع الظاهري بين الانكليز والاميركيين ليس الا مهزلة ، في حين أن تضامنهم الوثيق عندما يدعون بأنهم يدافعون في الشرق الادنى ولا سيما في فلسطين ، عن الديموقراطية والاديان ضد الاتحاد السوفياتي ، ليس في الواقع سوى تفاقم سوء النية الفكرية وتعجيل للانتحار المعنوي للحضارة الاوروبية . »

اللاجئون

برنادوت

« إن معظم اللاجئين قد تركوا وراءهم جميع ممتلكاتهم ، وليست لديهم اليوم اية وسيلة لكسب العيش ... ومع قدوم الشتاء ، سوف تزداد متاعبهم وآلامهم ... إن الوضع فاجع في الوقت الحاضر حيث لا بد من الاختيار بين انقاذ حياة الالوف من الناس ، أو قبول موتهم جميعاً . ولا يعلم احد ما هي السياسة التي سوف تتبعها الحكومة الاسرائيلية المؤقته حيال عودة اللاجئين العرب ... وإن ما لا يمكن انكاره هو أن اي تسوية لن تكون عادلة وكاملة الا اذا شملت الاعتراف للاجئين العرب بحقهم في العودة إلى الاماكن التي قد اضطرتهم ظروف الحرب واستراتيجية الخصوم أن يهاجروا منها ..

وإن هجرة العرب من فلسطين قد تسببت عن الفزع نتيجة للمعارك ، أو عن اشاعات بقيام اعمال الارهاب ، أو نتيجة لأجراءات طرد . واذا لم يُمنح هؤلاء الضحايا حق العودة إلى ديارهم ، يكون ذلك مخالفاً للعدالة، كما يكون من شأنه أن يتيح للمهاجرين اليهود أن يقطنوا في فلسطين باعداد ضخمة ، وأن يستولوا نهائياً على ديار العائلات العربية التي كانت تقيم فيها منذ قرون مضت . »

(آخر تقرير كتبه الكونت برنادوت وتقدم به للامم المتحدة ، وقد وقّع عليه بيده بتاريخ ١٦ سبتمبر ١٩٤٨ ، أي قبل اغتياله بـ ٢٤ ساعة)

ماسينيون

« لم يعاملوا معاملة الضيوف ، بل تعرضوا لمعاملة الرهائن ... وصفوهم بالتكاسل ، وبالعيش على حساب الغير وبعدم استطاعتهم التعايش مع تطوّر الظروف . وبحماقة كبيرة ، جرحوا فيهم ما قد اطلق عليه اسم « النقطة الحساسة العذراء من الضمير الانساني » ، وهي آخر حشمة بالنسبة للمسكين الفقير أو بالنسبة للمرأة الساقطة ، ذلك الشرف الذي لا يكف حتى المجرم والسجين عن الدفاع عنه ، وذلك باحتقارنا لهم في الوقت الذي نتظاهر فيه بالرحمة ...

نحن لن نُبرّأ ابداً امام محكمة الآخرة ، اذا قال لنا القاضي الاكبر الذي يحاكمنا باسمهم وبصوتهم : كنت جائعاً ولم تعطني الأمل ... كنت متعطشا ، وكانت كأسك ملأى بالادوية الاصطناعية من امثال عقاقير منع الحمل ... ان إحسانك قد عاملني معاملة الرهينة الموضوعة تحت رحمة شهواتك ...

لذلك ، سوف يحكم عليك مثلما حكم على المدينة الملعونة بالنار ، لأنها حاولت أن تسيء استعمال كرم الضيافة الذي منحه لوط لملائكة الرب ...

وكما جاء في الانجيل ، فاننا سوف نحاسب في الآخرة على اساس الضيافة التي هي من واجباتنا الاساسية . وكما يقول المزمور رقم ١٢٦ « مثل السهام في يد القوي ، هكذا سيكون ابناء المطرودين ! »

(كتب بعد زيارتين طويلتين للاجئين ، في ١٩٤٩ ثم في ١٩٥٠)

ارنولد توينبي

« ان التعويضات المطلوبة من الالمان (على قدر ما يمكن ان تكون هناك تعويضات بالنسبة لابادة جماعية) مبررة مائة بالمئة ، وكذلك المطلب الخاص بايجاد وطن لليهود . وفي هذه الحالة ، كان ينبغي أن تعطى لهم أرض المانية لا عربية . ومن ناحية اخرى ، فمنذ بداية الاضطهادات النازية ، كان في وسع بريطانيا والولايات المتحدة ، بل كان لزاماً عليهما ، أن تستضيفا اللاجئين اليهود على اراضيهما ، لا ان تحمّلا فلسطين اقل نصيب من هذا العبء . »

مارتن بوبر

« ان العرب في اسرائيل يخضعون لقوانين عسكرية تقضي تماماً على حقوقهم المدنية الاساسية . فانهم لا يتمتعون بحرية الانتقال ، ولا بحرية اختيار مكان اقامتهم . وفي داخل النقابات ، ليس ثمة تكافؤ في الحقوق بينهم وبين الاعضاء الآخرين من غير العرب . وفي معظم المؤسسات والادارات الاخرى ،

فانهم يعانون من التفرقة نفسها ... ان وجودهم كله رهن الحكام العسكريين ومعاونيهم . واذا حاول بعض اعضاء الحكومة مساعدة العرب في المجال الزراعي ، والتعليمي ، والصحي ، فان جهودهم تُشلّ بواسطة الظلام الكثيف الذي تبثه الادارة العسكرية ، ولا تأتي بأي نتيجة .

(من العريضة التي وقع عليها ، منذ سنوات ، البروفسور مارتن بوبر ، وهو يُعدّ من ابرز علماء اليهودية العالمية واشهرها ، كما وقع عليها كثـــير من زملائه من اساتذة الجامعة العبرية في القدس ، وكذلك شخصيات اخرى) .

فهرست